محمد المجذوب



مؤسسة الرسالة



تأملات
في المرأة والمجتمع

الطبعة الرابعة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

الإهداء

الى الثلة المرموقة من فضليات هـذه الامة ،اللواتي استطعن الاحتفاظ بالبقية الغالية من تراثها الخلقي الكريم ، على الرغم من ضغط التيارات الهائلة الموجهة لاقتلاعهـا والقضاء على حماتها ودعاتها ...

الى فتيات الاسلام الصامدات في وجه الغزو الجاهلي.. المسلح بكل ضروب الاغراء والاغواء، وهن اللواتي لا يملكن من سلاح الا الايمان المطلق بحقائق الاسلام ،والثقة الكاملة بموعود الله ..

اليكن اينها الصامدات الصابرات المرابطات اقدم هذه (التأمـلات) ..

المدينة المنورة رجب ١٣٩٠ هـ.

محمد المجذوب
المدرس في الجامعة الاسلامية



مقدمة

١ ــ عندما تميد الارض تحت أقدام الناس لا تجد بينهم من يستطيع تحديد موقفه ولا مصيره ، اذ يكون الجميع مأخوذين بدهشة المفاجأة ، فليس لدى أحدهم فرصة لسؤال غيره ، بل لا يخطر في بال أحد أن يسأل غيره

والعين التي تستطيع تسجيل هذه الحركة العامة يجب أن تكون خارج المجال ، وفي وضع معزول تماما عن تأثيره..

وفي اعتقادي أن العقل الذي صنع قصة جحا وهو يقطع الغصن في وضع معكوس انما يريد اعطاء هذه الصورة .. صورة فقدان الوعي الذي يصاحب مثل هذه الحركة في مجالها المعين ، فجحا يقف على طرف غصن يعمل هو في قطعه من ناحية الجذع ، دون أن ينتبه الى حتمية السقوط الذي سيصير اليه ، فاذا مر من ينبهه الى هذا المصير ، الذي انتهى اليه فعلا بعد قليل ، نهض يعدو خلفه ليقول له : لقد عرفت امر سقوطي قبل حصوله.. فلن أدعك حتى تنبئني بنهايتي متى تحين !..

هذه الصورة تمثل واقع المرأة العربية اليوم ، في اندفاعها المحموم وراء المجهول ، الذي لم تجرب قط أن تسأل نفسها عن غايته ومحتواه •••• وهو واقع لا يتاح التخلص من ضغطه الا للانسان الذي استطاع أن يعزل نفسه عن مؤثراته ، ضمن حصانة من الفكر الحر المزود بمقاييس الطوارىء ••

٢ ــ قبل نصف قرن كانت المرأة العربية الاسلامية معزولة عن حركة المجتمع ، لا تكاد تحس بما يجري خارج حدود بيتها ، فلما استحر الاحتكاك بين الوطن العربي ومحتليه من زبانية الغرب وجدت نفسها تواجه عجلة التطور الحضاري ، دون تخطيط ولا اعداد ، وما هي الا سنوات حتى كان هناك جيل خلاسي من نسوة لا يحملن من أثر الاسلام وقيم العروبة الاصيلة سوى نسبة على هوية ، ثم صورة لمصحف من الذهب يتحرك فوق صدر جاوز بعريه وتبرجه كل ما يرمز اليه هذا المصحف من معان !••

٣ ــ وليس من شك في أن الوضع الذي كانت تعيشه المرأة العربية والاسلامية في أواخر عهود الانحطاط لم يكن مما يرضي العقل ، أو يساعد على التطور الصاعد ، فكان لزاما على المفكرين أن يبحثوا عن الحل الصالح لتغيير الواقع السيء ، فكتبوا وخطبوا ونظموا •• ولكنهم على اختلاف اتجاهاتهم العقلية لم يخطر في بالهم قط أن ينتهوا بالمرأة

الى هذا المجهل الجديد ، الذي أضاع شخصيتها ، وصرفها عن حقيقتها ... فجعلها كالكرة الطائرة ، تخبطها مضارب اللاعبين ، فتتهادى في كل اتجاه .. ولعلها مع ذلك لو نطقت لفاخرت بأنها ترفع على أكف المعجبين الى عليين !..

٤ ــ يوم زحفت كتائب العرب الى فتح العالم المهترىء خرج كل فرد منها مزودا بالخصائص الثابتة ، من شمائل العروبة وهداية السماء ، فكانت المعركة بين الدم الميت والدم الحي ، بين نفسيات متعفنة تعتعها السكر ، وهدمتها تفاهات الامجاد الترابية .. وبين شخصية جديدة سلمت فطرتها من تشويه الميوعة ومفاسد الحضارة ، فهي تؤمن بنفسها وتعرف هدفها الذي حددته بأنه (اخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام . (١) وطبيعي أن شخصية كهذه لا يحسن بها أن تكون ذيلا في ثياب أولئك السكارى.. تتبع ظلهم حيث قادتهم الأهواء ، لأنها تعلم أن مهمتها انقاذهم من حماقاتهم ، لا مجاراتهم في ترهاتهم !. ولذلك أصيب الفاروق بصدمة ، عندما بلغه أن بعضا من جنود الفتح في أقطار فارس قد اتخذوا السراويلات الأعجمية .. فاذا هو يوجه الى قائدهم هذا الأمر (العاجل جدا) : اذا

---

(١) من كلام ربعي ابن عامر رسول سعد بن أبي وقاص الى رستم قائد الفرس أيام القادسية ...

جاءك كتابي هذا فَمُرْ كل من اتخذ السراويلات الفارسية من جنودك أن يخلعها » .

وما كان ابن الخطاب ممن يمضي على غير وعي .. وهو الذي نذر لله أن يحمل رعيته على الجادة ، فهو في توجيهه انما يصدر عن ادراك عميق لطبائع النفوس وأخطار التقليد ، موقنا أن أهم واجب عليه هو تحصين رعيته من رذائل الأمم الغارقة في المتارف .. لكي يحفظ عليها فطرتها سليمة من بوادر الانحلال ، الذي ذهب من قبل بقوة الشعوب .

٥ ـ واليوم نرى شيئا من مثل ذلك يتمثل في تاريخنا الحديث ، وان يكن الفرق بعيدا بين سلف خرج الى الدنيا معلما وفاتحا وقائدا ، وبين خلف يتحرك للحوق بركب سبقه الى قيادة الدنيا من زمان .. ولعل المرأة أبرز مثال لهذا الضرب من التشابه بين وقائع التاريخ ..

لقد وصلت المرأة العربية الى مطلع عصر النهضة، مصونة الفطرة من الانحلال ، على الرغم من كل ظروفها السيئة ، ولكنها ما إن أطلت على مفاسد الغرب حتى اجتالتها شياطينه ، فاذا هي تتخبط في مستنقعه .. لا تجد مستقرا ولا تهتدي طريقا ...

لقد راعها من الغرب بريق مصانعه وطرافة منتجاته،

مما لا تجد له مثيلا في شرقها ، فحسبت حياته كلها على هذه الصورة من القوة والتكامل ، فآمنت بألا حياة الا حياته ، ولا طريق الا طريقه ، وهكذا رضيت بالسير وراء الهابطات من نسائه ، تتبع آثارهن في كل زي ومسلك .. حتى أصبحت لا ترضى عن ثوبها الا بمقدار انطباقه على نماذجهن الواردة في (كاتالوكات) هوليوود وباريس !... فاذا رأيت ثوبها طويلا يستر بعض العورة فاعلم أنه صورة من الأنموذج الجديد في ذلك (الكاتالوك) .. واذا رأيت فيه قصرا ينبو به ذوق الانسان ، فمرد ذلك الى المصدر نفسه !. ومن هنا أصبحت ترى المرأة العربية ــ بخاصة ــ حينا في الشوال ، وآنا في البرميل ، ومرة مستورة، وأخرى عارية .. وليس لها في هذا ولا ذاك من ارادة ولا امتناع، ولكنه الانحلال الذي جعلها ــ الا من رحم الله ــ ظلا لا ثبات له على حال !..

٦ ــ وفي بلادنا بيوت لا تزال محتفظة باسلامها ،على الرغم من وفرة العوامل الدافعة الى الانسلاخ منه ،ولكنها مع ذلك واقعة في شرك هذا التقليد المجنون ، لا ترى أي بأس في الخضوع له !.وقد تجد رب بيت من هؤلاء متماسكا بازاء هذا التيار ، يحاول صيانة أهله من سمومه .. الا أنه أعجز من أن يستطيع نجاحا .. لأن أهل بيته لا يستجيبون لتوجيهه الا حيث يراهم ، فاذا غابوا عن عينه

تحرروا من كل شيء !••

ولن أذهب بعيدا فأكون كالذي يرى القذي في عين أخيه ويعمى عن الخشبة المعترضة في عينه •• اني لأحس الأرض تميد تحت بيتي ، وأرى الى بنيَّ جميعا يتخبطون في شرك الفتنة، فأهلع وأجزع وأعظ وأذكّر•• ولكن •• واأسفاه • لا أجد الا ما وجده نوح وهو يقول لابنه : (يا بُنيَّ اركبْ معَنا ولا تكنْ مع الكافرين) ••فيقول: (سآوى الى جبل يَعصمُني من الماء •• وحال بينهما الموجُ فكان من المغرقين ••) !

أجل •• واني لأحس أنهم جميعا ، ولا أكاد أستثني، يستقبلون مواعظي بالهزء المكتوم والسخرية المستورة •• وكأني خَرِف أكلم الأشباح وأطعن في الرياح •!!

ولا أحمل على أهلي من اللوم فوق ما يستحقون ، فما هم ببدع في هذا الانهيار ، بل لعلهم أقل الناس استسلاما اليه ، فهم لم يفقدوا بعد حس الايمان كله ، وكثيرا مايعون كلامي ، فيأسفون ، ويندمون•• ولكن الذي يؤذيني منهم أنهم لا يعملون شيئا لتصحيح أوضاعهم ، كأنهم يشعرون أن كل شيء حولهم وتحتهم يتحرك في سرعة لا تدع لهم مجالا لعمل شيء !••

٧ ـ هذا الواقع الرهيب لا بد من تشخيصه واستقصاء

منابعه ونتائجه ، اذا كان يهمنا مصير وطننا وأمتنا ، فليس طبيعيا أن نفكر بأشكال أحذيتنا وألوان ثيابنا ، وأصناف طعامنا ، ثم ندع لأزواجنا وبناتنا وأمهاتنا أن يجرفهن تيار التقليد الأعمى ، دون أن نعلم شيئا عن العواقب التي يشرفن عليها ، والمزالق التي سَيَسُقْنَ أبناءنا وأحفادنا اليها ...

ولقد ترقت مفاهيمنا السياسية حتى أصبحنا نملك من قوة الحدس ما يرينا اليد الصهيونية وراء كل حركة وسكنة من قضايا الدول والشعوب ، فما بالنا نغفل عن تدبير هذه اليد المختفية وراء قضايانا الاجتماعية بعامة ، وقضية المرأة العربية والاسلامية بخاصة !.. وهي التي لا تتورع حتى عن استغلال قداسة التعليم لافساد العلاقة الروحية بين هذه المرأة وقيَمها الأصيلة ، اذ (لا ترى في المدرسة سوى أقصر الطرق الى اقتحام حصن الاسلام .. (١) ولا ترى في كل مظاهر الخدمة الاجتماعية لدى المبشرين ــ من ايجاد بيوت للرجال والنساء ، خصوصا الطلبة والطالبات، وايجاد أندية ، والاعتناء بالتعليم الرياضي وبأعمال الترفيه ، ثم حشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال (٢) ــ سوى وسيلة

(١ و ٢) انظر صفحة ٨٦ و ١٧٩ من كتاب (التبشير والاستعمار في بلاد العرب) .

طبيعية لدفع المرأةالمسلمة في الطريق الذي يخرجها نهائيـا من أحضان الاسلام !.

ان ثمة توجيها خفيا يستهـدف وضع المرأة ، مـن أمهاتنا وأزواجنا وبناتنا وتلميذاتنا ، في ظروف مقصودة ، تسلبهن الثقة بأنفسهن وكل مقوماتهن ، ولا جرم أن الهدف من وراء ذلك خطير رهيب .. انه تحطيم السدود الروحية التي حفظت لهذه الأمة حتى الآن مشاعر الحرية والعـزة الدافعة الى النضال ، ثم اجتثا ث الجذور التي تربطنا فـي أعماق التاريخ برسالة المجد الآلهي ..التي جعلت من أمتنا خير أمة أخرجت للناس .

ولعمر الحق لقد نجح هذا (التكتيك) الجهنمي حتى الآن الى حد أفقدنا الكثير من حرية العمل ، حتى أصبحت (مشكلة الفرد المسلم ، بالنسبة للصراع الفكري، خاضعة لايحاآت تسلطها على مشاعره المختبرات المختصة .. فلا يستطيع توجيه سلوكه الفكـري والعقلي طبقا لمقـاييس يحددها عقله ويعيها ضميره ..(٣) وهذا أمر من حقـه أن يستوقف أولي البقية من الحياء والايمان والحرية ، ليثير تفكيرهم في ما وراءه من جوائح لا تبقي ولا تذر ..

---

(٣) انظر صفحة ٩٠ مـن كتاب (الصراع انفكري في البلاد المستعمرة) للمفكر الجزائري « مالك بن نبي » ...

أجل • لقد بات وضع المرأة المسلمة في مهب الأعاصير، فليس من الحكمة أن يترك زمامه للمصادفات تقذف به حيث يشاء أولو الأهواء •• ولا ريب في أن الواجب يضع على كل عاتق نصيبه من المسئولية ، لا يستثنى من ذلك صغير ولا كبير ، ولا حاكم ولا محكوم ، على أن الخطر من الأحكام بحيث لا يصلح لدرئه عملياً سوى (الكبار) الذين وضع الله في أيديهم مصاير البلاد ، ومصالح العباد •• فرب حكمة من مسئول تكون كالسد في طريق السيول ••

لا نريد أن نكذب على الحقيقة فنقول : ان الأمة تريد !• فالأمة غافلة عما يراد بها من كيد بهذه الانحرافات الاجتماعية المبيتة ، وما دامت في غمرة الرجفة فعسير عليها، ان لم نقل مستحيل ، إدراك واقعها ••

وانما نقول إن مصلحة الأمة تهيب بالمسئولين أن يضغطوا على كابح القاطرة ، قبل أن تصير الى حافة الهاوية ••

واين موضع هذا الكابح ، ان لم يكن في التشريع•• الذي يفرض على المرأة أن تقف جنون السباق ، الذي تمارسه في حلبة التقليد الأعمى ••

التشريع الذي يقول لمعاول الهدم من اصحاب الفنون الهابطة : ارتفعوا •• أو دَعوا •• فليس في حياة الأمم

المكافحة مجال لرقاعات السفهاء وثرثرات السخفاء ..

التشريع الذي يقول للمرأة : مهلاً.. لقد ملأت بتهتكك دروب الناس ألغاما ، فاقني حياءك ، والزمي حدود الحشمة التي حتمتها تعاليم السماء على لسان جميع الأنبياء.. وان لم تفعلي ذلك مختارة فعلته مكرهة .. فليست أميركة، وهي مبدعة هوليود ، ومزرعة رذائل اليهود ، وليس بيتان، وهو ابن باريس أم الفجور والفسوق ، بأغير على الآداب العامة من وطن عيسى ومحمد ، ومن الأمة التي لا تزال تحمل للدنيا رسالتهما الخالدة ...(٤) .

---

(٤) في بعض الولايات المتحدة قانون يفرض على المرأة الا يزيد كعب حذائها عن مقياس معين ، وقد زود رجال الشرطة هناك بمنشار يقطع كل زائد منه عن المباح .. وفي فرنسة أعلن المارشال بيتان عقيب هزيمة بلاده امام الالمان في الحرب العالمية الثانية : ان سر الكارثة يعود الى الفجور ، واصدر تشريعا يحدد للمرأة قياس ثوبها واكمامها بشكل يستأصل دابر الفتنة... وها هوذا نيريري ديكتاتور تنزانيا يفعل اليوم قريبا من ذلك .

ومن بوادر الوعي الاسلامي في (بعض) ربوع الاسلام بيان الرائد الاسلامي عاهل المملكة العربية السعودية ، الذي حذر فيه ابناء شعبه وبناته من مفاسد التقليد الذي لا تقره آداب الاسلام .. ثم تلك الصيحة المباركة التي ارسلها عاهل المغرب الاقصى في وجه اولئك المستهترات من ضحايا ذلك التقليد ، الذي بات يهدد المغرب بأفدح الكوارث الاجتماعية .

٩ ــ وبعد •• فهذه اشارات موجزة أقدمها بين يدي هذه البحوث ، لتكون بمثابة تلخيص يعرّف القارىء بمضمونه على وجه الاجمال ، فيكون من أمره على بينة، ان شاء مضى معنا الى نهاية الطريق ، وان شاء فارقنا من الخطوة الأولى •

وحسبنا بعدذلك أننا لا نبتغي بما كتبنا الا وجهالله والدار الآخرة • ومن كان همه هناك كان في شاغل عما يقوله المادحون والقادحون •••

« إن أريد الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب •• »

المؤلف

من التاريخ

في المجتمع الحديث يحتل حديث المرأة الحيز الاكبر من تفكير الباحثين . ولذلك كان لزاما على الكاتب في هذا الموضوع ان لا يغفل النظر الى المراحل التاريخية التي اكتنفت قضية المرأة ، ليتاح له الالمام بمنزلتها لدى مختلف الامم قديما وحديثا ، وليدرك بوجه خاص مكانتها في فلسفة القيم الصحيحة .

ولا جرم ان الناظر في موضوع المرأة قبل الاسلام لن يجد ما يسره . اذ يرى نفسه امام اجماع عالمي على تجريد هذه المخلوقة من جميع الحقوق الانسانية ؛ واذاكان هنالك من تفاوت في هذا الحكم فمرجعه الى (الكم)دون (الكيف) .

ولعل الطابع البارز في حكم العالم القديم على المرأة هو انها موضع اللذة . لا وزن لها الا بمقدار ما تطلبه نزوة الجنس . لذلك راح الاقدمون في الهند واليونان وروما . وحتى في اوساط العبريين يفتنون في اختراع

الوسائل المهيجة لهذه اللذة ، ولا يتورعون ان يفرغوا عليها الوان القداسة بادخالها المعابد ، حيث يتخذ البغاء صفة التقرب الى الآلهة !• وهذه تماثيل الأثينيين لا تُعنى من المرأة الا بابراز مفاتنها الجسدية المثيرة •• حتى لآلهة في اقاصصهم لم تتجاوز كونها بؤرة حقيرة لهذا النوع من العُهر الذي يمثل عبادة الشهوة في نفوسهم !• وفي الجزر اليونانية كقبرص كان النظام الديني يدفع الفتاة الى اباحة عرضها للغرباء ،كعمل محتوم يعود بالفخر على أهلها، وقد ذكر بعض قدماء المؤرخين ـ كاسترابون ـ ان معابد اليونان كانت تزدحم بالبغايا اللواتي يقدمن اجسادهن للاجانب ، اجتذابا لهم واسهاما في زيادة الدخل القومي !•• وهكذا الامر لدى العبريين اذ كانوا يفتحون هياكل العبادة لمزاولة الدعارة (١) • وقد استمر هذا النوع من البغاء في الهند الى القرن التاسع عشر ، حيث كان عدد ضخم من النساء يعرضن اجسامهن ، مخصصات دخلهن لهذه المعابد التي يتخذونها مواخير دينية ••!

وجاءت المسيحية فلم تستطع ان تتخلص من نظرة العهد القديم الى المرأة، تلك التي تعتبرها مصدر الخطيئة الاولى•• اليست هي التي أطاعت الشيطان وأغرت آدم بطاعته (٢)

---

(١) ـ ٤ـ١٤ يوشع . (٢) ـ الاسلام لا يفرد حواء بالخطيئة. وفي القرآن الكريم ـ (وقاسمهما ـ الشيطان ـ اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور .) فالخدعة وقعت عليهما معا والمعصية كذلك .

فما على ابنتها اذن ان ترث تبعة هذه الخطيئة الأصلية ، لذلك اعتبرتها الكنيسة باب الشيطان .وقرر أحد المجامع الكنسية في رومة انها حيوان نجس لا روح لها ولا خلود!.. وهكذا ظلت مسلوبة الاعتبار الانساني حتى جاء مؤتمر ٥٨٦ الذي عقد في فرنسة ، فأقر بعد الاخذ والرد ان المرأة انسان .. ولكنه خلق لخدمة الرجل فقط ..!

ولا شك اننا نظلم المسيحية بتحميلها أوزار الاباحية التي تنتشر في دولها . اذا ظننا ان ذلك نتيجة نظرها الى المرأة . لان المسيحية بالحقيقة ليست هي التي تحكم النفوس في العالم الغربي . وان بدا تساهل الكنيسة في هذا الموضوع الى حد انها اصبحت ـ كما هي في السويد ـ احدى المصالح التابعة للدولة . لا وظيفة لها الا تسويغ القوانين والتدابير التي تتبناها الدولة . كما تقول جريدة التايمز ، ثم لان العامل المسيطر على حياة الغرب كله انما هو عامل الموروثات الوثنية ، التي تحدرت من جاهلية اليونان .فما زالت تحكم الخلق الاوربي والاميركي كشأنها قبل المسيحية.. وربما لا نغالي اذا قلنا انها ما زالت تحكم النظرة الكنسية نفسها الى حد كبير .

هذه نظرة خاطفة الى المرأة في العالم القديم خارج الجزيرة العربية .. وننتقل الان الى الجاهلية العربية لنفحص وضع المرأة في ظلها .. والحق ان النفس العربية

الا كونها جهازا للتفريخ.. يتطلبون لـه النطفة الأصيلة ، الجاهلية كانت اكثر نفوس البشر قبل الاسلام انصافا للمرأة، على الرغم من غلبة القسوة على طبيعة الجزيرة . ولعل مرد ذلك في الدرجة الاولى الى خصائص المرأة العربية الذاتية، والى نشأتها الخلقة التي كانت موضـع تقدير المجتمـع الجاهلي . وقد رأينا قبائل برمتها ورجالا من أكابر القـوم ينتسبون الى الامهات ، ، وقد رُوي عن رسو لالله (ص) انه قال (انا ابن العواتك من سليم) (١) .وهو يشير بذلك الى نسوة من اصوله كل منهن تسمى عاتكة ..وقدكان لبعض النسوة في الجاهلية اثرهـن الكبير في كبـريات الاحداث ، وهذه معركة ذي قار وهي مـن اضخم احداث الجاهلية تشب بسبب امرأة ارادها كسرى واباها النعمان عليه ، وتلك حرب الفجار نشبت من اجل امرأة أراد بعض الشباب كشف نقابها .كذلك رأينا شعر الجاهليين طافحا بالحديث عن المرأة واثرها في تنشيط الفضائل لدى الشباب اذ يبذل الفتى نفسه في المعارك ليجري ذكره على ألسنة الفتيات كواحد من الابطال ... وامتازت بعض البيوت العربيـة باكرام البنت حتى لا تسمح بزواجها الا برضاها هي ، كما حدث للخنساء اذ رفضت دريدا سيد بني هوازن وحكيمها،

---

(١) رواه الطبراني عن سيابة بـن عاصم بسند صحيـح ، ورواية احمد (من بني سليم) .

لتتزوج اخيرا من رجل متلاف مقامر ذاقت في ظله ضروب الشقـــاء !•

ولكن هذا الحظ من التكريم لم يكن منتشرا في كل الجزيرة ، اذ ان طبيعة البادية قد نــالت من المرأة العربية أقسى منال •• فقد قضى نظامها العنيف ان لا تعتــرف بالحياة لغير القوي. لذلك حرمت المرأة والطفل حق الارث! •• بل حرمت حتى حق الحياة فسبيت وبيعت ووئدت • وهذا قيس بن عاصم المنقري يأتي رسول الله (ص) مسلما ويسأله ان يستغفر له الله لأنــه وأد اثنتي عشرة او ثلاث عشرة من بناته في الجاهلية (٢) وفي كثير من القبائل لم يكن للمرأة اي حق . حتى انها لتورث مع المتاع فلا تملــك ان تزوج نفسها من أحد . بل للوارث وحده أن يعضلهــا أو يخص بها نفسه أو يبيعها !•• وهي الى ذلك لا تستوي مع الرجل في الدماء . فاذا قتل رجل امرأة لم يقتل بها •• لأن القاعدة أن الرجل لا يوازيه الا رجل • وهذا الفاروق عمر (رضى الله عنه) يحدثنا عن هذه المظالم فيقــول (والله انا كنا في الجاهلية ما نعــد للنساء امرا حتى انزل الله فيهن ما انزل وقسم لهن ما قسم) •

ولقد شاركت الجزيرة العربية بقية الشعوب في ظلــم الأنوثة •• فأهلهافي الغالب ما كانوا ليفهموا من المــرأة

---

(٢) بلــوغ الارب وأسد الغابة وابــن كثير في تفسير سورة (التكوير) .

الا كونها جهازاً للتفريخ •• يتطلبون له النطفة الاصيلة ويختارونها من الاجهزة الاصيلة ، ليظفروا منها بالولد الاصيل !• ولهذا كان عندهم من انواع الاتصال الجنسي ما يسمونه زواج الاستبضاع ، وهو ان يرى الزوج فحلا يعجبه من الرجال ، فيأمر امرأته بان تبعث في طلبه لتستبضع منه !! ــ البخاري عن عائشة ــ

أما البغاء فكان منتشرا في مختلف الأنحاء ، تقام له البيوت وترفع فوقها الرايات ، ويردها من يشاء من الرجال• ويحدثنا التاريخ أن كبارا من الجاهليين كانوا يتاجرون بأعراض الفتيات . فيكرهونهن على مزاولة الدعارة ليأتينهم بالمال • لا يجدون في ذلك حرجا !• وقد استمر فيهم هذا حتى نزل قول الله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) •

ومهما يكن من امر التفاوت بين مكانة المرأة العربية وغير العربية في عالم ما قبل الاسلام ، فالقاعدة المشتركة أنها مسلوبة الحق كانسان ، وليس لاستثمارها في البغاء هنا وهناك سوى معنى واحد ، هو الاتفاق على الانحدار بها الى مرتبة الحيوانية ، مهما تكن المسوغات ، ومهما تكن المظاهر التي تحاط بها تلك الفاحشة البهمية من الاحترام الكاذب ، والمسميات المغرية، كالاستبضاع والبغاء المقدس ، وما الى ذلك •• اما ما عدا هذا من فلتات الاكرام فليس هو الافيض الفطرة ينبثق بين الحين والحين ، ليمثل شذوذ القاعدة •• او ليذكر الناس بالحق الذي طمرته انحرافات الانسان •

نور جديد

في ضوايا هذا الظلام ينبعث فجر الاسلام فتسمع الدنيا لأول مرة في التاريخ :

(المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..) (١) .

وأن (لهن مثل الذي عليهن بالمعروف .) (٢) .

و (للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن .) (٣) .

وأن (النساء شقائق الرجال .) (٤) و (استوصوا بالنساء خيرا .) (٥) و (أمك ثم أمك ثم أبوك) (٦).

وبذلك وضعت الاسس الكبرى لكيان المرأة الجديد، الذي ما لبث ان آتى ثمره في ظل المدرسة النبوية ، فاذا المرأة إمام تستفتى في أعظم مشاكل الانسان ... واذا هي مصلحة سياسية تقف في وجه رئيس الدولة لترده الى ما تعتقده الحق .. واذا هي تشارك في مسئوليات المجتمع الجديد مربية وممرضة ومكافحة ، حتى لتسبق الرجال الى كرامة الشهادة (٧) .

---

(١)(٢)(٣) من القرآن الكريم . (٤) حديث شريف رواه كثيرون منهم ابو داوود وابن ماجه واحمد وفي فتح الباري « هن شقائق الرجال » (٥) من حديث متفق عليه (٦) من حديث رواه الشيخان (٧) سمية اول شهيد في الاسلام .

ولم يكتف الاسلام بكل هذه النعم يُفيضُها على المرأة ، بل رفع منزلتَها الى ما فوق منزلة الرجل نفسه ، وذلك بتكريمه للامومة في شخص المرأة ، اذ جعل الام أحق بالاكرام من الاب .. وجعل اكرامها اقرب سبيل لدخول الجنة .

وكما عُني الاسلام بالمرأة أماً فرفعها الى اجل مكان.. عُني بها كذلك زوجة وابنة واختا ، فنظم كيانها في كل ذلك على اسس قانونية ، لا يضيع معها الحق مهما تختلف ظروف الحياة . فهي كزوجة لها مثل ما لزوجها من الحُقوق الا القيادة العليا للاسرة ، فلا يجيز إهانتها ولا ايذاءها ، الا في الحالات التي لا يصلح فيها النصح واللين ، فيسمح فيها بالعقوبة كما يسمح القانون بعقوبة اي مخالف ، دون ان يصل ذلك الى حدود القسوة التي تُدَمر هناءةالبيت، ثم فرض على الرجل إحسان معاشرتها وملاطفتَها ، حتى جعل اللقمة يضعها في فم المرأة عملا صالحا يستحق عليه الأجر .

.. بلغ الاسلام من تنظيم الحياة الزوجية حداً من الدقة لا تعرفه القوانين البشرية ، اذ فرض لكل ضرب من الخلاف علاجه من النصح والتحكيم والهجر ، حتى اذا استعصى الداء واستحال استمرار الحياة الزوجية ، اذن بالطلاق الذي جعله من المرانة بشكل يضمن استبقاء

العلاقات الزوجية الى اقصى حد ممكن ، فلا يحكم بقطعها نهائياً الا عند اليأس القاطع من كل تفاهم .

وهي كابنة وأخت مصونة الحياة. فلا وأد ولا ظلم، وموفورة الحقوق اذ أوجب تعليمها كما أوجب تعليم الابن، كلاً في حدود امكاناته ومواهبه . واعطاها من التكريم فوق ما اعطى اخاها . حتى لقد حض الرسول (ص) على ايثارها بالهدية السارة .. وقد جاء في الحديث الشريف (من عال ثلاث بنات او ثلاث أخوات او اختين او بنتين فأدبهن واحسن اليهن وزوجهن فله الجنة) (١) .

ومن هنا .. من هذه المبادي الآلهية انبثقت الحقوق الجديدة للمرأة في جميع انحاء العالم .. فقد حمل الاسلام هذه التعاليم علماً وفلسفة ونماذج حية الى كل مكان اتصل به او دخله .. فكانت كالتيار الكهربائي : ما لبثت ان هزت الضمائر ، وكشفت البصائر ، فتهاوت الاغلال عن عنق المرأة ، فعرفت نفسها بنور ربها .. حتى لم يبق اليوم مكان في العالم لم يستمتع بأشعة هذا النور ، الا ان يكون من التحجر العقلي بحيث ظل يؤثر تقاليد الجاهية على مبادىء السماء .. فاستبقى المرأة حيث كانت قبل القرآن مسلوبة الشخصية ، مهضومة الجانب ، لا حق

---

(١) رواه ابو داوود والترمذي .

لها في علم ولا دين !..

وفي هذه المبادىء الكاملة يجمع الاسلام للمرأةبين مطالب الجسد ومطالب الروح ، على أساس من الانسجام الذي أراد به تكوين المجتمع الفاصل ، فحقق لها بذلك مساواة تامة مع الرجل في نطاق الحقوق الاساسية ،مراعيا في كل منهما الفروق الطبيعية التي لا بد منها لاستمرار الحياة . وبهذا كانت مساواة الاسلام طبيعية تلحظ واقع الجنسين ، فتعطي كلاً منهما حقه كاملا ، لا كتلك المساواة الآلية التي تقوم على الغاء الفروق العضوية والنفسية. وما يستتبعها من توزيع العمل حسب الاختصاص ،لان هذا في نظر الاسلام لعبة سخيفة لا مكان لها في مجالاته التي لا تعرف العبث .

المرأة الآلة

ولقد حاولت مادية الغرب ان تتجاهل الحقائق ،حين دفعت المرأة الى مجالات العمل المختلفة ، ولكنها سرعان ما اصطدمت بواقع الفطرة ، اذ ثبت لها ان من العبث مطالبة المرأة بالنجاح في كل ميدان ، فاكتفت منها أخيرا بالاقتصار على مناطق معينة ، لا تعدو غالبا استغلال انوثتها في امور شهوية .. لا تمكنها من لقمة العيش الا بعد ان تستلب انسانيتها ! فهي في الغرب « سكرتيرة للترفيه » .. أو ارتيست في مشارب الخمر ودور الرقص ، أو عارضة

أزياء تكلّف ارتداء الالبسة الحديثة ، لتظهر مفاتنها للشارين والشاريات !.. وهذه مجالات لا مكان فيها من النساء لعوراء او صلعاء او حدباء او ضهياء أو رسحاء أو لطعاء أو قعساء (٢) .. الى ما هنالك من عيوب شائنة لجمال المرأة ، حتى بات مألوفا ان تقرأ مثلا في صحف الغرب إعلانا عن حاجة شركة تجارية الى «سكرتيرة» يكون الجمال فيها اول شروط القبول .. وها انا ذا اقرأ في صحيفة حلبية اعلانا من شركة للبوتوغاز ، على الطريقة الغربية ، يريد عاملة تتصف اول كل شيء بالجمال !.. ولا حاجة الى القول بان ذلك استئجار للجسد لا رغبة في العمل !..

ولعل من اشرف مجالاتها في الغرب ان تكون عاملة في مصنع ، أو كناسة في شارع !. وفي بعض المناطق الاوربية اقتحمت ميادين الاشغال الشاقة ، فهي وقّادة في افران الصلب ، تجابه النيران الجهنمية بذلك الجسد ، الذي كان بالامس معرض الأنوثة اللطيفة ، فبات تمثالا للشقاء لا تلمح على قسماته طيف ابتسامة !.

ولقد حدثني بعض شبابنا الوافدين الى الدراسة في

---

(٢) الضهياء ــ التي لا ثدي لها . والرسحاء ــ لا عجز لها ، ولا لحم لها . واللطعاء ــ بيضاء الشفة ومشوهة الاسنان والقعساء ــ التي دخل ظهرها وخرج صدرها ..

اوربة عن بعض ذلك الشقاء ، فكان مما لاحظه انالزوجين كثيرا ما يقومان بالعمل في مصنعين متباعــدين ، ويكون احدهما في نوبة الصباح ، والآخر في نوبة المساء ، فتمر الايام لا يلتقيــان ، ولا يرى احدهما الآخر الى عطلــة الاسبوع ، وقد انتهيا اليهــا منهوكين كالراكض في سباق الف المتر ...!(١)

ولا أدري لماذا يذكرني هذا الواقعالشقي بقصة ابي نواس يوم جاء والبة بن الحباب ، فاذا هو يجده نائمــا من السكر . فيشفق انيزعجه من غفوته . فيدعو بالخمر ويشرب حتى يغلبه السكر .. فاذا نهض والبة ورأىضيفه أشفق كذلك ان ينبهه ودعا بالخمرة فشرب ونام!...وهكذا تمضي الايام عليهما لا يلتقيان وهما في الغرفة الواحدة !.

---

(١) من عجيب الموافقات انني كنت لساعة ادير المؤشر على قصد فاذا امرأة تقول « وفي شمال النمسا احتفلت ، وزوجها فلان بالاجازة التي جمعتهما بعد فراق عامين لم يكادا يلتقيان خلالهما قط .. ذلك ان الزوج كان عاملا في احد المصانع ضمن فوج الصباح ، بينما كانت زوجته عاملة في قسم المساء . فقضى ذلك عليهما بهذا الفراق الجبري الذي لم ينته الا بتلك الاجازة !.» و نتظرت نهاية البرنامج فاذا هو (برنامــج المراة العاملة) تقدمه مذيعــة اسمها (صفية المهندس) !

لا جرم ان في القصتين ، قصة الزوجين وقصة الماجنين ، قدراً مشتركا هو هـذا السكر الحاجز بين الرفيقين ، غير انه هنا سكر الشراب ، وهناك سكر العذاب .. وشر البلية ما يضحك !..

ولا نكران ان المرأة نجحت الى حد مدرسةوطبيبة وخبيرة في مراكز الخدمات الاجتماعية .. وربما نجحت ايضا باحثة مخبرية كمدام كوري .. ولكن هذه لا تُعَدّ حجة في هذا المضمار ، لانها بقيت امرأة واحدة بين آلاف العباقرة من الرجال ، فهي كالشذوذ في كل قاعدة .

ولا بأس ان أسجل هناصورة من ردود الفعل ، التي يتاح لكل ذي ملاحظة ان يلمسها في المواطن الصناعيةمن اوربة، حيث اصبحت المرأة كجزء من الآلة ، وحيث وُجّهَ الانتاجُ على اساس جَعلَ دخل الفرد عاجزا عن تأمين حاجات الأسرة ، بل عاجزا عن تأمين حاجات صاحبه بصورة مرضية .. فكان على كل منافراد الاسرة انيقتحم ميدان العمل جاهداً لتأمين خبزهلنفسه ، لا فرق في ذلك بين الوالدين والزوجات ، ولا بينالشيوخ والشباب ، فلكلٍّ حسبَ عمله ، ومن لا يعمل لا يأكل ، ولو شيخا هماً وله عشرة من الأبناء العاملين ..!

في هذه المجتمعات الكادحة يتركز المثل الاعلىلسعادة المرأة في شيء واحد ، هو ان تجد العائل الذي ينقذها

من دوي المصنع . فيعيد اليها ما سلبته المدنية القاسية من رحمة البيت !• وقليلا ما تفوز مرأة بهذه النعمة هناك•• والحلم السعيد لدى كل امرأة في روسية مثلا ان يتيسر لها الوصول الى هذه الهناءة ، التي لم تتح بعد الا لأصحاب الدخل الكبير من الازواج ، كأساتذة الجامعات • ومثل هذا الشعور يستغرق كل امرأة من الطبقات الكادحة في أوربة جميعا •• وهي صورة طبيعية نقلها الينا الثقـاب من الذين جابوا هذه الاقطار ، ويعرفها كل طالب يـدرس في جامعاتها ، وهي إن دلت فعلى ان الاستقـرار ، الذي نحاول نحن الخروج منه تقليداً لهذا الغرب المسعور ،هو نفسه الذي يَبكي عقلاءُ الغرب دماً لفراقه ،وتذوب المرأة الغربيةُ حنيناً للعودة اليه !•

واذا كانت مدنيـة الغرب ، وهي وليدة الوثنيـة اليونانية والرومانية ، قد رضيت للمرأة هذا المصيرالشقي •• فلا تنتظر من الاسلام وهو عدو الوثنية ان يرضى للمرأة غير الانسجام الكامل مع قوانين الفطرة •• هذه القوانين التي لا تكره المرأة على ما لا يتفق مع كرامتها كانسان ، ومع تركيبها اللطيف كأنثى •• فهو بذلك يفتح لهـا باب التخصص الملائم على مصراعيه ، لتكون الطبيبة النسوية. والخبيرة الاجتماعية ، والمربية المدرسية•• وما الى ذلك من مثل هذه الاعمال ، التي لا يكون نجاحها على حساب

البيت والأمومة ، بل ربما كان البيت والامومة ينبوعا يتدفق بالالهام الخيّر للسمو بهذه الاعمال. وبكلمة موجزة ان الاسلام لا يتساهل ابداً في حق البيت ، وكل عمل يعهد به الى المرأة ينبغي ان ينسجم مع هذا الكيان الرئيسي ولا حاجة بعد ذلك الى تحديد نوعية هذا العمل ، فهو مما لا يقع تحت حصر ،وليس بمعقول تحديده الى الأبد.

ولقد كان من آثار الخلل الذي أصاب المجتمع الاسلامي ، تحت ضغط التحول الى الحضارة الاجنبية، أن انطلقت اصوات ساذجة او خبيثة بالهجوم على هذا التفاوت ، الذي يفرضه الاسلام بين الذكر والأنثى في حقوق الارث .. وكان من حجة هؤلاء ان المرأة قد اصبحت عامل دخل وانتاج ، وهي توشك ان تقتحم كل ميدان من العتالة ، الى رئاسة الدولة ... فلا وجه لاستبقاء حصتها من الارث على أساس (للذكر مثل حظ الانثيين ..)!.

وقصة هذا الاعتراض كقصة ذلك الرجل الذي قدم الى ابرز ساحة في العاصمة ، فملأ وسطها بالانقاض ثم جاء بسارية رفع عليها مصباحا أحمر ..

وجعل الناس ينظرون بدهشة الى عمله .. وسأله بعضهم :

ــ ماذا تريد بهذا المصباح ؟.

ـ تنبيه الناس الى الخطر كي لا يصطدموا بالأنقاض.

ـ ولم جئت بهذه الانقاض ؟.

ـ لكي ارفع هذا المصباح ..

وهكذا تماماً يفعل هؤلاء الذين يدّعون نصرة المرأة ، فهم يَجرونها الى التخلص من نظام الحياة الاسلامي، ثم يقولون : يجب على الاسلام ان يعترف بهذا التطور.. فيعدل حكمه في توزيع الارث ...!

وقد نسوا ان الاسلام كنظام كامل للحياة لا يقبل المساومة . ويستحيل إكراهه على الخضوع للواقع ، فهو قد اسس بنيانه على أصول ثابتة لا تقبل تحويلا ولا تبديلا .. أشبه بنظام الافلاك ، روعي فيه كلّ وزن وبُعد ومادة .. فكل تغيير في واحد من جزئياته مؤد الى الكارثة ..

أجل ان للمرأة في نظام الاسلام امتيازا يفرض على المجتمع صيانتها من التبذل والهوان والارهاق .. وعلى ضوء هذا الامتياز عيّن لها قسمها من الأرث بصورة تجعلها في نهاية المطاف أكبر حظّاً من الذكر .. لان النصف الذي تتناوله من الارث يظل في يدها صافياً ، في نجوة من المسئوليات التي تستهلك نصفَيْ أخيها !.

والمعهود في حياة البشر ان يفرض الطبيب الحاذق

الدواءَ المناسب لمريضه ، ثم على هذا ان يُسَوّي وضعه على أساس هذا الدواء ..

اما اولئك المعارضون لتقسيم الله ، فيضعون المريض مكان الطبيب ، ثم يقولون لهذا : يجب ان تركب علاجك كما يشاء ذوق المريض .. لا كما يشاء علمك بمصلحته!.

حصون المجتمع

والاسلام حين ينظر الى المرأة على ضوء هذه القوانين الطبيعية ، انما يهيئها لمهمتها الكبرى ، التي يكون فيها للبيت مركزه الاول . ومن هنا تعلم سلفا مدى اهتمام الاسلام في تحصين هذه المملكة من الداخل والخارج على السواء ، وسيكون ميسورا على المفكر أن يفهم لماذا عُنيَ هذا النظام باقامة الاسلاك الشائكة بين الجنسين .. فمنع الاختلاط الا ضمن حدود المصلحة العامة ، حيث لا يشكل هذا الاختلاط اي خطر على سلامة البيت ، ولا يكون سببا لانصراف المرأة عن اعطائه كل نفسها ..

ان الاسلام الذي يستهدف بناء المجتمع السعيد ، قد أدرك بعميق حكمته ألاّ سبيلَ الى تحقيق هذه المهمة إلاّ أن يبدأها أولا في احضان الام ، ولذلك عني بتكوين هذه الأم فاحاطها بكل وسائل الصحة الروحية ،

وهيأ لها من مشاغل الواجب الكريم ما يصرفها عن نشدان التوافه •• وبذلك أمّن لها البيئة النظيفة التي تصلح لتنشئة القوى البناءة السليمة من الامراض، والمزودة بالمناعة التامة ضد أنواع الأمراض •

والانسان السوي لا يستسيغ الخلط بين مفهوم البيت ومفهوم الشارع ، اذ يعلم ان البيت هو الحرم الذي تصنع فيه فضائل الحياة كلها ؛ فمن الخير له ان يكون في منجاة من غوغائية الشارع ؛ وهكذا يؤمن ان أولى الواجبات تحصين هذا الحرم كي لا تتسرب اليه جراثيم الأوبئة ؛ وليظل صالحا لامداد المجتمع بكل ما يساعد على تطهيره من الاوضار • فالبيت في هذا المفهوم اشبه بالمعبد •• يجب ان يظل محتفظا بنظافته من الارجاس ، ليحتفظ بقدرته على اصلاحه ؛ فاذا ما تسلطت مقاييس الشارع على المعبد انتهت مهمته •• إذ يكون حينئذ كأي شيء هناك مسوقا في تلافيف التيار !•

ولقد بات يسيرا على الناس ان يلمسوا حكمة الاسلام في هذا التحصين ، بما يشاهدونه من الخلل في اوضاعنا الاجتماعية •• ذلك الخلل الذي ماكنا لنعرفه قبل ان نسمح لايدي المخربين بالامتداد الى حصوننا المنزلية ••

ولقد علمنا الاسلام طائفة من آداب البيت لا سبيل

الى تنفيذها الا في ظل نظامه الاجتماعي • فمن ذلك ان لا ندخل بيتا لغيرنا الا بعد الأذن والاستئناس ،وهو بذلك يرمي الى صيانة الداخل ، حتى لا تقتحمه العيون على غير أهبة ، وأوجب علينا ان لا نسمح لابنائنا بدخول غرفنا الخاصة الا بعد الأذن لهم ، لانه لا يريد ان يَشهدونا في خلواتنا •• وهي كلها آداب بدأنا نفقدها في ظل المدنية المادية ، التي لا تفرق بين البيت والشارع ، اذ تجعل دخول الانسان أي بيت كدخوله أي مقهى لا ضرورة معه الى استئناس او استئذان !••• ولقد كان لهذا وذاك أثره العميق في سلوكنا الاجتماعي ، وفي مقاييسنا الحضارية• فالمسكن الاسلامي الذي كان يمثل بالامس آداب الاسلام باحتجابه عن انظار السفهاء ، أصبح الآن مكشوف الداخل لكل ذي عينين ، حتى لكأن المقيم فيه مقيم في قلب الشارع !••• وجرَّ ذلك شئونا وشئونا ، بعضها هذا الاستهتار بالاعراض ، اذ اصبحت لحوم نسائنا أرخص علينا من أحذيتنا ، فلا يؤذينا ان تتعرى للناظرين من الخارج أو الداخل !• وأفسدنا بذلك أحداثنا فأصبحوا نهبة لهواجس المراهقة المبكرة •• تشحن نفوسهم بالعُقَد الخطرة ، التي لا تلبث ان تجعل منهم اعضاءً شلاء ، لا يصلحون في الحياة لاية رسالة كريمة !••

ولقد بدأ هذا التهديم الخلقي من قلب البيت ،حين

أخذت المرأة المسلمة تنسلخ من زيّها الفاضل ،لتستبدل به تلك الاشكال الممسوخة من أزياء الغربيات !

واوّل شيء فعلته من ذلك رفعُها للخمار العربي ، الذي كرّمه القرآن حين أمر المؤمنة بان تضربه ـ فضلا عن رأسها ـ حول عنقها .. ومن ثم زحفت صوب الأكمام تنقصها قليلا فكثيرا ، حتى انتفت الفروق بين ثوب السرير وثوب الاستقبال، فاذا هي بارزة العوار لكل ناظر من اهل البيت ، لا نرق في ذلك بين الأبناء والأحماء (١) !

وبهذا بدأنا نحطم مناعة الخجل في نفوس الكبار والصغار !. حتى أقفرت النفوس من الغَيرة ، وأصبح الحديث عن المرأة لا يتناول الا صفات اللحم والشحم ، كأنْ ليس لها في المجتمع من وظيفة سوى إشباع الرغبات وتحريض الشهوات !.

ومن المضحك انك تسمع بعض الذين تظن بهم التقوى، يدافعون عن هذا الوضع المنزلي ، مستعينين بقوله تعالى : « ولا يُبدين زينتَهن إلا لبعولتهن أو ....» (٢) فيقولون لك ان هنا طائفة من المحارم قد أباح الله للمرأة إبداء زينتها امامهم ، فكل اعتراض على ذلك انما هو تجاوز

---

(١) الاحماء اقرباء الزوج من الرجال .
(٢) راجع الآية ٣١ من سورة النور .

لنص الكتاب !•• وقد نسي هؤلاء ان الآية انماتسوق حكم الأباحة في ظهور الزينة لنفي الحرج عن البيت المسلم، ولكنها لا تجعل إبداءها أصلا تقام عليه حياة البيت•وبكلمة موجزة تستطيع المرأة المؤمنة ان تتساهل في اظهار مواضع الزينة (الشعر والعنق واليديـن والساقين ••) ولكنه تساهل لا يجوز بحـال أن يصبح هو الأصل •• فالاصل في أدب الاسلام ان تكـون المسلمـة صَيّنـة بعيـدة عـن التبـذل ، وابداؤهـا للزينـة بصـورة مستمرة واو للمحارم ، ابتذال لا يقره ذلك الادب بحال ، لانه اذ ذاك يصبح ضربا خطيرا من التدرب على الاستهتار •• ومن الاحكام النبويه الخالدة (اذا لم تستحي فاصنع ماشئت)•

ولا يفوتني هنا ذكر كلمة صغيرة سمعتها من جار مسيحي كريم يوم كنت أعمل بالتجارة في طرطوس ••

قال صديقي : «س•س» : هنيئا لكم انتم المسلمين هذا التحفظ •• انه يصون دُوركم من هذا البلاء الذي نعانيه في اقتحام الرجال لبيوتنا دون استئذان •• ان المرأة في دورنا لتكون في مباذلها تغسل او تطبخ او تكنس فاذا هي تفاجأ بزائر يحييها على غير استعداد !•• »

قلت : ولكن المسلمين بدؤوا يتحـررون من هـذه التقاليد ، وهم بذلك يظنون انهم سينعمون بمثل سعادتكما

قال : يا لهؤلاء !• انهم والله يريدون ليخرجوا من النعيـم الى الجحيم •• »

وصدق هذا الصديق الفاضل ••• لقد اصبح المسلمون لا يكتفون بتهديم العدو حصونَهم ، بل اخذوا هم يستعجلون لمساعدتهم في القضاء عليها ، فينقضونها حجرا حجرا دون أن يذكروا انهم بذلك كاشفون أنفسهم لكل غاز !•

والأهم من ذلك جهلهم ان انسلاخهم من آداب البيت الاسلامية ، انما هو في واقع الامر نزول بالبيت الى عقلية السوق ، التي لا تفرق بين لحم الانسان ولحم الحيوان ، ثم لا تملك من الاتزان وبعد النظر ما يجعل للحياة أية غاية •• سوى ما يسيطر على الاسواق عادة من شهوات المال والمعدة والجنس !••

فكرة لا خرقه

وعلى ذكر الحجاب نقول : ان الحجاب الذي يريده الاسلام ليس هو نقابا تسبغه المرأة على وجهها ، لتدفع عنه انظار الناس•• فرب وجه لانقاب عليه وهو جد محجب وربّ وجه لم تَره الشمس الا من وراء حجاب ، وهو مع ذلك مكشوف مبتذل • انما حجاب الاسلام فكرة تملأ أولا قلب المرأة المسلمة ، فاذا استقرت هناك انطلقت تعبر عن نفسها في كل حركة وسكنة • فكرة تحدد علاقتها بما حولها من الناس والأشياء ، فلا تنحرف عن إيحائها قيدَ

شعرة . لانها استحالت جزءا لا يتجزأ من العقيدة الكاملة التي تنظم حياتها جميعا . والمسلمة على ضوء هذه العقيدة تعرف كيف تفرق بين انواع الناس ، وكيف تعين موقفها من كلهم ... فالرجال في نظرها أقسام فيهم زوجها وفيهم والدها ؛ وفيهم ابنها وأخوها ومحارمها الآخرون .. ثم فيهم الأقرباء الذين يتفاوتون في درجات القرابة . ثم فيهم الأبعدون الذين يجمعها بهم رباط الانسانية ، وهؤلاء منهم الصالحون والفاسدون ،والحكماء والسفهاء ... ولكل من هؤلاء وأولئك بالنسبة اليها حد في المعاملة لا يتجاوزه .. ولا تطمعه بمجاوزته.. فاما الزوج فهي لباس له ؛ وهو لباس لها ؛ يرى منها ما ليس لأحد ان يراه سواه.. واما المحارم فهي منهم كقادمةالجناح قوة ونصرة ورحمة ، ولكنها لا تجيز ان يروا منها او ترى منهم ما وراء الحدود المشروعة في أدب العقيدة .فاذا تبينا موقفها من الأبعدين رأينا أخوة انسانية تجعل صلتها بهم على اساس الوظيفة العامة لكل مسلم ، وهيالمشاركة في اصلاح المجتمع ضمن نطاق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. فهي اذن ليست كتلك المخلوقة التي ضلت طريق العقيدة ، فاختلطت عليها المعايير ، حتى لا تفرق بين رجل ورجل .. اذ ليس لزوجها في جسدها أكثر مما لأي مخلوق آخر .. بل لكل مخلوق في مشاهد فتنتها ما ليس لزوجها نفسه ، حتى انها لا تفكر في إبراز مفاتنها

الا عند الخروج الى الشارع !.. اما بالنسبة الى زوجها فحسبه منها مادة خام في ثوب المطبخ .. لا زينة ولا حلية ولا من يحزنون .. ثم ان المرأة المسلمة لا تستطيع الا ان تقيم هذه الفوارق بينها وبين أصناف الرجال ، لما تعلمته، في ضوء هذه العقيدة ، من ان المرأة والرجل هما جناحا الحياة ، لا سبيل الى الانتفاع بهما الا ان يكونا سليمين من الخلل .. بل هما كالسالب والموجب في الطاقة الكهربائية ، يجب ان يحصن كل منهما من الآخر ، فلا يتماسا الا في المكان الذي يفجر النور. او يحرك المصانع، او يدفق الخصب والحياة ... فاذا حدث هذا التماس في غير الامكنة التي حددها العلم ، تحولت هذه الطاقة البناءة في كليهما قوة مخربة تدمرهما ثم تدمر ما حولهما ... وليس موطن التماس المشروع بالنسبة الى الرجل والمرأة إلا حرم الزوجية ، الذي جعله الخالق الحكيم مركز انبثاق الخير والسعادة للمجتمع الانساني بأجمعه ...

وبوحي من هذه العقيدة البناءة تدرك المرأة المسلمة ما يجب ان تتخذه من الوسائل لصيانة هذه الامانة .فهي ليست أسيرة المغريات السخيفة تأخذ من الازياء ما جاء من هنا وهناك .. وانما تنظر الى الثوب من زاوية العقيدة ، فلا ترى فيه أكثر من معنى الستر والحشمة ، اللذين يليقان بانسانة تعلم انها مربية المجتمع ورائدته ... فلا تستحسن

الا ما حقق هذا الغرض ، ولا ترتدي الا ما زادمن جمال الفضيلة ، وسد على الشيطان سبل الاغراء ...

انها لتدرك بوحيمن هذه العقيدة أن اي مظهر تنحرف به المرأة عن جادة الاخلاق قد يكون اداة لافساد الحياة في مجموعة من الشباب . لا تلبث ان تشحن نفوسهم بالعقد الرهيبة ... فلا ينتظم لهم بعدها سلوك ، ولا يهتدون سبيلا .. ولحكمة سامية رأينا خالق الكون يتولى بنفسه وضع (التصميم الكامل) للباس المرأة المسلمة ، فيكرمها عن استجداء التصميم من هوليود وباريس ولندن وتل أبيب !.. انه يرشدها الى الشكل الذي ترتديه في البيت (ولْيضربنَ بخُمُرهن على جيوبهنَّ ..) فهو يريدها ان تحجب شعرها ، وتتم صيانة عنقها بالخمار ، فتدير طرفيه على مدخل الثوب الأعلى .. ثم يرشدها الى الشكل الذي تواجه به الناس خارج البيت (يا أيُّها النبيُّ قُلْ لأوزاجكِ وبناتك ونساء المؤمنين يُدنينَ عليهنَّ من جلابيبهنّ ..) يريدها ان تلقي فوق ثيابها الجلبابَ السابغ الذي يستر زينةَ الثوب ، وتمثيله الجسم .. ثم يحدد لها كذلك الأجزاء الخارجية التي يباح ظهورها للاجنبي ،اذ يبلغها على لسان رسوله : أن المرأة اذا بلغت المحيضَ لم يصحّ أن يظهر منها سوى وجهها وكفيها حتى المعصمين، ويحذرها من الزينة المثيرة ، وفي مقدمتها العطر الذي

سنه الاسلام زينة للرجل . وجعله محرما على المرأة خارج بيتها .. لئلا تثير به نوازع الشهوة في صدور المستنشقين، فيوحي اليهم ما يوحي ؛ ويصور لخيالهم ما يصور من المعاني الجسدية ؛ فيكون ذلك باعثا على اندفاعهم في طريق الفتنة ؛ لتحقيق ما أثاره العطر من الأخيلة .. ولولا تلك النفحات الخبيثة من عبير هذه المتبرجة لظلت الفتنة نائمة . ولظلت النفس بالتالي هادئة منتظمة ..

ولقد حقت المرأة العربية دهراً طويلا هذه المعاني الكريمة .. فكانت أنموذج الجمال العلوي لنساء الارض يأخذن عنها ويقتبسن طريقها .. الى ان تسرب الضعف الى الشخصية العربية ؛ ففتحت في حصونها المنافذ للغازات السامة ؛ تنطلق عليها من مباءات الفحشاء الشعوبية التي حطمت الامم السابقة من قبل .. وأبت الا ان تحطم هذه الامة ؛ التي كان في أوليات مهمتها تطهير الانسانية من هذه السموم ؛ فاذا هي تقع فريستها بين عشية وضحاها !..

لقد لبثت المرأة المسلمة الى يوم قريب جداً لا تحتاج أبدا لتغيير ثوبها حين تدخل الصلاة ، لأنها دائما وابداً في أحسن مظاهر الحشمة ؛ فاذا هي اليوم تقتني ثوبا خاصا بالصلاة ، لا تضعه على جسمها الا عند الوقوف بين يدي ربها !.. فكأنها بذلك تعترف أنها كانت قبل الصلاة ضائعة

في مجاهل التوافه ، فلم تعرف طريقها حتى سمعت داعي الله !.. بل هي تقر على نفسها بانها كانت في شكل يقطع ما بينها وبين الخير .. فلما عمدت الى الصلاة اخذت لها لبوسها المناسب الذي يردها الى الوقار !.. وما ندري صورة للتناقض اكثر بشاعة من هذه الصورة ، التي تربي المرأة على النفاق : اذ تجعل لها شخصيتين متنازعتين، هذه تدفعها الى الأمام . وتلك تشدها الى الوراء .. ولا بد في النهاية من تغلب إحداهما .. وما أحسب الفائزة في هذه المعركة هي أفضل الاثنتين .

ولقد رأيت الناس يختلفون في الزي المناسب للمرأة في هذا العصر . وهم يعلمون ان هذه مشكلة لم يعرفها المجتمع العربي قط قبل هذا الغز و الاجنبي لمشخصات الامة .. اذ كانت موحيات البيئة الذاتية هي التي تفرض زيها المناسب ..

ولو أنعمنا النظر في نوع ذلك الزي لما رأيناه يختلف كثيرا عن ثوب الصلاة ؛ لأن العقيدة التي تسمو بالمرأة الى ما فوق منحدر الشهوات الحقيرة ، حتى تحول الارض كلها الى معبد . لا يمكن ان تضطرب مقاييسها حتى يكون لها ثوب للحياة وثوب للصلاة : فتقسم المرأة نفسها امرأتين، واحدة للفجور وأخرى للطهور !..

وقبل قليل وقع نظري على قروية في زي أصبح غريباً عن مألوف الناس خارج حدود الريف العربي •• انه بقية من طرزنا الأصيلة، يعرضها الذوق السليم على جسم امرأة فتبدو في ظلّها آية من الجمال المَهيب •• الجمال الذي لا يثير الغرائز الغافية ، ولكنه يوقظ المشاعر السامية ، فيجعلك تستشعر للمرأة معنى ينير جوانب الحياة ويسمو بأهدافها • انه ثوب فضفاض ينسدل الى وسط الساقين ،يمتد بعده طرفا السراويلات حتى ظهر القدمين• وهو منظر كان مستهجناً بنظر المرأة (المودرن) قبل ارتدائها (البنطلون) الغربي !• وفوق ذلك كله خمار من حرير بلدي سكري اللون ، أدير بأناقة فوق الشعر ، ثم أرسل في رشاقةحول العنق ، فاذا هناك من الروعةوالسحر ما يفتقر الى بعضه والله كل أزياء الغرب المستهترة •

ذلك هو الطراز الذي أبدعته خصائصنا الروحية والاجتماعية بالأمس ، نتخلى عنه اليوم عن طيب خاطر ، لنستعيض به ماذا ؟••• الشوال والروب والبوميل • وما الى ذلك من مسميات لا تمثل منا الا شيئاً واحدا •• هو الانسلاخ من شخصيتنا الأصيلة !•

وربما استسيغ مثل هذا الانهيار عندما يتجلى في جماعات رضيت بالذوبان في أعداء أمتها وحريتها ، الا أنه

سيكون جد محزن عندما يتمثل في ناس يتصدرون الدعوة الى العروبة .. كأننا نسوا أن العروبة لن تكون غيروهم عندما تتجرد من خصائصها الذاتية ، ومثلها الروحية ، ومواريثها السماوية ..

صورتان

لقد رأينا غاندي يذهب الى لندن لمفاوضة المستعمرين في ردائه الشعبي الذي نسجه بيديه .. ورأينا بعده خليفته نهرو يجوب أوروبة وأمريكة في ثيابه الهندية العريقة، وقد توج رأسه لا بالبرنيطة ولا بالهوتفورم .. ولكن بالعمرة البيضاء التي تمثل خصائص بلده .. ثم رأينا ناسا كثيرين من هذا الشرق العربي والاسلامي ، يشخصون الى العالم الغربي في وفادات رسمية ، يمثلون بها أوطانهم ؛ ولكنهم كانوا أرفع من أن يرتدوا شيئاً من أزياء هذه الأوطان التي انتدبتهم لتمثيلها !.. لقد استعاروا من عدوهم (الهوتفورم والريدانجوت) بعد أن أخذوا منه قبل ذلك كل أوساخه باسم المدنية ..

وبين يدي الآن صورة نشرتها جريدة دمشقية ، تمثل رئيس جمهورية الهند يهبط من الطائرة في أرض دولة اسلامية ، وقد ظهر في استقباله رئيس تلك الدولة ورجال وزارته وكبار الشخصيات ..

ولا بد للناظر الى هـذه الصورة من التوقف لحظة عند مشهد الرئيسين ، حيث يرى ظاهرتين كل منهما تمثل أنموذجا من التفكير . فالرئيس الهندي في ثيابه الوطنية التقليدية ، التي لا تعدو شكل ثياب القروي العتيق الذي يسكن القمم من جبال اللاذقية : سروالا أبيض حتى القدم .. فوقه رداء فضفاض .. يتوج ذلك كله مثل العمـرة البيضاء التي تعلو رأس نهرو .

أما رئيس الدولة المسلمة فهو في ثياب ايزنهاور ، عند استقباله خروتشيف ، في مطار واشنطن !. ولا حاجة الى تفصيل ، ولكن بقي علينا أن نتساءل : أليس لذلك البلد الاسلامي من زي وطني يليق أن يرتديه رئيسه في استقبال ضيفه الهندي !.

وما إخالك تنتظر جوابي على هذا التساؤل ، فلا بد أنك تعلم أن ألبسة الشرق الأقصى متقاربة الهيئة الى حـد بعيد ، وان الزي القومي لذلك البلد الاسلامي لا يقل بساطة وجمالا عن الزي الهندي .. ولكنه الايمـان المحموم بمدنية الغرب .. هو الذي يملي على هذا احتقار شعار بلده وايثار أعدائه ، ثم لا يرى من مميزات بلـده الشعبية ما يستحق أن يظهر به لضيفه .. اللهم الا رقصة قروية قام يمثلها مع زوجته في حفل رسمي ، تسربـت

رسومه الى كبريات صحف العالم ...!

ولو نحن حللنا كلا من الفريقين الوثني والمسلم ، لانتهينا من ذلك الى ما ليس يشرفنا أبداً !.. لأنه الفرق بين الاعتداد واللا مبالاة .. ومن خلال هذا الفرق يستمد العدو حكمه على كل من الفريقين .. وما أجمل كلمة أستاذ جامعي لأحد طلابه ، اذ بصر به يعتمر البرنيطة فنصحه بخلعها ، ولكن هذا أبى أن يستجيب الا بحجة مقنعة ، وجاءت الحجة حين قال له أستاذه : (يابني .. ليست البرنيطة بنفسها شيئا مذكورا .. ولكنها شعار القوم الذين أذلوا أمتك وسلبوك حريتك !.)

ولعمر الله .. ان معظم مشاكلنا الاجتماعية لا تتجاوز في قدرها مشكلة هذه القبعة ، التي أمكن حلها في يسر، عندما التقت الحجة الدامغة بالعقل المؤمن. وكل مانشكوه ويشكوه المصلحون هو أننا نجد لمشاكلنا الاجتماعية جميع الحلول المعقولة ، ولكننا لا نجد العقول المؤمنة بنفسها ، التي تحسن التفكير ثم تحسن الاستجابة لنتائج التفكير !.

أجل .. ان انحلا لنا الشخصي هو الذي خلق لنا مشكلة المرأة ، ثم خلق مشكلة الزي المناسب لهذه المرأة، وما كنا لنعرف في تاريخنا شيئا من هذا ولا ذاك ..ولكنا عرفنا ذلك وعرفنا كثيرا من أمثاله منذ اليوم الذي اختلت فيه معاييرنا الشخصية ، حتى أصبحنا لا نستطيع استعمال

أعيننا الا وراء نظارات مستعارة من هنا وهناك ..!

تحديد لا بد منه

والوجه الصحيح لمشكلة المرأة يمكن تحديده في كلمة موجزة : انها مشكلة الاختلاف على التعريف النهائي لوظيفتها في المجتمع ..

أما الاسلام فقد فرغ من تخطيط هذه الوظيفة ، اذ اعتبرها الشريكة في قيادة المجتمع ، تصنع فضائله وتزوده بالقوى الروحية المبدعة .

وأما وظيفتها في الحضارة الغربية الزاحفة فهي كما رأينا ، لا تعدو غالبا حدود الجسد ، يستثمر للاثارة الجنسية في مختلف صورها ..

ثم تأتي مشكلة الاختلاف على المقياس الصحيح ، الذي اليه نحتكم في استجلاء الحقيقة . ونحن نؤمن ألا سبيل الى هذا المقياس الا في تعاليم الوحي الثابت بالتواتر والعقل ، ويأبى دعاة الأهواء أن يعترفوا بالحاجة الى المقياس الثابت ، لانهم سمعوا أن كل شيء خاضع للتطور ، فلا يعقل أن يسلم من التطور مثل هذه المعايير !.. ولو هم أنعموا النظر في حرية لذكروا أن من المستحيل شمول التغيير لكل شيء ، اذ لو صح هذا الزعم لا ستحال اطراد المدنية ، ولز لزلت موازين العلوم الطبيعية ، حيث تكون القوانين الكونية نفسها خاضعة للتحول المستمر !. وهذا

ذروة الشطط الذي لا يقول به عاقل ، ولا يسلمون هم بامكان حدوثه.. ومتى أدركوا هذا سهل عليهم أن يذكروا أن للاخلاق أيضا قوانين خالدة راسية كقوانين المادة تماماً ، هي بالنسبة الى المجتمعات البشرية نقاط انطلاق ينبغي أن تنبثق منها كل التطورات الاجتماعية .. كما تنبثق سهام الدائرة من جوانب المركز ، فهي تمتد هنا وهناك ومن كل جانب ، ثم تنفرج كلما أمعنت في الامتداد، حتى تصبح في نهاياتها كأنها متعددة المصادر ، بينما هي في الحقيقة موحدة المنبع ، لا تتحرك الا وفق القانون الذي يربطها بالمركز .

هكذا التطور الاجتماعي الصحيح يتحرك مع سير الحياة ، ولكن ضمن قوانين تمسكه بالأصل الثابت ..

وتحضرني الآن فكرة عرضت لي قبل أيام خلال أحد دروسي الخاصة ..

كان هناك عدد من الفتيات أشرح لهن نصا اجتماعيا من ديوان الشاعر القروي ينتقد به استهتار بعض النساء بقوانين الحشمة .. وقالت احداهن : أليس موضوع الاخلاق خاضعا للتطور كأي شيء آخر ؟..

قلت : بلى .. ولكنه التطور الذي يرسخ جذورها لا الذي ينسفها ! أرأيت الى عجلة السيارة .. أرأيت الى أصابعها تمتد من قلب المحور الى الأطار .. أنعمي بها النظر ترَيْ أنها تدور أثناء حركة السيارة في كل

اتجاه ، ولكن أصولها تظل ملتزمة للمحور ..

ان دور ان العجلة شرط أساسي لاندفاع السيارة ، ولكن ثبات الأصابع على المحور شرط رئيسي لسلامتها.. وحين ينطلق المحور من مكانه ــ باسم التطور ــ تقع الكارثة !

والنظام الاسلامي يعطي المرأة قيمة ثابتة من حيث وظيفتها الاجتماعية ، ثم يدع لها أن تتطور ضمن هذا الأفق بشكل يؤمن لها شروط الابداع ، دون أن يخرج بها عن أصالتها .. عن المحور الثابت لمهمتها العليا .

عبادة الجسد

والذين يتلون في تدبر قصة بلقيس ــ ملكة سبأ ــ في القرآن يفهمون من مغزاها : أن الله يكرم في بلقيس تلك الحكمة الباهرة التي تتجلى في محاكمتها للامور ،وتقديرها العميق لمصلحة الرعية ، ثم تلطفها في استكشاف حقيقة سليمان.. وأخيرا خضوعها للحق الذي انتهت الى استيقانه. وليس ذلك الا تقريراً لنظرة الاسلام الكاملة للمرأة ، التي يعتبرها مجموعة من المواهب الضخمة ، جديرة أن تبني أمة ، وأن تهدم أمة ، وهي نظرة تلتقي الى حد كبير مع الكثير من فلسفة الغرب بشأن المرأة من الناحية النظرية ، الا أنها تختلف مع واقع المرأة في الغرب من الناحية التطبيقية .. ذلك أن المرأة في بعض فلسفة الغرب

كائن مساو للرجل تماما ، من حيث الحقوق والواجبات والكفايات العملية ، ولكنها في واقع الغرب جسد لا يصلح الا لتوفير المتعة .. وهذه حقيقة لا يستطيع انكارها أحد ، اذ هي بارزة في كل شيء ، ولو وجد من يحاول تغطيتها لدللناه عليها في مئات الألوف من المواخير التي تملأ دنيا الغرب ، ناهيك بملايين البغايا اللاتي يحملن ترخيصات الدولة لتحويل بيوتهن مواخير ، وهي مهنة من الطبيعي أن لا يخصص بها سوى المرأة ، ولكنه تخصيص يصور قيمتها الواقعية في ميزان الغرب ، اذ تحمل اعتراف المجتمع كله أنها أحط مكانا حتى من أحط الكائنات !.

وهل أنت في حاجة الى التوكيد بأن الغرب كله انما يعيش من هذه الروح في ماخور كبير ، لايسلم منه الا من رحمه الله وقليل ماهم .. ولا عجب ، فهي خواتيم بديهية لمقدمات عرضناها من قبل في حياة الرومان واليونان .. ذلك لان حاضر أوروبة وأمريكة اليوم انما هو امتداد طبيعي لماضي وثنيتهما بالأمس ، وليست عبادة الجسد الماثلة في كل مكان من دنيا الغرب ، الا صورة طبق الاصل لعبادة الجسد في أحضان تلك المدنيات الوثنية البعيدة..

ولعلك تذكر تلك التظاهرة الفريدة في تاريخ اليونان.. يوم تجمع رجال الدين قبل بضع سنوات من البر والبحر ، ليهاجموا المكان الذي سيضم المحتفلين بانتخاب ملكة جمال اليونان !. ولعلك تذكر تلك العبارة الصريحة التي

رفعوها على لافتاتهم يومذاك ، والتي كانت تصور في ايجاز بليغ خلاصة التاريخ الاوروبي كله في هذا المضمار: (لا تعيدوا الى اليونان عبادة الجسد ..).. ولكن ثورة الطغيان الجارفة في النفوس المنحلة كانت أقوى من روح الفضيلة في أصوات رجال الدين ، فشتتت المظاهرة ، وزج رؤساؤها من كبار رجال الأكليروس في غياهب السجون.. وتمت الحفلة باختيار المعبودة ، التي كانت تجديداً لعهد أورورا وفينوس وبقية العاهرات من الآلهات وأنصاف الآلهات !!. (١) ولقد كان مثل هذا الاخفاق دائما هو حظ رجال الدين الفضلاء في أوروبة .. لأنهم كانوا لا يتحركون الا أخيرا ، بعد أن يكون الشيطان قد مكن لسرطان الوثنية القديمة في قلوب العامة والخاصة !.

وها هي ذي السويد ، وهي المثل الأعلى للتربية المدنية في العالم الغربي ، تضرب الرقم القياسي في شيوع

---

(١) وبعد مرور سنين على تلك التظاهرة نقرأ في العدد ١١٧٦ من جريدة المدينة السعودية بتاريخ ٨٧/١١/٦ الخبر التالي : (سجن مدير ادارة مجلة جنسية تصدر في (ميلان) بايطالية ومديرها ورئيس تحريرها ، وفرضت عليهم الغرامات بعد تجريمهم بالبذاءة ، وذلك في حملة للقضاء على الفحش والدعارة !..) ولعل الحكومة الايطالية كانت في غير حاجة الى هذه الحملة اليوم ، او لم تشجع بالامس صعاليك الجنس .. بأمثال تلك الموبقات التي يسمونها حفلات انتخاب ملكات الجمال !..

الفاحشة ، وفي عدد الأبناء الذين لا آباء لهم !. وقد أصبح من المألوف جدا أن تأتي التلميذات السويديات الى صفوفهن منتفخات البطون من الثمرة المحرمة ، كما يأتي التلميذ عندنا بحقيبة الكتب والأدوات المدرسية !..

والسويد ليست في هذا الانحلال الا صورة مصغرة لأخواتها الأخريات من الاقطار الاوروبية والامريكية(١) حيث أصبحت الدولة تجد نفسها تلقاء مشاكل دبلوماسية، لا سبيل الى حلها الا أن تقوم هي بمهمة القوادين !.

وها هي ذي مجلة المختار الأمريكية تحدثنا عن أطرف مشكلة دبلوماسية واجهتها حكومة الولايات المتحدة ، اذ زارها ذات يوم وزير خارجية احدى الدول الصديقة ومعه زوجته وخليلته ، فحجزت له ولزوجته جناحا في فندق كبير ، وبقيت الخليلة .. فلم تعرف الوزارة أين تضعها.. لأنها لو جعلت في نفس الدور لالتقت مع الزوجة، وهذا غير مستحسن ، ولو جعلت في الدور الذي تحته لتعرضت للموقف نفسه . ولو هي جعلت في القسم الأعلى لتعذر على الوزير العزيز الصعود إليها .. وبخاصة أنه في (السبعين) من عمره المبارك !.

---

(١) اذيع رسميا في لندن ان اكثر من ٥٤ الف عملية اجهاض قانونية اجريت في بريطانية خلال عام ١٩٦٩ بينها ١٣٠٠ اجريت لفتيات في الخامسة عشرة فما دون ــ في حمل غير شرعي ــ عن مجلة (رابطة العالم الاسلامي) يوليه ٩٧٠

وهكذا كان على وزارة الخارجية الأمريكية أن تعمل المستحيل لحل هذه المعضلة ، التي ما كانت لتوجد لولا تلك الروح العامة ، التي تجعل من الفحشاء دينا لا يتخلف عن استجابته أحد ، من أدنى الجاهلين الى أعلى الحاكمين !.

ومثل هذا لا يعتبر عجيبا في بلد يقول قاض كبير فيه هو (لندسن) ان ٤٥٪ من فتيات المدارس مدنسات !.

وهل أتاك حديث « لوتروكيه » رئيس الجمعية الوطنية في فرنسة ، الشيخ الذي اقتحم الرابعة والسبعين من عمره الكريم ، فلم يمنعه وقار الشيخوخة أن يغوص الى أذنيه في هذه المستنقعات ؟..

لقد اعترف شرطيه الخاص للمحققين ، أنه جند عددا من الفتيات تتراوح أعمارهن بين ١٤ ــ ١٨ لاحياء حفلات عارية في مسكن حكومي بباريس ، وفي بيوت أنيقة لشخصيات باريسية كبيرة ... وهي مشكلة لا تزال حتى الساعة بين أيدي القضاء الفرنسي !

ولو شئنا لعرضنا للقارىء عشرات الصفحات ، مملوءة بهذه الصور الرهيبة من فحشاء الغرب ، ومن الوثائق التي كتبها عن هذه الفحشاء رجال من كبار علمائهم وقضاتهم(١).

---

(١) ننصح للقارىء ان يرجع الى كتاب (الحجاب) للعلامة الكبير الاستاذ ابي الاعلى المودودي، ليرى من ذلك العجب العجاب ...

ونحن ما كان ليعنينا أن نتحدث عن الهيجان الجنسي في الغرب ، لولا ما في ذلك من الدلائل القاطعة على سيطرة هذه الغريزة على أنحاء الحياة جميعاً .. وما في ذلك من المعاني العامة التي تصور لك مفهوم الغرب للمرأة ، على أنه نكسة بالانسانية الى عصور ما قبل الاسلام ..

وقد أريناك آثار الجراح التي خلفها هذا الواقع المخيف في قلب الأسر الغربية (١) حيث استنفد البيت أغراضه أو كاد ، فلا سكن ولا مودة ولا رحمة ، ولكنه تلاق عابر على لذة عابرة سرعان ما يفترق عنها الزوجان ، ليستبدل كل منهما رفيقا جديدا يؤمن به لنفسه لذة جديدة !.. وها هي ذي محاكم الطلاق في العالم الجديد ، تسجل الرقم الذي يهدد بانهيار الحياة الانسانية ، مما لا يعرفه بلد عربي أو اسلامي حتى الآن ولله الحمد (٢) .. ولا شك أن البيت الذي لا يقوم على أسس المودة والرحمة ، لا يملك عوامل الاستمرار ولا عناصر الاستقرار .. وقد جاء رجل الى عمر بن الخطاب وقال : أريد أن أطلق زوجتي . قال عمر : ولمَ ؟ أجاب الرجل : انني لا أحبها .. فقال الفاروق : وهل كل البيوت بنيت على

---

(١) انظر (المرأة الآلة) من هذا الكتاب ... (٢) سجلت محكمة الحقوق في السين ـ فرنسة ـ « ٢٩٤ » قضية طلاق في يوم واحد .

الحب ؟•• فأين الرعاية والذمم ؟!

وفي استنكار الفاروق العظيم لمبدأ اعتبار الحب وحده أساس البيت ، فهم عميـق حكيم لحقيقة الحياة الانسانية يبين ان الحب مقياس متقلب ، يختلف حكمه بين الساعة والساعة •• وانما تقوم الحياة الأسرية علـى أسس ثابتة ، تمثلها المودة التي تسمو فوق التقلبات العاطفية ، والرحمة التي تجعل التسامح بين الزوجين هو المبدأ الذي به تعالج أسباب الخلاف ••

وكل هؤلاء موازين لم يعد لهـا محل في الغرب ، الذي كفر بكل الحقائق الالـهية، فاعتبر الحب ••• الحب الجسدي فقط أساس كل علاقة بين الرجل والمرأة ، لذلك كان عاقبته عاقبة المنحرف عن قانون الفطرة •• انهيارا في البيت •• وانهيارا في النفس •• ثم شقاء غامرا يجعل الحياة كلها محمولة على أصابع عفريت (١) •

(١) في طريقي من الجبل الى بيروت سمعت صوت مذيـع يروي تحت عنوان (خبر مضحك) قصة فتى هجر بيت ابيه لانه نكر عليه علاقته بفتاة شغلت وقته . وقد كتب ابيه ما خلاصته : ليس من حقك ان تحاسب أبنك على الحب الذي هو اساس الحياة ، انما لـك ان تعاقبه اذا رايته يخـون وطنه او يهمـل واجبه . وكـان تعقيب المذيع على فلسفة المرزهق هـذا اغنية تؤكد مـا ذهب اليه !.. والمضحك ان صاحب البرنامج لا يدرك العلاقة

امهات وارتيستنات

كنا عـددا مـن المدرسين والمدرسات نملأ القاعـة المخصصة لتدقيق امتحان الأدب العربي ، عندما دخل علينا الوزير ومعه بعض حاشيته ، يتفقد أعمالنا . وحيّانا ، ثم أخذ يصافحنا واحـدا فواحدا ، ولما انتهى الى المنضدتين الأخيرتين جعل يصافح من هناك من المدرسات ، حتى صار الى أُخراهن ، وكانت قـد وقفت كغيرهـا ، فبسط يده نحوها .. ولكن هذه رفعت راحتها الى جانب رأسها ترد تحيته .. ولبثت كذلك .. حتى فطن الوزير لموقفه ، فغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة شكر أو توجيه !. وكان ذلك على مشهد من أعين المصححين جميعا ، اذ كانـوا يرقبون المشهد ، ففي نفوسهم حب الاستطـلاع لما سيكون عليه موقف الوزير من ردود الفعل !.

وعاد المدرسون الى العمل في غمرة من الصمت ، وعلى لسان كل منهم كلام يتهيب أن يقوله .. حتى تجرأ زميل بجانبي فأخذ يتمتم في همس لا يسمعه سواي : « هذه فتاة تستطيع أن تقول : لم يمسني بشر ! » .

→ بين التصرفات المختلفة للفرد ، فهو يتصوره قادرا على التوفيق بين الواجب والميوعة ، وقد نسي ان الاستهتار اول الانهيار . على ان المضحك المبكي معا أن نسمع هذا اللغو المفسد للمجتمع من اذاعة تمولها دولة !..

قلت : لعل المشهد لم يَرقك !•

قال : ولكنه يستحق احترامي ••

قلت له : غير أني على ثقة أن الفتاة لم تفكر باحترام أحد أو امتعاضه ، وانما فعلت ذلك يقينا منهـا بأنه الشيء الوحيد الذى تفعله امرأة تحترم تعاليم دينهـا في مثل هذا الموقف ••

قال ــ أو في الاسلام ما يمنع مصافحة المرأة !!

قلت ــ بالتأكيد الا اذا كانت زوجة أو محرما •

قال ــ هذا شيء كنت أجهله •

قلت ــ كما تجهل الكثير مــن الاسلام الذي تحمل هُويته !

••• وكانت هناك امرأة لـم تكد ترى فعل زميلتها حتى تمالكها الاضطراب ، وانتقع وجهها المُصبَّغ ، وبدت وهي مطرقة كأنها تشاجر وتشتم !• ولعلها كانت تعد ذلك التزمت من زميلتها ضرباً من العدوان الصارخ على طر هي في الحياة ••

والحق أن كل مفكر لا بد أن يرى في هذا المنظر نزاعا بين فكرتين ، بل بين حضارتين ، احداهما تحــول المرأة الى دُمية لاهم لها الا العبث بوجهها وجسمهـا ، تشدهّه من هنا وتطلقه من هناك ، وتطليه من هنا بلون، وتصبغه هناك بلــون •• ثم تجري متراقصة في حــذاء

لا أدري كيف تدربت على السير به !• حتى اذا انتهت الى مكان عملها راحت تمضي وقتها في (علك)لاينتهي•• تسمعه في كلامها ، وفي مشيها وفي حركاتها جميعا ••كأنْ لا هم لها الا أن تنصرف اليها أعين الرجال بأي ثمن !•

أما الثانية فلا تكلف المرأة الا أن تظل انسانا سويا ، تدرك في وعي عميق ضخامة المهمة التي تخيرها الله لها •• فتعرف أن قيمتها ليست في لحمها وعظمها ، ولكن في روحها وأخلاقها• ولهذا تراها لا تختار لجسدها من الثياب الا ما يساعدها على اعطاء هذه المعاني في جو الأنوثة المهيبة ، الذي يفرض احترامه على كل شيء ••

وهكذا تمثل كل من المرأتين خصائص طريقتها في الحياة العامة ، فاذا كان من شأن الأولى أن تدخل السعادة الى البيت ، فمن شأن الثانية أن تطردها •• ذلك لأن مفهوم البيت في طريقة هذه يختلف عنه في طريقة تلك ، فبينما هو عند احداهما المملكة التي تحقق فيها المرأة أحلامها السعيدة ، فتفرغ من ذات نفسها عليها ، حتى تستحيل شيئاً حيا موصولا بقلبها الحي •• اذا هو في نظر الأخرى لا يتجاوز معنى (دورة المياه) لا يلبث المرء أن يودعها حاجته حتى يغادرها، دون أن تترك في قلبه أي ذكرى!••

ومن هنا كان طبيعيا أن يختلف محصول كل من الطريقتين

في ميدان المجتمع ، فاذا إحداهما لا ترى في العش الزوجي سوى فندق تأوي اليه ساعات الليل طلبا للاستجمام •• واذا الأخرى تهب للبيت وجودها ، وهي تعتقد أنه مورد هناءتها ومسرح وجودها وهوايتها • فلا عجب أن يختلف معنياهما في موازين الناس كأبعد ما يكون الاختلاف !•

ألست ترى الى هذه الحقيقة ماثلة كأوضح ما تكون الحقائق في حياة الناس ؟• ان الشاب اللاهي ليقبل على الفتاة الخفيفة ، يعبث بها ويسوقها باغرائه الى المزالق ، حتى تمتلىء الهاوية بالمخدوعات والمضللات ، وحتى يحسب الناظر أن لا مكان في الحياة للفتاة الحيية الفاضلة •• ولكن هذا الشاب نفسه سرعان ما يدير ظهره لضحاياه عندما يضطر للبحث عن الزوجة •• الزوجة التي لا تسد فراغها أبدا لا الراقصات ولا الأرتيستات ولا السابحات•

ان شأن المرأة في هذا المضمار كشأن النقد في مفهوم الاقتصاديين •• تنزل العملة الزائفة الى السوق فتطرد الصحيحة، ولكن سرعان ما تقع الصدمة فتقف الحركة، حتى تأتي الدولة فتسحب العملة المزورة الى سلال المهملات •• وتعود العملة الصحيحة الى مكانها عزيزة مكرمة ••

•• أجل •• ان الفتى العابث، مهما يسرف في عبثه ،

لابد عائد الى صوابه ، عندما يستيقظ وعيه للبحث عن رفيقة حياته .. ذلك لأن الحياة في حقيقتها معركة لا مسبح ،والجندي لا يستطيع في المعارك مواجهة النيران بالسلاح الكاذب !. ثم ان الفتى الذي يلهو بالمرأة هو أعرف الناس بقيمتها الزائفة ، فاذا رضي بها متعة فلن يرضى بها زوجة ..

انه يومئذ يبحث عن الفتاة التي تصلح أن تكون أما لا « أرتيستا » .. اللهم الا أن يكون قد فقد نهائيا الحس الذي يميز بين النوعين .. ولا غرابة في ذلك .. ففي موجة المراهقة ينطلق نشاط الغرائز وبخاصة غريزةالجنس، فتصاب النفس بزلزال يخض قواها خضا تختلط به حدود المفاهيم .. فيندفع المراهق تحت هذا الضغط لا يكاد يعرف أين يتجه ، وهو يظن أنه على الجادة .. ولكن لكل نبأ مستقر ، ولكل زلزال نهاية ، فاذا خمدت ثورة الغريزة ذهبت السكرة ، وجاءت الفكرة ، وهناك يصدمه الواقع الرهيب الذي أعماه عن رؤيته الهوى .. (ومَن أظلمُ ممَّن اتبعَ هواه بغير هدى من الله) !.

مدرسة الحياة

والمرأة التي سلمت فطرتها من تشويه المدنية الجنسية، تدرك بغريزتها السليمة معنى الأمومة ، فلا تستبدل بها أي شيء آخر من متاع الدنيا ، وأقول أي شيء ، دون أن

أستثني من ذلك حتى الشهادات الجامعية ، وحتى الأمجاد السياسية العابرة، فكيف بتصفيق الماجنين والمشعوذين (١)؟

وقد حدثنا التاريخ أن القدامى من فلاسفة الاغريق كانوا ينحنون لأمهاتهم ، وكثيرا ما نقرأ كلاما للعظماء يعترفون به أنهم مدينون لأمهاتهم بكل أمجادهم ، ومن مأثورات نابليون (ان أمنع حصون فرنسة المرأة الصالحة) .. واذا نحن قرأنا وصايا الاسلام بالأم تبينا المحل السامي الذي تحتله هذه المخلوقة اللطيفة في نظره .

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي .؟ قال : أمك. قال : ثم من ؟ قال : أمك. قال : ثم من؟ قال : أمك. قال : ثم من؟ قال : ثم أبوك.) وفي رواية (قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم أدناك فأدناك ..) (٢) .

وبقليل من التفكير تتعرف السر الذي منحت من أجله الأم كل هذا التقدير .. ان ذلك عائد بلا شك الى ما تمنحه هي من القيم ، وما تفرغه على المجتمع من معان كريمة ، ماكان له أن يعرفها لو خلت الحياة من الأمومة..

ما أحسب أحدا قد فاته أن يستمتع يوما بمثل هذا

---

(١) مارلين مونرو : كبرى ممثلات هوليود ، وقد بلغت قمة الشهرة ، واستهوت ملايين القلوب ، وسلبت ملايين الجيوب ، وقد إنتحرت إخيراً قرفا من تلك الحياة ، واعلنت في مذكراتها انها تنتحر لانها لم تستطع ان تكون اما – عن حضارة الاسلام – (٢) رواه الشيخان .

المشهد المألوف في الأوساط الزراعية •• مشهد دجاجة تقوم برعاية أفراخها •• تقوقىء لهم وتدربهم وتنثر لهم الحب •• يهجسون على منقارها لاختطاف مافيه•• بعضهم على ظهرها . وبعضهم بين ساقيها ، والآخرون متزاحمون عليها •• وهي بين هؤلاء وهؤلاء في نشوة من السعادة، تتجلى في هذا الزهو الذي تترجمه في كل حركة وسكنة!•
وفجأة يتغيرا لمشهد فاذا الدجاجة الزاهية المتواضعة قد تحولت قوة هائلة ، تقذف بنفسها هنا وهناك كالحربة بيد جندي باسل •• لتدفع عن فراخها عدوان طير جارح أو حيوان ضار !••

بتلك الرعاية الحانية •• وهذه الغضبة الحامية ،تمثل لك الدجاجة أقل ما تنطوي عليه الأمومة من الطاقات ،التي لا تبالغ اذا جعلتها أصل جميع الطاقات البشرية •

ولا أزال أذكر ليلة موجعة دهمت ابنة لي بمخاض ، فجعلت تتقلب بين أيدي الآلام ، حتى أدركتها رحمة الله بالفرج وأطل وجه (هيثم) مع إطلالة الفجر ••

لقد أطرقت طويلا أفكر بهذه العملية العجيبة : أين كان هذا الوليد ؟•• ومن أين جاء ؟•• ولم تأخرالىهذه اللحظة ؟•• وكيف حدث أن انشق عن الانسان انسانمثله! قبل لحظة فقط كان هناك انسان واحد فاذا هنا انسانان اثنان •• لهما شكلان ووزنانواسمان ••وكلما للمخلوقين

الانسانيين من العالم•• وقبل ذلك كثيرا ما تساءلت : هذا الحمل •• انني لأنوء به ساعة من زمان ، فكيف تطيق هذه المخلوقة الضعيفة احتماله تسعة أشهر كاملة •• وهْناً على وهن !•• لمَ لا تتبرم به فتدفعه عن نفسها بحركة يسيرة ، لا تكلفها من الجهد الا أقل مما تلقاه في ساعة من هذا العناء ؟•• ثم كثيرا ما وجدتني بعد ذلك أتمتم أيضا : انها لحياة شقية تلك التي تعيشها هذه الأم ••اذا كان للشقاء المستمر أن يسمى حياة •• ليال لا تكاد تذوق فيها النوم الا عرارا•• وأيام مملوءة بالارهاق ، في خدمة لا شكر عليها ولا جزاء •• تنقضي كلها بين غسل ومسح وهدهدة وتغذية ، حتى يغلبها النصب فتكب، وهي لا تعي، على سرير الطفل الذى لا يلبث أن يزجرها بصيحات الغاضب، الذي لا يرضى أن تغفل عن خدمته لحظة أبدا !••

ولكنها أسئلة لا ألقى عليها جوابا ، اذ كان كل ما أراه من هذه المخلوقة يعطيني عكس الذي تنتظره أسئلتي• انها لتفعل ذلك كله في صبر لا تكاد تجد مثله في جيش محارب •• وانها لتقبل على هذا العناء باسمة راضية، كأنها تتلقى ثمنه نعيما وسعادة !••

أما سر هذه العجائب فسل به الأمومة •• أجل ••ان الأمومة مدرسة الحياة الكبرى، منها نتزود بمعاني التضحية والبذل والايثار •• وفيها نتعلم أن الانسان لم يخلق لبطنه

وأهوائه ، ولكنه خلق أولا وأخيرا لواجبه •

ولعل هذا أبسط حقائق الأمومة •• اذ هناك أسرار أخرى في قلب الأم ربما لا تقع على مثلها الا في الذّرة ، التي تنطوي من القوى على ما يقلب معالم الكون ••واذا صح قيام المشابهة بين الذرة وقلب المرأة ، فهو صحيح أيضا من حيث الأثر الذي تؤديه طاقاتهما عند انطلاقها سلبا أو ايجابا • ولقد رأينا الدول المالكة لأسرار الذرة تتنادى ، حقا أو باطلا ، لضبط هذه القوى المكتشفة ضمن مصلحة الانسانية •• فتنشأ بها المصانع والمزارع ، وتقرب بها المواصلات ، وتقوى بها الصلات •• بدلا من أن تترك لذوي الشهوات الوحشية يدمرون بها البشرية • وها هي ذي المؤتمرات تنعقد لهذا الغرض هنا وهناك •• وهذه المنظمات الشعبية تملأ الآفاق صراخا بواجب الالجام لهذا المارد ، الذي يهدد العالم بأفدح الفجائع • ولكننا لم نر ، ويا للاسف الشديد ، مؤتمرا واحدا يعقد لضبط قوى المرأة واخضاعها لمصلحة الانسانية •• بل على العكس نرى دائما هُواةَ التدمير يرسلون دعايتهم السامة بضرورة الاطلاق التام لطاقاتها على غير هدى •• ولو أدى ذلك الى تحطيم كل ما شيدته الأجيال من سدود لتنظيم مجاري هذه الطاقات !•

لقد استهترت المدنية الحديثة بمعاني الأمومة ،حين

أغرت المرأة بالانسلاخ عن حقيقتها ، فهبطت بها من عرشها العلوي الى المستنقعات ، وبذلك حطمت أول كل شيء كيان الأسرة ، ثم أتت على صلات البنوة فقطعتها خيطا خيطا ، حتى ليكون الابن والأم في البلد الواحد من الغرب ولا يلتقيان عشرات السنين(١).. ثم انتهى ذلك بالمرأة في كثير من الأوساط الغربية الى عبادة الذات ، اذ أصبحت لا تنظر الى الحياة الا من زاوية اللذة ، فهي لذلك تنظر الى البيت الزوجي كسجن مشحون بالقيود .. واذا ماسقطت على حين غفلة في شركه فسرعان ما تتخلص منه بالطلاق ، الذي لا تضن به محكمة على راغب (٢) . وقد لا تعجب اذا رأيت الكثير من النساء يبدلن الأزواج بمثل السرعة التي يبدلن بها الجوارب !.

ومن غير المعقول أن يكون للطفل أي وزن في مثل هذه البيئات القائمة على عبادة الذات (٣) . ولعل فرنسة قد ضربت في هذا الميدان بأوفر سهم ، اذ أصبحت القاعدة

---

(١) ميشيل فوج : راقصة فرنسية شهيرة . تقول في مذكراتها: ان أباها المليونير طردها عندما بلغت الـ١٨ فراحت تبحث عن عمل في مختلف الدهاليز . حتى انتهت الى هذه الحرفة الجهنمية . وهي تقسو في نقد والدها لانه السبب في هذا المصير الحقير!.. عن الاسبوع العربي.

(٢) انظر صفحة ٥٧ من هذا الكتاب (٣) اقرأ (واد النسل) ص ١١٨ من كتاب (الحجاب) للاستاذ المودودي .

المتفق عليها ، حتى بين عقلائهم ، أن لا يسمح الزوجان بانجاب أكثر من طفلين أو ثلاثة ، استبقاء لجمال الجسد، ومنعاً للبنين من الطغيان على لذة الأبوين !.. وقد أدرك خطر هذا الاتجاه رجل فرنسة العظيم (بتان) يوم صرخ في أول بيان أخرجه للفرنسيين عقيب هزيمة فرنسة أمام فيالق هتلر : (ان الذي هزم أمته ليس هو ألمانية ، بل الفجور الذي جعل من الفرد الفرنسي عبدا لا يخالفه حتى في تحديد النسل)!.

صور من باريس

ولقد حدثني صديق من الذين زاروا فرنسة ،فرجعوا منها بدراسة اجتماعية عميقة ، أنه مر ذات مساء بأسراب من طلاب اللذة في حديقة عامة ، فأحب ألا يفوته استطلاع ما يجهل ، فتقدم نحو رجل وامرأة كانا في وضع غير مألوف في الشعوب المحافظة ، وهناك وجه كلامه الى الرجل قائلا : أنا شرقي . ومثل هذه المناظر غير مألوفة في بلادي ، فهل تتكرم بالاجابة على بعض الأسئلة ؟.

ــ تفضل بما تريد .

ــ هل هذه الفتاة زوجتك ؟

ــ طبعا لا ..

ــ فكيف اذا تقومان بهذه الحركات دون استحياء.؟

ــ هذا شيء من حق كل واحد أن يعمله هنا ..فلا

حاجة للحياء •

ــ حسنا •• هل ترغبان بالزواج ؟

فقلب الفرنسي شفتيه ولم يشأ أن يجيب •• ولكن الفرنسية أجابت : اذا شاء هو فلا مانع عندي ••

وبالطبع لم يكن فيهيئة صاحبها ما ينبيء أنه يشاء !•

ومضى الشرقي حتى جاء اثنين آخرين ، فأخذ يوجه أسئلته ، ولكنه قصد هذه المرة الى المرأة ••

ــ هل هو زوجك ؟

ــ لا

ــ هل ترغبين به زوجا ؟

ــ لا ••• أبدا •

ــ لماذا •؟؟؟

ــ لأني لا أحب القيود ••

ــ اذا فما فائدتك من هذا العمل ؟؟

ــ أوه •• انها اللذة •• اللذة •• فقط ، قالت هذا وأقبلت علىلذتها ••!

وما أظننا نختلف على تفسير هذه الأحداث • فهي ان دلت على شيء فانما تدل على انحراف هائل في طبيعة المرأة الغربية ، اذ تفجرت غريزتها الأمومية في غير الطريق

الطبيعي ، فاذا هي تتحول من البناء الى الهدم ، ومن الايثار الرفيع الى أدنى دركات الأثرة المنحرفة .. فعلَ السيل الدافق حين يفقد حواجز التنظيم ، فيستحيل من قوة تبعث الخصب والنور ، الى طاقة فاجعة تجرف الشجر والمدر والحياة .. أو كالخلايا الحية يختل طريقها ، فاذا هي تنصرف من بناء الجسم الى تحطيمه ، اذ تجعله مباءة للسرطان بعد أن كانت مصدرا للحيوية !.

وحَذارِ أن يخدعك عن الواقع ما تراه من احتفالات سنوية تقيمها شعوب الغرب باسم « يوم الطفل » أو « يوم الأم » وما الى ذلك من أسماء براقة لا تغش الا المخدوعين والجاهلين .. فالحق أن تلك المظاهر لا معنى لها سوى الاعتراف بهذا الواقع الفاجع ، وقد جاءت الدعوة الى هذه الاحتفالات من قبل مفكرين أحسوا بما يهدد عالمهم الغربي من الكوارث ، نتيجة تفكك البيت ، فراحوا يحثون الحكومات والمنظمات على تداركها بمثل هذه المواسم ، التي تتيح للانسان الحجري في الغرب أن يعود لحظات الى الحقيقة التي سلبته اياها الشهوات والمصانع ، وانصراف المرأة عن عرش الأمومة ... وما أدري أي جدوى لمثل هذه اللحظات العابرة ، في عالم كل أنظمته متجهة الى تهديم الأسس الروحية في حياة الانسان !..

وماذا يفيد الطفل أن تحتفل باسمه الدولة ، وهو

محروم أبدا من حنان أمه •• التي اختطفتها مخالب المعامل والشركات ، ومصانع الدولة من بين ذراعيه، فهي لا تتصل به الا لماما . حين تأوي الى الفراش ، أو حين تسلمه في الصباح الى سيارة الحضانة ، كما تسلم صفيحة الفضلات الى سيارة التنظيفات !•• ثم ماذا ينفع الأم أن تقام باسمها الحفلات المدرسية في كل بلاد الدنيا ، ما دامت هي مقطوعة عن رحمة الولد ، الذي نسيها في ركام المشاكل اليومية واللذة الجسدية ،فراحت تكدح ليل نهار ضاربة وراء القوت ، حتى اذا نهكها عجز الشيخوخة جاءت سيارة الاسعاف لتحملها الى مأوى العجزة •• فلا تزال هناك مجهولة المكان ، الى أن تشرف على لحظاتها الأخيرة •• وهناك فقط تعلن محطة الاذاعة في برنامج خاص خبر هذه المرأة ، راجية من ابنها المجهول المكان أن يتكرم بوداعها قبل الموت (١) •••

وانه لمن المضحكات حقا أن نأخذ نحن أيضا هذا التقليد تقليد الاحتفال بيوم الأم ويوم الطفل ، عن الغرب

---

(١) حدثنا بذلك المرحوم الدكتور مصطفى السباعي عقيب عودته من سياحة جامعية في انكلترة .. وقد سمع تلك الاذاعة اليومية بنفسه .. وذكرنا ذلك الفتى عاد من دراسته في أنجلترة مسلوخا من كل معاني الاسلام فلم يستطع انكاره .. ولم يستطع اله تأويلا الا أنه نتيجة التفكك العائلي .

دون تفكير بما هنا وما هناك من الفروق !. لقد غفلنا عن بواعث هذه الاحتفالات فنسينا تبعا لذلك أن شعوبنا غير محتاجة الى مثل هـذه المواسم المصطنعة ؛ لأن بقية من تعـاليم السماء لا تزال ولله الحمـد تمدنا بغذاء المحبـة والتقدير للأمومة والطفولة ؛ بصورة تجعل هذه المواسم بعض عناصر الحياة في وجودنا اليومي ؛ ولقد كان الأولى بنا ؛ اذا كنا جاديـن في تكريم الأم والطفـل ، أن نبذل بعض الجهود لاستبقاء ذلـك المدد الروحي الضامن لهذا التكريم . ولن يكـون ذلك الا بتجنب السقوط في تلك المزالق ؛ التي صار اليهـا الغرب فسلبته سعادته الروحية ومقوماته الانسانية ...

اين المعتبرون !

من المدهش حقا أن يبلغ الغرب ما بلغه مـن التفوق في ميادين المادة ، فيقتحم الماء ويسخر الهواء ، ويبدع في اكتشاف الدواء والأدواء ؛ ثم لا يملك مـن الفكر الحي ما يجعله قادرا على الانتفـاع بعمله في ميـدان السعادة والشقاء !. ليت شعري ألم يكـن جديرا بهـذا الغرب الجبار أن يلحظ العبرة في مصاير الأمم ؛ التي سبقته الى عبـادة الجسد ؟.. ألم يسمع بمصير اليونان والرومان وهما أقرب السابقين اليه !!. ولعمري ان في (بومبي) وحدها ما يكفي لايقاظ ضميره لو أن في ضميره بقية من

حياة (١) .

لقـد أخبرنا التاريخ بهلاك هـذه البلدة في غمرة مفاجئة من حسم (فيزوف) طمستها في دقائـق معدودة ، ولكنه لم يعرفنا شيئا عن هذه المدينة سوى أنها بلد الفن الايطالـي .. حتى اذا شاء الله أن يكشف عبرتهـا هدى الانسان الى ابرازها من تحت الركام ، فاذا هناك عجب .. شعب بأكمله استحال الى محنطات لم يبل منها شيء ، ولم يتغير وضع ، حتى الخباز لترى في يديه لوحه مستخرجا به الخبز .. وحتى السكارى ليمسكون بكئوس الخمر علـى شفاههـم .. وحتى الفاسقـون في أشنع حالات الفحشاء ..!

وكان من بالغ عبر بومبي ما يـراه السائحون هناك فوق مداخـل بعض القصور : رسوم موازين منحوتة في

---

(١) بومبي – تطلق هذا الاسم على هضبه صغيرة قريبة من بركان فيزوف من مقاطعة نابولي ، وهي في الاصل مدينة بلغ سكانها مئة الف ، وكانت المحلـة التي يقضي فيهـا اغنياء لرومان اوقات الاستمتاع واللذة .. وقد غطيت بحمم فيزوف منذ سنة ٧٩ قبل الميلاد واستمرت محجوبة حتى سنة ١٧٤٨ حيث عثر احـد الفلاحين علـى بعض آثـارها ، فبدات الحفريات حتى آمكـن ظهـار اكثرها – عن لاروس –

الصخر ، في احدى كفتي الواحد منها أكداس الجواهر ، يقابلها في الأخرى عضو التناسل راجحا على تلك الأكداس !...

وانما صُورت هذه الأشكال هناك لتبين فلسفة القوم في اعتبار اللذة الجنسية غاية الحياة .. تماما كما يفهمها اليوم هذا الغرب وأشياعه من عميان البشر !..

والغربي مفطور على هواية السياحة ، لا يكاد يدع موضع قدم من الأرض الا وقف عليه أو شخص اليه .. وهو قد رأى كل هذه المشاهد الفاجعة في بومبي ، كما رأى ما يضاهيها في مختلف الحفائر العالمية .. ولكنه لم يكن ليملك العين النافذة التي تستشف العبرة من وراء الحجارة .. انه ينقب في هذه الحفائر على شيء واحد هو : ماذا كان القوم يأكلون .. وماذا يلبسون .. وما يشربون . والى أي حد بلغوا من استثمار الطبيعة ؟!. أما أن يسائلوا أنفسهم عما وراء ذلك من المعاني العليا .. فهم أعجز من ذلك !. وقديما أخبرنا الله : (أنَها لا تَعمى الأبصارُ .. ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور) !.

ثم ان مَثُلات القدر لم تنته من الأرض .. فلئن هلك بعض الأمم الظالمة بالخسف أو النسف أو الجوع أو

المسخ ... ان ذلك لمستمر لم ينقطع بعد ولن ينقطع .. وإلا فما هذه الزلازل تقرعُ البشر هنا وهناك ؟. وما هذه السيول تجرف المدن والقرى في الشرق والغرب ؟.. وما هذه الأمراض تجتاح الانسان في كل مكان !. وقد عجز العلم عن استئصالها ، فما يكاد يستريح من غارة حتى يستأنف التعبئة لدفع غارة !. أما المسخ فما أكثره في هذا العصر .. الذي مُسخ فيه معظم البشر آلاتٍ تحرك آلات .. فلا وفاء ولا حنان ولا عدالة ولا أمان .. فكأن الأرض كلها على فُوَّهة بركان !.

ظلام من الشرق

وأنا لا أزعم أن الغرب وحده هو المسئول عن شيوع الفاحشة في قديم العالم وحديثه .. ففي ما قدمناه من صور هذه الآفة في العالم القديم ما يدفع هذا الظن، اذ تبين لنا اشتراك الأمم كلها في تبعة هذا الاتجاه الرهيب . ولكننا نزعم أن الغرب مسئول الى حد كبير عن انتصار هذه الرذيلة ، وامتداد ظلماتها على أنحاء العالم في عصرنا الراهن ، وذلك بما سخر من علومه ومواهبه للدعاية الى هذه الفاحشة ، وتزيينها في أعين المغفلين .. وبخاصة من هذا الشرق .

وها هو ذا يغمر أسواقنا بمنتجاته الصناعية ، من

الكماليات والضروريات في اتقان بالغ غاية الروعة ، ولكنه مع ذلك دون اتقانه لفنون الرذائل ، التي يصدرها الينا في أصنـاف الخمـور والفجـور •• وفي سموم الممثـلات والأرتيستات !• ولعـل سرور الغرب بنجـاحه في افساد أخلاقنا أعظم بكثير مـن سروره باستنزاف أموالنا ، كما يشهد بذلك المبشر الأمريكي الكبير (بيارد ضودج) حين يقول في محاضرة له عن الاسلام : (•• ويلـوح لي أن هوليود قد أثرت في الجيل الحاضر من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية ••(١) •• ولكنـه ينسى أن يعلن صراحـة أن الفضل في انحراف المسلمين عـن مدارسهم الدينية . الى مدارس هوليود . انما يعود الى الاستعمار الذي لم تكن أميركا بعيدة عنه !•

ونحن العرب ـ مـع الخجل الكبير ـ لم نقصر في الترويج لهذه المفاسد سواء في القديم أو الحديث ••

ولكن الرذيلة هي الرذيلة سواء انتسبت الى الشرق أو الى الغرب . وعندما تهاجم النار دارا لا يسأل أهلها من أين جاءت ، قبل أن يبذلـوا وسعهم في اخمادها • ونحن عندما نشير الى الغرب في كـلامنا عـن أخطـار التحلل المشهود . فلكي ندل على المنفذ الكبير الذي يجب اغلاقه ،

---

(١) الاسلام في نظر الغرب ص (٢) .

لنتمكن مـن حصر الخطر ، والا فلا ننسى أننا بلغنا من « التقدمية » في صناعـة السموم ، ولله الحمد ، ما يفوق مصانع هوليود وباريس في بعض الأحيان !٠ حتى أصبحت صادراتنا من هذه المنتجات تهدد أميركة نفسها بالفساد ٠٠ فتضطر لجنة مراقبة الأفلام في الولايات المتحدة مرة الى قص مئات الأمتـار من بعض أشرطتنا السينمائية ، حفاظا على أخـلاق الشباب الأمريكـي !٠٠ وانما يدعونا الى عرض هذه الفضائح هنا وهنـاك ـ كما ذكرنا أكثر من مرة ـ ما يملأ صدرنا من الخوف علـى مستقبل هـذه الأمة ، أن يحيط بهـا البلاء مـن الداخل وهي في أخطر معاركها الخارجية ٠٠ وقد كان لنا عبرة في ماضينا الوجيع يوم أهمل الناس أمثال هذه المفاسد ، فتركوها تستشري ثم تتجمع ، فتتحول الى سيول ما لبثت أن نسفت سدودنا ، فأسلمت مواريثنا الضخمة في الشرق والغرب لقمة سائغة الى متوحشة التتار ، والى متعصبة الأسبان والصليبيين !٠

ان معركتنا الحاسمة هذه الأيـام تقتضينا تعبئة كل طاقاتنا لمواجهـة العدو الذي يهاجمنا بأقـوى أساليب الدعاية والاستعـداد ٠٠ وليس من الاخـلاص ولا من الحكمة أن ندع العابثين يبثـون ألغامهـم في تحصيناتنا الأخلاقية ، ليحولوا الملايين من بناتنا وشبابنا الى عناصر هزيمة ٠٠ وما أدري أي فائدة سنجنيها من جيل نشأ على

تعاليم فلان وفلان من صعاليك الصحافة ، واذاعات (ما يطلبه المستمعون) .. وما الى ذلك مما لا عمل له سوى اتلاف الخلايا الحية في نفوس هؤلاء المساكين ، ثم شحن أعصابهم بالمواد المدمرة !. وقد علم كل المفكرين في الدنيا أن أكبر ما لقيه آباؤنا الأولون من العون في فتوحهم لفارس والروم ، بعد الايمان ، انما جاء من انحلال الأخلاق في هاتين الدولتين .. فكان الدم الجديد، ممثلا في تلاميذ المدرسة النبوية : ينازل الدم الفاسد المهترىء ، ممثلا في جنود الامبراطوريتين .. فلم يكن عجيبا أن تغلب القوة الضعف ، وأن تهزم الصلابة الميوعة ... ثم لقد علم كل المفكرين في الدنيا أيضا أننا لم نخسر أمجادنا العظيمة الا عندما فتحنا بيوتنا لسموم هذه الأمم ؛ تكتسح بميوعتها صلابتنا ، وتذيب برذائلها رجولتنا ، فكانت هزيمتنا يوم ذاك هزيمة الخلائق قبل أن تكون هزيمة المعارك . وهل ننسى أن المعزّ الفاطمي ظل يتهيب الاقدام على غزو مصر حتى جاءته الأنباء متواترة عن استهتار نساء الأخشيد .. فتحرك للعمل وهو يقول : اليوم فتحت مصر !.

بطولات في الترهات

على أن المرأة العربية بالرغم من جميع الظواهر

المفزعة ، ما تبرح أقرب الى السلامة من جميع نساء العالم لو أتيح لها التوجيه الصحيح .. ولكن اذا كان الكتاب من عنوانه يقرأ فلن نلبث طويلا حتى نكون وراء الغرب في قلب المنحدر .

اننا في الطريق شئنا أو أبينا ، وكل من سار على الدرب وصل . ولو ترك البيت العربي الى تقاليده الأصيلة ، لكنا اذا في حصانة من هذه الأوباء .. ولكن الأمر بخلاف ذلك ، وها نحن ننظر الى معقلنا الروحي ينقض حجرا حجرا ، دون أن نستطيع تأخير الكارثة ، واذا كنا أنا وأنت غير قادرين على صيانة أخلاقنا أمام هذا الغزو الزاحف علينا من الاذاعة والكتاب والصحيفة و .. بعض الذين يسمون أنفسهم من كبار العلماء . فما شأن أولئك الأغرار الصغار من أبنائنا المساكين وبناتنا الغافلات ؟.. أدخل أي حانوت شئت .. ثم زر أي فتى في بيته .. فماذا ترى على الجدران هنا وهناك ؟..

رسوم هؤلاء اللواتي حدثتك عنهن من ساقطات باريس ، وداعرات هوليود ، وزميلاتهن من الأرتيستات .. من هنا وهناك ، ثم رسوم لزملائهن من مُجّان الممثلين والمخنثين !.

ولعلك قرأت في الكثير من الصحف أنباء الشجار

الذي طالما نشب بين رائـدات السينما من نسوة بلادك حول شخصية فلان وفلان من (معبودي الجماهير) كما تسميهم الصحافة المتاجرة بالأعراض !٠ ولعلك قد رأيت الى أكداس البشر تتدافع بالمناكب على أبواب السينما ، للوصـول الى شبابيك التذاكر ٠٠ لأن هنـاك شريطاً سيحضر عرضه أحد (أبطاله) من هؤلاء الرقعاء !٠٠ اذا فكرت في هذا كله فستعلم أننا لم نعد في أول الدرب ٠٠ بل قطعنا الى الغاية مسافة نحسد عليها !٠٠

ولنقف قليلا هنا ، لنسأل أنفسنا عـن الأثر الذي تستوحيه فتياتنا وفتياننا من رسوم هؤلاء الرقعاء ، الذين تسميهم صحف التضليل أبطالا ونجوما !٠٠

ان الفتاة التي تجـد رسوم الفاجرات في أوضاعهن المثيرة ، في حجرة أبيها أو أخيها أو زوجها ، لن تفهم من ذلك الا شيئا واحداً ٠٠ هو أن المثل الأعلى للمرأة المرغوبة قد أصبح مقصورا على هذا الضرب من المخلوقات !٠ وأن كل ما تسمعه من المواعظ في الأخلاق والدين ــ اذا كان هناك بقية من ذلك ــ ليس الا صورا مـن الدجل الذي لا مكان له في واقع الحياة !٠ وهيهات لمثل هذه المسكينة أن تستطيع التماسك أمام هذا الاغراء ٠٠ بـل م أحقها بالعذر اذا ما استجابت لدوافع السقوط في سرعة صاعقة !٠

ولقد خرجت ذات مرة من دار الحكومة في حمص ، واذا أنا بسرب من الصبايا نصف المحجبات علـى الباب ، وقد شغلن بحديث حار عن أشخاص لم أعرف أول الأمر هويتهم ، حتى سمعتهنّ يذكرن اسم ممثل سينمائي ، كنت قد فوجئت صباح ذلك اليوم باسمه ورسمه علـى جدار أحد المراحيض العامة .. فأدركت أن الصبايا من خريجات هذه المدرسة ، وأن أبطالهن المحبوبين ليسوا الا هؤلاء المأفونين !.

فبالله عليك ماذا تتوقـع للفتى الذي يعرف اعجاب النساء من حوله وفي بيته بمثل هؤلاء ، بعد أن أيقن أنهم مثلُهن الأعلى .. وألا سبيل الى الظفر برضاهن الا لمن كان على شاكلتهم !..

ويسير عليك بعد ذلك أن تتنبأ بمصير هذا الجيل ، الذي تُطلَقُ فيـه ألقاب الأبطـال على دعاة الفجـور والضلال .. حتى يكونـوا النموذج المفضل لديه .. ثم قلما تجد بين كبار أدبائنا من يكتب حرفا في تصحيح هذه الأوضاع، على حين تجدهم يخرجون أكداس المنشورات فيما لا يتصل بحياة الناس ، كأنهم يعيشون في غير هذا العالم ، أو كأنهم لا يحسون بأنهم من هـذه الأمة !. وقـد لا تصدقني اذا أكدت لك أن من عمالقة القلم في بلادنا من يعلن ألا سبيل لنا الى أي تقدم في العلم والصناعة الا أن

نجرب كل ما لدى الغرب من الفجور والرقاعة !.. وهو كلام صريح معناه أن صاحبه مستبشر بهذا الانهيار الخلقي الذي قطعنا شوطا بعيدا في مزالقه !.. (١)

---

(١) هذا الكلام جاهر به بعض الكتاب في مصر ولبنان ، وقد ترجم الى مناهج حكومية في بعض البلاد العربية ، التي منيت بالحكم الثوري .. وكمثل على ذلك اذكر أن فتاة من حاملات الاجازة الجامعية من كلية الشريعة ثم دبلوم التربية قد سرحت من وظيفتها التدريسية في ذلك البلد.. ولما راحت تستوضح عن السبب عند مدير التربية والتعليم ، لم يستطع أن يصرفها حتى أعلن لها (الباعث) بقوله حرفيا : (نحن نعتبر هذا الجيل من الفتيات امانة في ايدينا ، وليس من الوفاء بالأمانة أن ندعهن معرضات للتأثر بطريقتك هذه ..) قال هذا وهو يشير الى جلبابها السابغ الذي يحجبها من الراس الى القدمين !.. وهنا قالت الفتاة : انت تعلم أني لم أؤثر هذا الثوب الا استجابة للاسلام الذي جاء به الرسول الذي تنتسب إليه — وكان صاحبنا من الأشراف فيما يزعمون — فاذا كنتم ترفضون الاسلام فأعلنوا ذلك بابعاده عن التعليم نهائيا !..) وقبل أيام زارني صديق قادم من بلد ثوري ، وقد أخبرني أن ندوة تلفزيونية ظهر فيها وزير التربية والتعليم . وكان مما صرح به بمسمع ومشهد من عشرات الآلاف المشاهدين والسامعين : (أن هناك مدرسين ومدرسات يوقعون في أخلاد الطالبات خوف النار ، وغضب السماء .. وهذا شيء نعتبره جريمة في حق الجيل الجديد ، وقد صممنا على أن نعامل اصحابه بما ←

ولو سئلت عن أكبر مكتشفات العصر الحديث لقلت الذرة •• أو التلفزيون •• أو الاجرام الصناعيــة •• ثم ما تشاء من حلقات السلسلة ••

أما أنا فلن أتردد في الحكم بأن أكبر مميزات العصر انما هو انقــلاب المقاييس الانسانية في أسماء الأشياء •• اذ قلما أسمع كلمة جديدة تنطبق علــى مسماها اللغوي الأصيل في مضمار المصطلحات الاجتماعيــة والسياسية !• أنظر الى هذه الألفاظ : الحب • الحق • الجمال • الخير • الفن ••• وبقليل من التأمل في مفاهيم الجيل الجديد لهذه الكلمات تدرك أنك تلقاء مهازل عجيبة ، قلبت فيها المعاني رأسا على عقب • فالفن هو كل مــا يثير الغرائز الجنسية دون أي تحفظ •• حتى (الأرتيست) ليست الا ترجمة حرفية لكلمة فنانة !• والخير هو كــل ما تقدمه لنفسك ولغيرك من مجهــود لتحقيق المنفعة ولــو علــى أشلاء العدالة !• والجمال هو اخراج كل شيء عــن حقيقته في موكب من الزينة الكاذبة !• ولا بأس أن نضيف الى ذلك

→

يستحقون !.) ولا حاجــة الى البحث عــن الرابط بين كلمتي المدير والوزير ، فهما من نبع واحد ، ويترجمان عن منهج جديد واحد !..

فلينظر المسلمون الى أين يساقون !...

اخضــاع الحس الى المقاييس المتريــة لاختيار الأشكال الصالحة لالهاب الغرائز !• أما الحب فهو حسب التعريف الأميركي لا يتجاوز التفاهم المتقابل علــى افراغ الشحنة الجنسية بين (إنسانين) !• وأمــا الحق فليس الا توفر القدرة على اعطــاء الصفة القانونية لكل عمل يقــوم به الأقوياء •• سواء كان هذا العمل فرديا أو اجتماعيا أو دوليا !•••

على أن قسط الحرية من هذا الظلم اللغوي قد يكون أكبر الأقساط ، فقد انتهت على أيدي هؤلاء « المجددين » الى أن تكون حرية الهدم لكل ما هو روحي ومقدس !• ثم حرية الهجوم على العقائد الالهية باسم العلم !!•

وأخيرا انها انطلاق الانسان في ميدان الغرائز ، حتى يصبح الحياء بنظره صورة مــن الكبت الذي لا مسوغ له !•• وقد كان مفهوما أن هذا اللون من الحرية خاص بالحيوان •• ذلك لأن الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يتنازل راضيا عــن بعض حريته الفرديــة في سبيل الخير العام • وليس تحديــد أمكنة السير في السبل العامة •• وليس التقنين الذي ترجع اليه الحكومات في الأزمات •• سوى ضروب من التقييد لهذه الحرية ، يراد بهــا تأمين السلامة والخير لأكبر عدد من المجموع ••

ونحن عندما ننعم النظر في تبين الفروق بين الانسان

وغيره ، نرى الحكمة جليـــة في تخصيص الانسان دون سواه بهــذا التقييد •• فهو بغرائزه مشارك للحيوان في دوافع البقاء ؛ ولكنه بالعقل والوحي مخلوق ممتاز •كلف مسئول ، وقد رشحته العناية الالهية لسيادة هذه الأرض ، فجعلت غرائزه احدى طاقـــاته الموهوبة ، وزودته بالعقل والوحي ليساعداه على تحقيق مهمته العليا في ادارة هذه المملكة •• وهنا تتجلى مكانـــة الانسان ، اذ إنـــه بهذا الامتياز يشق طريقــه الى التسامي ، الذي يجعله مالكاً لغرائزه ؛ فلا تعمل الا ضمن المدى الذي يحفظ له كرامته وكيانه الاجتماعي • ومن هنا نعلم لماذا كُتب على الانسان أن يكون الوحيد صاحب الحرية المقيدة في هذه الأرض !• فاذا سمح الحمار لنفسه مثلا أن يقذف ببوله وروثه حيث شاء ، لا يقيم وزنا للأخلاق والقانون ، فالانسان المتمدن طبعا يطلب لعمله ذاك مكانا بعيدا عن الأعين ، بعيدا عن الأذى •• لأنه بحكم ذلك الامتياز الالهي مكلف التفكير بمصلحة الجماعة ومصلحة الحضارة •

واذا دفعت غريزة الجنس كلبا للوثوب على كلبة أية كانت وأنى كانت ، فالانسان الكريـــم المتحضر يترفع عن مشابهته ، فلا يكشف ذيله الا لأنثاه التـــي اختارها على طريقة الله ، وفي خلوة تحفها عناية الخالق ؛ وتظللها أجنحة الملائكة ، اذ هو يفهم أنه بذاك يحقق قسطا رفيعا مـــن

مهمته في انجاب النسل الصالح لرسالة الله •• بل هو يعلم بما استودعه من نعمة التكليف والتفكير أنه مدعو الى الحفاظ على طهارة هذا النسل ، الوارث لخلافة الله في هذه الأرض ، وذلك بمحاربة الفحشاء المهدمة لكيان الأسرة فالأمة ، ثم بتجنب الوسائل المؤدية الى هذه الفحشاء •• فهو حفيظ على أهله ينشئهم على روح الايمان الذي يهيئهم لتلك الرسالة •• وحفيظ على نفسه فلا يسمح حتى لعينيه بسلوك طريق المنكر ، اذ يكسرهما عن كل منظر يدعو الى الرذيلة •• لأنه يكرم نفسه عن الهبوط الى مستوى العجماوات ••

وهذه الحكمة التي ميزت الانسان بهذا التكريم ، هي التي ألزمته ضبط غرائزه ضمن حدود الخير ، ثم جعلت في كل مخالفة يقترفها في هذا المضمار عقوبة رادعة لا يعرفها الحيوان •• من حقها ــ لو فكر بها في تجرد ــ أن ترده الى طريق الحكمة نادما مستغفرا •

هذا الانسان الذيأعده الله لكل هذه العظمة ، وزوده بكل هذه القوى •• قد يستجيب لحوافزالسمو من العقل والوحي ، حتى يحقق في ذاته الانموذج الفاضل للانسان الممتاز • وقد تأسره حيوانيته الدنيا فاذا هو البطن الذي لا يشبع فيعف •• والشهوة التي لا تخمد

فتكف .. والباغي الذي لا يعترف لغيره بحق الحياة ، الا بمقدار ما ينتفع هو من حياته !.

وفي هذه الحالة تستحيل الحياة جحيما من الشقاء الغامر ، والبلاء القاهر .. تفقد فيه الانسانية صمام الأمان ، ويصبح فيه الانسان خطرا على الكون كله ، بله الانسان والحيوان . وهكذا يسقط هذا الجبار — كما هو الآن في كل مكان — ضحية النار التي أوقدها على نفسه ، حيث بات فريسة الأمراض ، وفريسة القلق، وفريسة الحروب وخوف الحروب !.

ذلك هو حصاد الانحراف لمفهوم الحرية في لغة الناس ، وانه لحصاد مخيف لا يتدارك شره الا أن يعيد هؤلاء الناس النظر في هذه المعاني من جديد.. ويومئذ سيعلسون أن هذا الاندفاع المحموم في مزالق الشهوات والانحلال والالحاد ، يمكن أن يسمى استهتارا أو تهربا من تكاليف العظمة .. أما أن يسموه « حرية » فهذا من أشنع الكذب في لغة الانسان وتاريخه !. (١) ..

---

(١) جاء في تقارير (البوليس السري الأمريكي بشيكاغو) وقد نشرت في ثلاثة عشر مجلدا ما يلي : (ان هذه الحرية الفاسدة وحضارة الخنافس لم تفسد فقط نظام الأسرة في امريكة ، ولكنها أيضا قد جلبت لأمريكة ثقافة لا يمكن معالجتها بالبوليس او القضاء ...) — عن مجلة الحج ص ٢٣ عدد ٤ السنة ٢٢

ان الحرية أسمى هبات الله لعباده بعد نعمة العقل والوحي ، اذ هي في الواقع اطلاق لطاقات الانسان من قيود الجبرية ، التي فرضها الله على الحيوان والجماد والنبات .. حتى الملائكة .. ليعطيه القدرة على القيام بأعباء الخلافة في هذا الكون . ولو شاء الله لألزمه طريق الهدى مكرها ، فلم يستحق عقابا ولا مثوبة ، ولحرم بذلك شرف المسئولية التي بها كرمه ، فجعله في أرفع مقام وأحسن تقويم .. ولذلك كان العدوان على الحرية ولا يزال أكبر الجرائم ، لأنه تعطيل لحق الاختيار .. وحبس لطاقات النفس في القالب الذي يفرضه الطغيان ، سواء كان طغيان فرد أو جماعة أو استعمار . ولعمر الله لم يرد الفاروق عمر (رض) غير هذه المعاني السماوية ، حين انطلق صوته عبر التاريخ يجلجل بهذه الصيحة :(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) !.. ولم يقصد الى سواها السيد المسيح (ع) اذ قال : (تَعرفون الحقّ والحقّ يُحَرِرُكم ..) وصدق كونفوشيوس ، اذ سئل عن أفضل الوسائل لتصحيح الأفكار .. فأجاب (تصحيح الألفاظ ..) . فلو صحح الناس في كل مكان مدلول ألفاظهم .. فسموا كل شيء باسمه ، لما عرفوا هذا البلبال الرهيب في جميع جوانب حياتهم .. ولتجنبوا الكثير من هذه المخازي التي يجترحونها تحت ستور الأسماء الكاذبة !.

عبرة من الجامعة

في صحيفة دمشقية قرأت أخبارا عن الجامعة السورية ، لفت نظري منها حديث دار بين المحرر وبين طالبة جامعية في الصف النهائي من احدى الكليات . وها أنذا أوجزه لك في هذه المحاورة :

ـ ما أحب الفنون الى نفسك ؟

ـ الرقص .. وأحبه الي العنيف .. وقد أتقنت رقصة (الروك أندرول) في أيام.. وأنا اليوم أتدرب على (الرومبا) .

ـ ستتخرجين هذه السنة لتكوني مدرسة في معهد ثانوي .. فهل تؤثرين ذلك على الزوج ؟

ـ طبعا .. لا .

ـ أي الرجال ترغبين أن يكون زوجك : الجميل.. القوي .. الجامعي ..؟

ـ لا أشترط في من أريده الا أن يكون رجلا فقط . أما الشهادة فشيء ثانوي .

ـ واذا تم ذلك أفتفضلين الجمع بين الزوج والوظيفة ؟

ـ ذاك له .. فان شاء عملت وان شاء تركت.. وأنا

شخصيا أرى أن مكان المرأة هو البيت • لا الشارع ولا المدرسة ولا أي مكان آخر ••

من هـذه المحاورة الغريبة يستطيع كل منا أن يفهم الكثير من نفسية المرأة، التي جعلتها الأقدار فريسة التنازع بين مختلف الأيدي الخفية من هنا ومن هناك •• انهـا كأبرة الميزان الفارغ يؤرجحها الهواء يمنة ويسرة ، فهي تنتظر الثقل الذي يمسكها على أحد الجانبين ، لقد جرفها تيار المجون حتى اتخذت من الرقص هواية •• ولعلـك تحس كما أحسه أنا في ايثارها الضرب العنيف منه خاصة •• ذلك أن انتشار هذا النوع من الهواية العنيفة انمـا يعود ـ هنا وفي الغرب ـ الى رغبة نفسية في الفـرار من الواقع •• الواقع الذي يشحن النفوس بالفراغ والقلق والتشاؤم ، فلا يجد صاحبه سبيلا الى الذهول عنه الا بمثل هذه الحركات الصاخبة •• كما يفعل اليائسون عنـدما يبحثون عن الدواء في جرع المخدرات ••

ولقد مرت بي أوقات فكرت فيها طويلا بالباعـث النفسي علـى انتشار حلقات الذكـر العنيف في أوساط بعض الصوفية ، ولا سيما خـلال عصر الانحطاط ، فلم أجد لذلك سببا دينيا•• ثم انتهيت الى هذا الرأي•• وهو أن الكوارث التي زلزلت العـالم الاسلامي ، من غزوات

المفاسد وكتائب التتار والصليبيين ، وما سبق ذلك وتبعه من القلق الروحي .. كان من شأنها أن تدفع الناس الى التفتيش عن مصارف لآلامهم .. وهكذا أقبل الجاهلون على المجون في مثل الجنون .. وأقبل الكثير من العلماء والزهاد على حلقات الذكر هذه ، يخضون بها أجسامهم في مثل عنف الروك أندرول ، وهم يرددون التسبيح والتهليل ، حتى يسري اليها المخدر .. فتستحيل أذكارهم دويا ينبعث من أجسامهم كلها !..

ولعلك مبتلى مثلي بتوتر الأعصاب من هذا الضجيج الذي يثيره المذياع في كل مكان .. حتى لا أكاد أجد منه مهربا يقيني شره، سواء في الطريق أو المدرسة أو المقهى أو البيت .. اذ بات مألوفا أن ترى كلا من النساء والرجال والصبيان ، في البيت والشارع ، مقبلا على عمله في تيار هذه الضوضاء .. تنصب على رأسه من مذياعه الخاص ، فلا يسعك الا أن تحكم أن ثمة مرضا عد قد استولى على الجميع ، فهم يعالجونه باللجوء الى ذلك الصراخ المتصل ، كما يلجأ وثنيو الهند الى قرع طبولهم حول المحارق البشرية ، ليحجبوا أصوات المقدمين منهم على الانتحار المقدس !.

أجل .. انني لا أفهم من هذا النزوع الى الهواية

العنيفة الا أنه تعبير عن القلق، يتجلى حينا في حلقات الذكر وحينا في المذياع ، وحينا في الرقص • الذي يقبل عليه أولئك الفتيات في الأوساط الجامعية • لقد أخرجت الجبرية المدنية هؤلاء المسكينات من طريق الأمومة الى صحراء الدراسة الطويلة •• التي لا تنتهي الا بعد انسلاخ عشر سنوات على الاقل من عمر الغريزة المتفتحة للتناسل • وللغريزة سلطانها الحتمي ، فهي اذا لم تجد المصرف الطبيعي في ظل العش الزوجي اضطرب سلوكها واصطدمت بحاجز الظروف فارتدت عُقَداً عسيرة الحل !•

وربما كان هذا الواقع الرهيب هو الذي أوحى الى (برتراند رسل) بنظريته الاباحية ، التي تدعو الى اطلاق الغريزة الجنسية في الوسط الجامعي ، حتى يتوفر لكل طالب وطالبة من متعة الجنس القسط الذي يدفع عنهما ضغط هذه الغريزة !• وعذر الفيلسوف في دعوته هذه أنه اولا لا يجد مناصا من الخضوع لضغط النظام الاجتماعي الزاحف بالناس الى مصيرهم مكرهين ،وثانياً انه لا يعرف هذه الحلول السماوية التي نعرفها نحن في الاسلام •• الاسلام الذي يهيب بالأفراد والحكومات والجامعيين والجامعيات ــ على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ــ « يا معشرَ الشباب •• من استطاعَ منكم الباءة فليتزوجْ ••» الاسلام الذي يعالج الغريزة الجنسية

بالمبرِّدات والملطفات، اذ يحول دون انتشار هذه العوامل المشعلة للسُّعار من الصحف الماجنة، والسينما الداعرة . والكتب الجنسية التي تطرح في أيدي الشباب باسم حماية الشباب •• ثم ينظف طريق المراهقين والمراهقات من كل دواعي الشهوة العارمة ، وبذلك يتيح لكل من الجنسين أن يمضي الى عمله اليومي في درب نظيف ، قد غسل من أرجاس الأخلاق كما كنس من فضلات الأقذار •

وما ينبغي أن ننسى بقية حديث الجامعية •• فقد جاءت كلماتها الأخيرة كحديث انسانة تعبر عن أعماق الفطرة الأنثوية . التي تدرك أكثر من كل فلاسفة العالم : أنها خلقت لتكون زوجا وأما ، لا موظفة وعاملة ، وانها كذلك في عطش الى الرفيق الشرعي ، الذي توليه ثقتها التامة . فتعمل اذا شاء وتدع العمل اذا شاء ، دون أن تشترط فيه شيئا سوى الرجولة •••

وأي عاقل لا يستخرج من هذه الصراحة عبرتها الضخمة •• عبرتها التي تقول ان مملكة المرأة الطبيعية هي الامومة في بيت تظلله قوامة الزوج !•• وما كان لهذه الشهادات العالية ، ولا لتلك المرتبات المغرية انتنسي

المرأة هذه الحقيقة التي يذكرها بها كل شيء .(١) والويل للنظام الاجتماعي الذي يريد ان يمسـخ في نفسها هـذا الكائن الانثوي !.. انها يومئذ ستتحول لعنة على العالم، وستجعل من طاقاتها الضخمة ألغاماً تنفجر في قلب المجتمع، فتنسف كل ما بنته الانسانية الحكيمة الخيرة من صروح السعادة والاخوة والاستقرار !.. وجميل ان يكون الغرب الوثني قد بدأ يتنبه ــ ولو متأخراً ــ لهذا الخطر، فأخذت اصوات الاجتماعيين في اوروبة وامريكة تتصاعد هاتفـة في حرارة ووجل : (أعيدوا المرأة الى البيت) (٢) ولكـن

(١) حضرت اليوم لزيارتنا (دكتورة) من معارفنا .. واثناء الحديث سألت اهلـي : ألم تخطب فلانة ــ وهي بقيـة بناتي ــ بعـد ؟. فأجابتها : لقـد خطبت ولكنها آثرت الا تتزوج قبـل حصولها علـى التوجيهيـة ... فقالت الطبيبة : ولنفرض انها حصلت على شهادة الدكتوراه.. فما فائدتها من ذلك ، اذا كانت ستتحول الى آلة للعمل دون ان يكون لها زوج تستأنس به !؟.. وكانت الدكتورة المسكينة تترجم عن واقعها الحزين في هذه الكلمات ، فلم يفت سامعاتها ما تريد ... وكم في هـذه الكلمات مـن معنى قريب بعيد !..

(٢) يقول البروفسور (ليكي) في كتابه (تاريخ الاخلاق في أوروبة) (ان الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية قد انهارتا بسبب انحرافهما عن حميد الاخلاق ، وتخليهما عن خصائص الرجولة .)

(عن مجلة الحج ص « ٢٣٤ » ج ٤ س ٢٢)

المحزن اننا في هذا الشرق العربي بخاصة والاسلاميّ بعامة قدخسرنا شخصيتنا المميزة ، فبات كل ما نستطيعه هــو تقليد هذا الغرب الذي آمنا بتفوقــه •• وأقبلنا نعــدو وراءه ، دون وعي ، فاذا نحن أسرع منه هبوطاً الى اسفل، واذا نحن نتلقى كل أخطائه الاجتماعية بالقبول والتطبيق، لا نشك في انها خير ما أبدعه التقدم البشري !•• حتــى اذ وجد من كبار رجال الغرب من يكشف فضائح هــذه الاخطاء أغلقنا أسماعنادون صوته !•• ولا عجب في ذلك فالانحدار أيسر من الصعود ، وليس من السهل ان تكلّف الهاوي في السفح ان يتماسك فجأة عند نقطة الخطر •• وقديما صور المعري ذلك خير تصوير حين قال :

سُبُل الغيّ سهلــة واسعات
وطريق الهدى كَسم الخياطِ

مصعد شقّ لا تكلّفه الضُمّر
الا مضروبـــة بالسيــاطِ

ولهذا كان اصــلاح الامم المتخلفة موقوفا بالدرجة الأولى على قادتها السياسيين ، الذيــن بيدهم مقاليـــد التشريــع •

وحق ما قاله حكيم العرب آكثم قديما من أن(اصلاح

فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي) •• ولكن صحة هذا الرأي مقيدة بنسبة الأوضاع •• فالشعوب الواعية هي التي تملي خطط الحكام ؛ ومن وعيها السياسي يستمد هؤلاء اتجاهاتهم ••• ولكن الجماعات التي لم تستكمل نضجها السياسي ، ولم تستبن لها الأهداف في وضوح ؛ وبخاصة اذا كانت حديثة النهوض من عشرات قرون وقرون•• هذه الجماعات لا تقبل الاصلاح الا بقوانين، وكل دعوة فيها الى الخير ينبغي أن تسبق بالاسوة الصالحة، أولا في أشخاص الحكام ومَن حولهم ؛ ثم بالمؤيدات القانونية التي تحسن التأديب لمن يند عن طريق الجماعة•• ولقد كان من سنة الفاروق (رض) كلما أراد أن يشيع في الناس أمراً ، أن يجمع أهل بيته ليقول لهم « اني آمر الناس بكذا •• وانهم لينظرون اليكم كما تنظر الطير الى اللحم ؛ فوالله لا أعلم بمخالفة أحدكم لهذا الأمر الا أضعفت له العقوبة •• » ولقد ارتفع في أحد البرلمانات العربية ذات يوم صوت كريم ينبه المسئولين الى المفاسد التي تهاجم البلاد من البر والبحر ، وما تلقاه هذه المفاسد من تشجيع الصحافة، وأدعياء الفنون، حتى أصبحت خطراً يهدد البلد بكارثة لا سبيل الى درئها ، الا أن ينهض المجلس بعبء الاصلاح ، فيصدر التشريعات التي تسد طريق هذه الأرزاء •••

ولكن مما يؤسف أنه كان صيحة في واد .. اذ لم يُعره المجلس شيئا من الاهتمام الذي كان منتظرا ، وكل ما حدث أن بعض النواب تحدثوا في الموضوع مشاركين صاحب الاقتراح في ألمه لهذا الانحدار .. غير أنهم لم يروا ضرورة لاقحام التشريع في الأمر ، بل كان يكفي بنظرهم مضاعفة الاهتمام بالمواعظ والارشادات !. وفي اعتقادي أن كل مغفل مثلي ضحك من هذه المناقشة، التي تدعو الى معالجة الحريق بالدعاء وحده !.. وما ندري لماذا تتحمل الدولة عبء هذه التشكيلات من سيارات الاطفاء ، اذا كانت المواعظ والارشادات وحدها كافية لاخماد النيران !..

ولعل الأعجب من ذلك أن نرى ذلك المجلس يشرع القوانين مثلا لمكافحة التهريب ، ولحماية المصالح العامة ، ويضع عقوبة الموت لمن يرتكب جريمة التعامل مع العدو.. ثم لا يرى في المقترفين لهذه الجرائم الأخلاقية سوى مخطئين في وجهة النظر ، لا يستحقون أكثر من الموعظة الحسنة !..

ترى أكان تهريب الأفيون أكبر من تحطيم الأعراض ... وأفظع من تهديم الثقة بمقومات الامة في الاخلاق والدين !.. واخيراً أنسي هؤلاء السادة النواب أن الترويج

لرذائل الغرب في أوساط الأمة المكافحة للغرب هو أفجع ضروب الخيانة القومية .. لأنه تهديم لحصون الامة من الداخل ..فاذا لم يكن هذا تعاونا مع العدو ، ضدّ مصلحة البلد ، فكيف يكون التعاون اذاً وكيف تكون الخيانة ؟..

أجل .. يا سادتنا ممثلي الأمة .. ان الاصلاح الحق في أمتكم لن يكون الا بقوانين . ولن يستمر الا اذا ساندته قوى الدولة .. وثقوا أن أفضل ماتقدمونه لهذه الأمة من خير هو أن تساعدوها على الاحتفاظ بمقوماتها الروحية ، التي بها وحدها تقهر العدو ، وتعود كما كانت خير أمة أخرجت للناس .

لقد وقف عمر (رض) يخطب في آبائكم وهم زاحفون الى ميادين الجهاد فقال : « ان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عَددنا ليس كعددهم ، ولا عُدتنا كعدتهم ، فاذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلاَّ ننصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .. ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يُسَلَّطَ علينا ، فرب قوم سُلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني اسرائيل ــ لما عملوا بمساخط الله

كفار المجوس فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا » (١) ...

وانه والله لموقف الأمس أعاد به التاريخ نفسه أوكاد.. فالعدو أمامنا كثير .. والسلاح لديه وفير . ولو ركضنا عشرات السنين لن نبلغ من معالم القوة الحربية ما كشفه حتى الآن .. فنحن نحاربه بسلاح الحق كما نحاربه بسلاح الحديد ؛ فاذا ساويناه بالذنوب كان أحرى بالنصر .. وقبل أن يعطينا الله الوعد بأن ينصرنا أخذ علينا العهد بنصره ؛ وأن نكون حملة ضيائه الى عباده ، نقيم الصلاة ؛ ونؤتي الزكاة ؛ ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر .. (وَلَيَنصرَنَّ اللهُ من ينصُره .. ان الله لقوي عزيز . الذين إن مكّنّاهم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ؛ ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبةُ الأمور ..).

عوامل النصر

وان تعجب فعجب قول هؤلاء الحاملين لواء « التغريب » : انهم يريدون الاصلاح ، وقد استيقنوا ألاّ سبيل الى مواجهة العدو بنصف الأمة .. لذلك

---

(١) من وصية الفاروق الى سعد بن أبي وقاص عن (جمهرة رسائل العرب) .

هم يشدون بالنصف الآخر ـ المرأة ـ ليخرجوها من سجن البيت الى معركة الحياة •• ولتكن ماكانت النتيجة •• انه انقلاب اجتماعي ، ولا بد في الانقلابات من ضحايا
واذا قلت لهؤلاء : ان قوة الأمة انما هي مصانع ومزارع ومدارس ومشاف وذخائر ومعنويات روحية ، تجعل من التضحية عبادة ، ومن الحرمان جهاداً مقدسا ••وان القوة لن تكون أبدا رقصا وسكرا وسباحة مختلطة •• وانهيارا خلقيا يحطم صلتنا بالماضي كله •• اذا قلت لهم ذلك أجابوك : ان المحارب في المعركة لا يستطيع الانقطاع عن الحياة •• فكما يحتاج الى الامداد بالطعام والدواء والذخيرة ، هكذا يحتاج الى مدد من الترفيه حتى في خطوط النار !•• ألا ترون الى جنود الغرب •• ان دولهم تتفقدهم بسانحات اللذة ، كما تتفقدهم بوسائل التغذية ، ومع ذلك فلا يمنعهم هذا من النصر اذا لم يكن هذا في الواقع من دواعي النصر •• » وعبثا تذكرهم بالفروق بيننا وبين هؤلاء •• وأن أولئك عندما يقاتلون جماعات من طرازهم يتساوون بعوامل الضعف • ويبقى التفوق لعوامل القوة ، فالمنتصر منهم لا ينتصر بذلك الترفيه، ولا بتلك الرذائل ، وانما ينتصر بعوامل القوة الأخرى •• ونحن نريد أن ننزل الى المعركة بقوة لا ضعف فيها ، لنعوض بالمعنويات ما ينقصنا من الماديات •• وقد رأينا أمماً بلغت الأوج في موازين القوة ، ما لبثت أن انهارت

تحت سنابك الاقل قوة .. وما ذلك الا لامتلاك هؤلاء الأقلين من طاقات النفس ما لم يكن يملكه أولئك الأكثرون .. وأمامكم الرومان والفرس قديما ،وهؤلاء الفرنسيون والطليان حديثا .. ونحن واسرائيل بعد ذلك.

.. كتب أحدهم في جريدة له يهتف : أن ادفعوا المرأة الى ميادين التجربة العامة .. دعوها تخطىء وتصيب، ان اسرائيل تدرب كل أفرادها استعداداً للمعركة . فلا ينبغي أن ننازلها بتعبئة ناقصة ... » !

وما أغراها كلمة !.. انها الغيرة على الوطن .. والاستعداد للمعركة الحاسمة ، فكيف تثبط هذه الهمم بتعطيل نصف المجتمع !. ولكن هذا الصديق ، وهو مرب قديم ، نسي شيئا بسيطا وهو أننا لم نهزم في معركة فلسطين لقلة المقاتلين من رجالنا .. وانما هزمنا لقلة المناعة الروحية في أخلاقنا ، فهي هزيمة أخلاق لا هزيمة سلاح ورجال .. وقد سُئل السيد ساطع الحصري :كيف هُزمت سبعة جيوش عربية أمام عصابات الصهيونية ؟.. قال ونعم ما قال : « هزمت لأنها سبعة جيوش ..»وأنا أقول : لقد هزمنا لأنا لم نقاتل عن نية واحدة ، ولم نقاتل لغاية واحدة .. وكان العدو على قلته يحارب لتحقيق هدف آمن به ، وغذى الايمان به كل فرد من عصائبه ،

ولولا هذه البلبلة المعنوية في صفوفنا ، ولولا تلك الخيانات المستورة والمفضوحة ، لما كان في رجال العرب من يقبل الهدنة التي أضاعت النصر عام ١٩٤٨ م ، ولما استطاع طرداء الشعوب أن يحققوا أهدافهم المخططة قبل عشرات السنين •• ولو كانت وراءهم أمم الدنيا بأسرها (١) •

كنت في دمشق أحد أيام معركة فلسطين • وكانت وفود المتطوعة تتوالى من أنحاء البلاد العربية جميعها •• ومساء ذلك اليوم لاحظت في طريقي الى الفندق حركة غير عادية ، فقد كان الناس يتراكضون من ساحة الشهداء في صمت لا يكادون يتكلمون •• فسألت واحدا وواحدا دون فائدة •• حتى رزقني الله من أطلعني على السر : ان عددا من « المجاهدين » الوافدين من قطر شقيق ، منطلقون في الساحة يبحثون عن صيد من الغلمان !•• وشاء الله أن تنكشف الغمة ، حين جاءت شرطة الحرب

---

(١) لقد بات معلوما أن كتائب اليهود في معركة لعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ م دخلت سيناء وعلى مقدماتها منشورة اوراق التوراة، وكان جنودهم ينزلون الى ارضنا الحبيبة ليعفروا وجوههم بترابها الذي يزعمون ان كتبهم المقدسة تعدهم بامتلاكها !... وقد تكررت التجربة فكانت الفضيحة الكبرى التي يسميها الدجالون (نكسة) في العدوان الأخير !...

تحمي الناس هـذه المحنـة !•• وفي أحد تلك الأيـام
أيضد كنت في الطريق الى قطنا •• فبلغني أن شجاراً عنيفا
حدث في معسكر المجاهدين هناك •• وفي العودة التقينـا
بعدد من هؤلاء ينتظرون سيارة للذهـاب الى دمشـق
فركبوا معنا •• وكانوا قرابة عشرة من الشبا ب الحلبيين،
علـى وجوههم سيما الرجولة والقتـال • فسألت أحدهم
عن خبر الشجار ، فاذا هو ينطلق بهـذا الحديث المحزن
كأنه كان في حاجة للافضاء به تنفيسا عـن صدره ، قال :
انظر •• واستخرج منِ داخل ثيابه مصحفا في كيس مـن
القماش معلق بعنقه •• ثم تابع : لقد كنا من أكبر أوباش
حلب ، فلما عرضت قضية فلسطين رأيناها فرصة صالحة
للتوبة فرجعنا الى الله ، وأقلعنا عن كل محرم •• فمضينا
لنجاهد في سبيله بائعين أنفسنا برضوانه •• وقد شهدنا
عددا من المعارك وأصيب منا من أصيب ، وأعدنا للاستجمام
في معسكر قطنا منذ أيام •• وهناك التقينا برفاق صادقي
النية من مختلف المدن ، وبين هؤلاء فتى حَموي هجـر
دروسه ليموت في سبيل ربه •• ولكن شاء القـدر أن
يبتليه برئيس أراد منـه السوء فلما أبى أخذ يوجه اليه
العذاب •• حتى كان اليوم ، وبينما نحن جميع المجاهدين
في عرض أمام مفتش جيش الانقاذ ، اذا هذا الرئيس يدنو
من هذا الحموي فيجتذبه من الصف ، ويلقي به أرضاً ،

ثم يأخذ برفسه دون ذنب !• ولم نستطع الصبر على هذا الظلم فخرجنا لانقــاذ الفتى فوقعت المعركة ! » واستمر الحلبي في كلامه معلقا على الحادث بما شاء مما لا يفوت أذهان القراء •• وكان حادث الأمس لا يزال طَريا لــم أنسه ، فلم أستطع الا أن أتساءل : أبمثل هؤلاء سنحتل تل أبيب ؟!•

هذان حادثان شهدت أحدهما مع عشرات غيري •• وروى لي ثانيهما شاهد عيان •• بل شهود عيان ، وقد وجدت فيهما من الدلالات مالا يجده أولئك المستغربون، الذين لا يقيمون وزنا لمثل هذه الأحداث الخلقية •وأغلب الظن أنهم لو قرؤوا هــذا الخبر لوجدوا فيــه ما يؤيد وجهة نظرهم ، ولزعموا أن مثل هؤلاء المنحرفين كــانوا أحوج شيء الى بعض الترفيــه الجنسي ، لينفسوا مــن ضغط الهيجان على أعصابهم المضطرمة !•

وكان يساعدني في نقل هذا الفصل الىمبيضتهصَديق كريم من قرية (رأس الأحمر) في لواء الجليل بفلسطين، فما إن انتهى الى هذه السطور حتى أرسل زفرة حــارة وهو يقول : لقد ذكرتني بجوانب أخــرى من مأساتنــا ما أطيق لها نسيانا •• وما أراك عرضت لها بشيء مــن الأمثلــة ••

وطفق يتحدث ، بل طفق قلبه يتحدث ..

قال : كان نصيب قريتنا أيام الكارثة حامية من (المجاهدين) بقيادة الضابط غ.ج .. وما إن حلت في مركزها المخصص حتى أخذت في اقامة المتاريس وحفر الخنادق ، متظاهرة بالاستعداد للقتال .. ثم جاءت الظروف الكاشفة فاذا معظم هؤلاء لا يحسنون استعمال السلاح، وانما يتقنون شيئا واحدا هو شرب الخمور وإتلاف الزروع . زروعنا نحن الذين جاؤوا لحمايتنا !..

كانوا يقتحمون علينا حقول الفاكهة وهي في طلائع انعقادها بعيدة من دور النضج، فيقصفون الأغصان المثقلة بالثمار ، ثم يقذفون بكل ذلك الى الأرض دون أن ينتفعوا بشيء منه . فاذا جادلناهم في ذلك صرخوا بنا : خونة !. وصارحنا كثير منهم بأنهم انما قدموا لجمع الغنائم من أي مكان دون استثناء !.

وذات يوم التحم فريق من مجاهدي المغاربه واليوغوسلافيين مع العدو والخونة في معركة غادرة مبيدة .. وكان ذلك في قرية (الجش) على ألفي متر فقط منا .. فلم تتحرك حاميتنا ساكنا ، بل فوجئنا في صباح اليوم التالي بخلو المراكز من كل أثر لذلك الضابط ومجاهديه الشجعان ، اللهم الا المؤن الكثيرة والذخائر

الوفيرة ، التي لم يستعملوا منها طلقة واحدة !.

وكان علينا أن نسحب وراء حماتنا الى لبنان، مخلفين بذلك كل شيء لننجو بأطفالنا وأعراضنا ، من مثل الفاجعة التي أنزلها اليهود باخواننا أبناء قرية الصفصافة القريبة ، اذ سلطوا رشاشاتهم على شبابها فحصدوهم جميعا ، ثم دفعوا دباباتهم فوق أشلائهم . ولا سيما أن صاحبنا وأبطاله لم يدعوا لنا قطعة سلاح لمقاومة ذلك العدو المسعور !.

وتابع صديقي الفلسطيني المنكوب : ولقد والله عرفت من هؤلاء (المجاهدين) أفرادا طالما خدعونا بادعاء الجهاد، ثم فوجئنا بهروبهم الى معسكر العدو ، ولم يعد أمر هؤلاء سرا مكتوما بعد أن رفضهم العدو ، وأعادهم من حيث أتوا ، شكا منه في نواياهم ، وقد قدموا في زمن رئاسة فوزي سلو الى محكمة عسكرية ، حققت في أمرهم، وتحققت من خيانتهم ، فكان نصيبهم أخيرا الاعدام ..(١)

---

(١) من هؤلاء خميس حسين العلو من منبج ، وعلي نجيب نسبر من سلمية ، ويوسف عساف من جبل النصيرية .. وقد ثبت ان الأول قد فر الى العدو خشية حكم الموت الذي كان ينتظره ، لأنه شهر المسدس على الطبيب الذي رفض مرافقته لعلاج رفيق له، فساقه لواجبه بالقوة... وقد اعيد في عملية تبادل الأسرى فحكم عليه بالموت .

ووجدت في حديث الصديـق الناقـل مـا يستحق أن يضاف الى هذا الفصل ، على كونه يسجل وجها آخر من عوامل الكارثة •• ليس هو عـن طبيعة موضوعنـا ببعيـد ••

وبديهي أن قضية (الأسلحة) التي حاربنا بهـا في فلسطين ، لا تقف عند هذه الأنواع من الفساد وحدها بل ثمة ضروب أخرى من الأسباب الخلقية ، تمثل في ذهن المفكر خلاصة أجيال من التفهتر النفسي ، تعاونت كلهـا على تنفيذ تلك الفواجع ، وهي لا تزال بحاجة الى دراسة موضوعية تنسفها في معادلة مفصلـة •• ويومئذ سيتاح لنا أن نعرف ان كارثة فلسطين لم تكن في الواقع سـوى عملية استكشاف ، أثبتت أن فوضى الأهداف ، وفقـدان الرسالة ، وانحلال الأخـلاق ، هي وحدها المسئولة عن تلك الهزيمة •• ومثل هذه العناصـر التخريبية الجذريـة لا تعالج بجر المرأة العربية الى ميادين الخطيئة !•

وراء الخطـوط

لا جرم أن سواد المجتمع في العالـم كله لا ينظـر الى المرأة الا من زاوية الثوب واللحم •• وهي عنـدما تدفع الى ميدان التجربة بغير تحفظ ولا إعداد سابـق ،

وقبل أن تنظف دروبها من القاذورات والالغام ، فستقع فريسة الذئاب •• وستخسر أول ما تخسر خصائصها الرفيعة ، التي امتازت بها كأنثى رشحتها العناية الآلهية لمهمة أسمى من العبث واللغو •

بيد أن هذا لا يعني أبدا أن تكون المرأة العربية بعيدة عن جو المعركة ، لا تعرف شيئا من جد الحياة ،ولا تتزود بما يعوزها من روح الكفاح •• بل لا أعني بهذا أنني راض عن وسطها المنزلي الراهن ، الذي لا نستطيع انكار ما يعتوره من الخلل ، بالنسبة الى أثره في حياة الأمة • فأنا أعلم أن معظم بيوتنا لا توفر للفتاة شيئا من الثقافة الاجتماعية التي تصلها بحياة البشر ، بل أعرف أن كثيرا من بناتنا المثقفات لم يستطعن احداث أي تصحيح في أوضاعنا العائلية ، فما إن أنهين دراستهن حتى غرقن في نفس الجو المريض ، فأصبحن كالسمكة التي تلقى في المستنقع ، فهي تتنسم من جوه ولكنها لا تفكر بمغادرته !•• ولو استمعنا الى معظم أحاديث النساء في اجتماعاتهن الخاصة لما وجدنا سوى فروق ضئيلة بين أكثرها علما وأوفرها جهلا •• فالحديث هناك لا يزال غالبا حديث الثوب والطعام والاغتياب لهذه وتلك ، وقلما يرتفع الى مستوى الكلام عن واقعنا الاجتماعي وعن أزماتنا الدينية، وعن تاريخنا الحافل ، وعن كوارثنا العامة في القديم

والحديث !•• ومثل هذا الجو ليس من شأنه أن يعد المرأة الصالحة للحياة ، بل من شأنه فقط أن يزيد عدد التافهات المستجبيات لكل ناعق ، المسلوبات كل أثر للشخصية • وأؤكد هنا على الشخصية مرة أخرى لاعتقادي أن أكبر البلاء الذي أحاط بالمرأة العربية والمسلمة انما جاءها من ضياع الشخصية ، فكانت بذلك نهبا لكل المؤثرات •• لا ثقة لها بمعرفتها ، ولا ثقة لها بذاتها ، ولا ثقة لها بدينها •• فهي تردد كل ما يقال وتتبنى كل ما تسمع •• وهي بذلك أسهل صيد لمغويات المديح والاطراء ، فما إن تسمع كلمة الاعجاب • أي اعجاب بالثوب •• بالحديث • بالجمال •• حتى تهتز طربا !• ولا شيء يؤذيها ككلمة حق تكشف لها سيئة في نفسها أو في ثوبها •• فتراها اذ ذاك كالأسد اقتحم عرينه ، مستسلمة الى غضب جامح لا يعرف حدا ولا يقدر أمرا ! وقد يكون شيء من ذلك في طبيعة كل أنثى ، وقديكون فيه بعض الخير اذا أحسن توجيهه ، ولكنه بالتأكيد شر لا يحتمل حين يتجاوز حدوده المعقولة ، فيجعل من المرأة كتلة من التفاعلات المتقلبة •• ومن هنا انبثق كل ما نشكوه من الخطر • اذ رأيناها بضعف الشخصية تتحول الى مخابر ، تتسع لكل ما يراد تجربته من ترهات المظاهر !• ولو استطعنا أن نوقظ في ضمير المرأة العربية

شعور الاعتزاز بنسبها ومواريثها الفاضلة ، ورسالتها الكريمة في مجتمعها العربي والانساني ، لقطعنا نصف الطريق الى أهدافنا الكبرى ، ولوجد تبعاً لذلك الجيلُ الذي تنتظره الدنيا ، لحمل رسالتنا الخالدة . ويومئذ طبعا لن يوجد في بيوتنا تلك المرأة (المانيكان) المستعدة لارتداء كل زي ، ولقبول كل طلاء .. اذ تكون المرأة العربية قد شبت عن الطوق ، وتحررت من الخضوع لأذواق الماجنين ، وأصبحت قادرة على اختيار السلوك الذي يتفق مع رسالتها ..

وطبيعي أن الأمة التي تفقد هذه العناصر الشخصية ؛ حتى ترتضي أن تسخر كيانها وبيتها لتمثيل التفاهات الوافدة من هنا وهناك ، والتي تنزع الى عبادة الذات ؛ حتى لتتخلى عن كل واجباتها الزوجية والبنوية ؛ لتفرغ الى ملذاتها وثرثراتها ، والتي تضؤل في نفسها حتى تخشى الصرصور ، وينخلع قلبها من منظر الفأر !..مثل هذه المرأة لا تصلح لتخريج الأبطال ، الذين يؤمنون بأن الواجب فوق الحياة ، ولكنها تصلح فقط أن تكون جهازا لتفريخ الشباب المائع الذي لا يرى الحياة أكثر من سيكارة وكاس !.

ان درهم الحق لا يوازيه وزن الأرض من الباطل..

وان البلاء عندما يجيء من الأخلاق لا ينفع فيه وجـود المرأة إلى جانب الرجل ، بل لا تزيده المرأة الا استفحالا. ولقد بات معروفا أن نهايـات المعارك لا تقررها القوى المتقاتلة في قلب الميدان ، وانما تأتي هذه النهايات مـن وراء خطوط النار .. من البيوت التي تصنع نفـوس المقاتلين وأنواع طاقاتهم ، فتتفاوت جودة ورداءة ، حتى ليكون منها القوي الممتاز بقوته ، والضعيف المميز بخوره، كنتاج المصانع تماما .. يشتهر احدها بالجودة الخارقة ، كما يشتهر الآخر بالرداءة الفائقة ! وقد علمت أن نابليون كان يرد انتصاراته الى سبب واحد هو الأم التي تسـد جيوشه سوارد الطاقات .

نمـاذج ونمـاذج

في عام ٩٢٠ كان هذا الساحل السوري يتفجر ثورة ضد الفرنسيين . وكنت اذ ذاك حدثا في الثالثة عشرة ، يشوقني ذكر القوة وأدواتها . وبينما أنا أحشو خراطيش مسدس لي لمحت رأس حية تمتد من ثقب في الغرفـة لتلتهم فأرا .. فجن أهلي وراحو يتدافعون بالمناكب .. وكانت هناك امرأة قروية من منطقة الثورة ، هي الوحيدة التي لم يلح عليها أي اضطراب . فلما تبينت الأمر أخذت مني المسدس وأفرغته في الحية .. ولم يجرؤ أهلي على

العودة حتى غادر جثمان الحية البيت !•

•• وفي عام ٩٤٨ ، وكانت حركة الجهاد في فلسطين على أشدها •• وقف بلة مـن شباب طرطوس أمـام دار الحكومة ، ينتظرون نقلهم الى قطنا ففلسطين •• وقـد تجمعت أمهاتهم وأخواتهم حولهم يبكين •

وفي هذه اللحظة مرت من هناك أم فتحي ، وهي امرأه من عكاء ، كانت نزيلة عندنا ، فلما سمعت إعوال النساء صاحت بهن: (يا حيف عليكن •• ليش تبكين؟• وين يروح أولادكن • للجهاد ، وهل أحلى من الجهاد للشباب !•)

وردت عليها احـدى النساء : (يظهر مالك ولـد بينهـم ؟) •

قالت أم فتحي: بل لي ولدان والحمـد لله في ساحـة الجهـاد !•

ولقد فكرت في الموقف الأول يـوم وقوعه ، فلـم يسعني صغر السن أن أدرك السر الذي يجعل حفنة من ثائري الجبل ، يثبتون بالبنـادق القديمة أمام جحافـل الفرنسيين ، المحصنين وراء أحدث الأسلحة •• انه يكمن في أمثال هذه الأم التي لم يخرجها مشهد الحية عن هدوئها، اذ كانت الانسان الوحيد الذي أحسن استعمال المسـدس

في الوقت المناسب •

أما في الموقف الثاني فقد انتظرت حتى عاد فتحي وأخوه عقيب الهدنة ، وحدثتهما عما كان من أمهما . فاذا هما يطرفانني بأعجب من ذلك ••

قال فتحي : كنا نرصد هجوم اليهود على عكا من مرتفع •• وليس في يدنا سوى اليسير من الذخيرة التي لن تصمد طويلا ؛ أمام مصفحات الغزاة وأسلحتهم الكثيرة• فاتصلت هاتفياً من مكمني بالمسئول عن العتاد فلم أجد أحدا، وبحثت في اكثر من مكان عمن ينجدنا بحاجتنا •• ولكن عبثا !• لقد كان كل واحد من السكان مشغولا بنفسه• واتصلت بالبيت أصف للوالدة هول الموقف ، وطلبت اليها أن تنقل ذلك الى المسئولين بأي الوسائل•• وانتظرنا •• وما هو الا وقت يسير حتى كانت صناديق الذخيرة مكدسة بين أيدينا !• لقد جاءت أمي ومعها أمهات وزوجات رفاقي ، يحملن هذه الصناديق على رؤوسهن•• ولقد رأيتها والله تتقدم نحوي منتصبة يمطرها رصاص العدو ، حتى وضعت حملها بين يدي وهي تقول :لا تخف يا فتحي •• ان رصاص اليهود لا يصيب أحدا الا بأذن الله ••

ولقد حطمنا يومئذ هجمة العدو وكبدناه أربعين

قتيلا ، لا تزال بعض هوياتهم الروسية في حوزتي ••وكان لأمي ورفيقاتها الفضل الأكبر في هذا الانتصار •

وهنا أدركت مرة أخرى أن استعادةفلسطين ستكون ميسورة ، يوم يكثر لدينا أمثال هؤلاء النسوة •• اللاتي لم ينزلن بالتأكيد الىميدان التجارب، التي يتعلم الكثيرات منها حرية الخطيئة •• ولكنهن نشأن في أحضان الدين ، الذي أوحى اليهن أن يلقنّ أبناءهن وأزواجهن : ان الدفاع عن الأعراض والأوطان جهاد يصير بصاحبه الى احدى الحسنيين : السيادة في الدنيا أو السعادة في الآخرة •

ولا بأس أن أطرفك ياقارئي بتتمة أخذتها لهذا الخبر بعد شهور طويلة عن زميل من عكاء• لقد سألته عن هذين الفتيين فتحي وأخيه ، ولم يكن يعلم قرابتي لهما ، فانطلق يذمهما في أسلوب مشحون بالاشمئزاز !• ولا أزال أذكر من قوله : ان فتحي هذا الجاهل الذي لا يحمل أية ثقافة ، قد أبى الا أن يفرض سلطانه علينا نحن المثقفين !• تصور انه اقتحم علينا مع عشرة من رفاقه، يحملون الرشاشات ، قاعة النادي ، ثم دفعونا أمامهم الى خارج عكا ، حيث فرضوا علينا العمل بحفر الخنادق !• هل هناك أشد وقاحة من هذا !•)

وسكت يومئذ مكتفيا بأن أخنق ضحكة باكية في

نفسي ، وذكرت الأمر لرجل من أشراف عكا فيما بعد ، فاذا هو ينتفض غضبا ثم يقول : فتحي !. تالله لقدرأيته في موقف لا يتصور له مثيل الا من مثله .. لقد أبصرته ينتصب بقامته العملاقة وراء برميل من الرمل ،لا يحجب الا نصفه ، وفي يده مدفع يطلق قذائفه على اليهود ، دون أن يبالي بمطر الرصاص ينهمر عليه من كل مكان !.

ولم أكن بحاجة الى البحث الطويل عن أي تعليل ، لما سمعت من تعليق هذا الرجل على كلام زميلي الفاضل، فانما ينظر كل منهما الى الرجل من زاويته الخاصة ، فالأستاذ الكريم يشمئز من ذكره لأنه لا يحمل شهادة ، ومع ذلك يريد أن يفرض سلطان الواجب على حملة الشهادات !.. أما الآخر فهو معجب بشجاعة فتحي واقدامه على التضحية . والذي يهمني من القصّة بوجه خاص هو تسليط النور على أثر الأمومة في حياة الولد .. ألا ترى الى المشهد الواحد يتكرر في موقف الأم وابنها !..موقف هذه تحمل صندوق الذخيرة الى ابنها في خندق القتال، وقد أحاط بها رصاص العدو .. ثم موقف الابن منتصب القامة يجابه بكل وجوده رصاص هذا العدو !. أليس كلا الموقفين هو التفسير الواضح لايمان الأم بأن رصاص اليهود لا يصيب الا بأذن الله !.

أما تلك العقول المصنوعة من الورق ، والتي تبعث

الاشمئزاز في نفس زميلي من عامية فتحي .. حتى لتنكر عليه كل حق في الحياة .. اذ تجعل الشهادة وحدها هي جواز المرور الى المجد ، دون أي وزن للواجب .. تلك العقلية مع الأسف هي المفهوم الغالب أو السائد ، الذي أنتجته نظم التربية الحديثة في بلادنا حتى اليوم .. فبحسب الفرد أن يحمل شهادة علمية حتى يكون له حق الثورة بكل معقول أو منقول ، وحتى يكون صاحب الحق المطلق في اختيار الطريق الذي يراه ، دون أي اعتبار لما يسميه المتأخرون واجبا أو فضيلة !. وليس هذا فقط بل له أن يقيم من نفسه إماما للجماهير يستفتونه فيفتيهم بكل شيء .. سواء كان هذا الشيء دينا أو فلسفة أو أخلاقا أو ما شئت !. والويل لمن يجرؤ — من المتأخرين — على اعتراضه أو انتقاده ... انه لا يستحق الا كل احتقار !.

ولعلك تذكر هنا قصة (الخنفشار) .. اذ حدث أن وجد في مكان ما رجل من أبناء هذه (العقلية الورقية) هتف بالناس يقول : (اسألوني ..) . ولم يجد من كرامة (الشهادة) أن يقول عن شيء لا أعلم .. هذه الكلمة التي يسميها الرجعيون (نصف العلم) !. واجتمع ذات يوم ستة أشخاص ألّفوا لفظة واحدة جعل كل منهم فيها حرفا ، فاذا هم أمام كلمة (خنفشار) وسألوا صاحبنا

عن تفسير لها ، فاذا هو يعطيهم الجواب دون تردد : انه ضرب من النبات يخرج في الهند ••) !

ومنذ ذلك اليوم عرف العالم فيما يظهر كلمة خنفشار •• ولكنه عرف كيف يكتشف على ضوء قصتها الطريفة أولئك الخنفشاريين ، الذين كثيرا ما يطلعون عليك من الشمال ومن اليمين !••

مناقشة في اللغة

والمضحك المبكي معا أن أصحاب هذه العقلية الخنفشاريه الورقية هم الذين يتولون اليوم أمر البحث في قضية المرأة •• وهم الذين يتولون صياغة الشعارات الاجتماعية التي تتفتق كل يوم عن فقاقيع لا نهاية لها ، وقد أسعفهم خلو الميدان من كبار الفرسان •• فراحوا يقاتلون في الجواء ويطعنون في الهواء :

واذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا

أما حجتهم في هذا التصرف فهي أنهم « المثقفون » وكفى •• وبصفتهم المثقفين حق لهم أن يصنعوا وحدهم مستقبل المرأة والأدب والأمة •• وأن يعقدوا المؤتمرات،

وينشئوا الروابط باسم الكتاب والشعراء وو •• فهم يوزعون ألقاب الفن والأدب على من يشاؤون ، ففلان من الكتاب العرب مثلا •• ولماذا وبأي شيء استحق هذا ؟•• لأن « المثقفين » خولوه هذا الحق •• وفلان من فحُول الشعراء •• لأنه توج بأكاليلهم!••

وقد يكون كل من هؤلاء ساخرا من نفسه ومن لقبه في أعماق نفسه ، ولو جئت تسألهم الدليل على ثقافتهم التي بها يتبجحون لقلبوا شفاههم هزوا ، ثم أحالوك على شهاداتهم الجامعية •• وقد نسوا أو جهلوا أن الثقافة شيء غير الشهادات •• وأن الرجل أو ــ الرجُلة ! ــ قد يحمل عشرات الشهادات ويبقى جاهلا •• ذلك لأن وراء بعض الشهادات ، من ضروب الجهالات ، ما نزه الله عن مثله رؤوس الجاهلين •• ولو هم قد فكروا جيدا في رزايا الانسانية ، منذ أن كتب التاريخ حتى اليوم، لأدركوا أنها من صنع هؤلاء الذين يتسمَّون بغير حق « مثقفين» •• واننا نحن العربَ لا نشكو اليوم امية الجاهلين قدر ما نشكو امية المتعلمين !••

ومن عبقرية لغتنا الحبيبة ما يلمسه المفكر في ألفاظها من براعة الاشتقاق ، الذي يقترن دائما بروح المدلول • فالثقافة في هذه اللغة انما جاءت من تثقيف العود فيقال :

رمح مثقف . وثقفت القناة .. وكلها بمعنى التقويم ؛اذ يكون الشيء على عوج ، فينقل بالتثقيف الى الاستقامة.. ثم تطورت المعاني من حدود المحسوسات المادية الى أفق المجردات العقلية ، فاتسع مدلول اللفظ حتى تناول ماتحدثه المعرفة من أثر في تقويم النفس ، ففي العصا كان تقويما حسيا ، وفي النفس أصبح تقويما معنويا .. وبهذا يسكن تحديد المثقف بأنه الانسان الذي هذّبه العلم وشذبته التجارب . فلا عوج في خلقه ، ولا نقص في فضائله .. وعلى ضوء هذا الاشتقاق تبصر مقدار الظلم الذي صبه التخليط على رأس الثقافة المسكينة .. اذ أصبح كل من يحمل وريقة مثقفا .. وكل من صاغ عبارة أو نظم بيتا في عداد المثقفين !. وبذلك اتسعت الشقة بين الأصل اللغوي والمفهوم الشائع !. ولكن هذا الافتئات على كرامة الثقافة لا يغير واقع اللغة ، التي ستظل نعتبر الانسان السوي الفاضل ذا الأخلاق الكريمة ، والفطرة الصحيحة ، والنفس المقوّمة بفعل التجارب ، هو صاحب الحق باسم المثقف .. لا من ركب رأسه ، واتبع هواه، وكان امره فرطا .. ولو كان يحمل وزن الجبال من الشهادات !. وقديما أكد القرآن هذه الحقيقة حين وصف علماء بني اسرائيل ، الذين لم يُغنهم علمهم بالتوراة عن التمرغ في وحول المعصية فقال : (مَثَلُ الذين حُمّلوا

التوراة ثم لم يحملوها كمثلِ الحمارِ يَحملُ أسفارا)
وحين مثّلَ للرجل الذي آتاه الله آياته فلم ينتفع بهـا ،
وآثر طريق الضلالة فقال : (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه
آياتنا فانسلخَ منها ، فأتبعَـه الشيطانُ ، فكان من
الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلدَ الى الأرضِ
واتبع هواه ، فمثلُه كمثل الكلب إنْ تحملْ عليه يلهث
أو تتركه يَلهثْ !•) — ٧/١٧٤ —

أجل والله ••• انه لمن المضحك المبكي أن توضع
قضية المرأة العربية نصف المجتمع في يد هـذه الفئـة ؛
التي تدعي الامارة في كل شيء •• حتى أوشكنا بفضلها
أن نضيع مقاييس الحق في كل شيء !•

الـزواج الجديد

•• ورب مخلص يرمينا بالتشاؤم ؛ لما يراه من نظرنا
الى واقع المرأة العربية في هذه الأوضاع التي فصلناها ••
والحق أن لا تشاؤم ولا قنوط ، وانما هي اشارة تحذير
يرسلها شرطي المرور لمنع الاصطدام • والشيء الذي لا
يجهله أحد أن هذه السموم التي تنفثها الأفواه السامة ،
في صدور بناتنا وأبنائنا ؛ قـد بلغت المَحزّ في إضعاف
مناعة الجيل كله •• ولعل من أبرز الآثار لمحصول هـذه

السموم ما نحسه من جمود في حركة الزواج ، حتى أصبحت العزوبة الملوثة هي الأصل بالنسبة الى معظم الشباب !• ثم اضطراب الاقيسة الاجتماعية في طريقة اختيار القرينة ، عندما تنشأفي هذا الشباب أي رغبة في الحياة الزوجية !••

تأمل اذا شئت هذا المشهد الذي أنقله اليك من كتابي « كلمات في الحياة » (١) •

قال الأب لولده : أي بني •• لقد جاهدت وكافحت وضيقت على نفسي ما علمت ، وما لم تعلم ، حتى أوفر لك التربية والتعليم •• ولقد أتم الله نعمته علينا ، فحقق لنا ما كنا نأمل ، وها أنت ذا تحمل شهادتك الجامعية ، وتحتل منصبك الذي يدر عليك مرتباً حسنا ، فلم يبق من أماني إلا شيء واحد أرجو أن نتفق عليه ، وما أنت بجاهل ما أريد •• انني أرغب في أن أزوجك ••

ــ ولكن ما شأنك في هذا الأمر !• ان من حقي وحدي أن أبحث عن رفيقتي ، ولن أسمح لكم بالتدخل في هذا الموضوع •••

---

(١) هذا الكتاب لا يزال مشروعا في حيز التأليف .

قال الأب : مهلا •• هـل نسيت أن المرأة التـي ستختارها ستكون عضوا في أسرتنـا •• وسيكون منهـا نسلك الذي ينتسب الى هذه الأسرة •• فكيف تنكر علينا حق ابداء الرأي في اختيار هذه المرأة !•

ـ حسنا • لقد تزوجت أنت•• فهل أخذت رأيي في اختيار أمي •؟ •لا •• لا • ان هذا عدوان على حريتـي الشخصية • ومحال أن أسمح لأحد بذلك ••

ونهض الابن غاضبا من هذه الوقاحة •• التي تدفع اباه للتدخل في اخص شؤونه !! وما هي الا ايام حتـى استقر رأيه على الفتاة التي يريد •• ولكن اهلها رفضوا ان يزوجوه الا ان يحضر أبوه الخطبة والعقد ، حفاظا على كرامة العروس واهلها • وجاء الابن الى اهله ••

قال الابن : ارجو ان تذهب مع فلان وفلان وتخطب لي فلانـة •••

قال الاب ـ امر تفرضه ام رجاء ترفعه ؟•

ـ سمه ما شئت •• ان المجتمع المنحط لا يرضى ان يزوج الرجل الا بموافقة ابيه •• ولذلـك جئت اطلـب منك هـذا ••

ــ ولكن هذا تدخل في حريتي الشخصية ايضا ..
فما بالك تنسى انني انسان مثلك ؛ لــه ارادته وحريتــه
في ان يرفض او يجيب !.

ــ لعلك تريد التعرض لشأن الفتاة !. هذا أمر قــد
انتهى ... وقد وقــع اختياري عليها ، وكــل بحث في
موضوعها اعتبره غير مشروع .

ــ لا شأن لي بالفتاة .. انما يكون لنا حق البحث
في موضوعها بمقدار ما يكون عليك لاسرتك مــن حق ..
وهذا شأن قد أعلنت الكفر به ؛ فلا سبيل لاكراهك على
العودة اليــه .

ــ فماذا تريد اذن .

ــ اريد ... انك تحررت من حقوقنا عليك .. في
حين عبّدت نفســك لأهواء رفاقك ممن لا يقيم وزنا
لهذه الحقوق ، ولم يكن اختيارك في الحقيقــة الا تنفيــذا
لآرائهم ؛ فهم احق ان يكونوا وسطاءك الى ما تريد .

ــ هذه اهانة !. لقد كنت حراً في اختياري . ولــم
يفرض احد عليّ شيئا .. ومع ذلك فانا لا احب الخوض
في هذا الامر .

ـ اسألك بالله لا تزد في شقائي •• وقل لي انك ستحضر خطبتي مساء اليوم •

ـ لا بأس، سأفعل ••

••• وتمت خطبة الابن المتحرر •• ثم كانت خطبته تلك مبدأ حياة جديدة ، هدم بها كل ماكان قائما بينه وبين ابويه واهله من روابط الأخلاق والآداب والاعراف ، ووقف الاب ذات يوم يستعرض مأساته مع هذا الابن « الحر » ثم يسأل نفسه في حيرة بالغة : ليت شعري•• الم يكن خيرا لي ولة لو انني اكتفيت له من الحياة بمهنة متواضعة •• بدلا من هذه الشهادة الجامعية الخادعة !••

هذا مشهد كثيرا ما يتكرر بين الأبناء والآباء في مثل هذه المناسبة التي تثيرها رغبة في الزواج •• وبخاصة عندما يكون الابن من الطراز المتحرر او المتحلل •• وطبيعي ان هذه ايضا احدى مشاكلنا الاجتماعية الجديدة التي ماكنا لنعرفها قبل هذا الجيل •• يوم كان الغرض الرئيسي من الزواج هو امتداد وجود الاسرة في مستقبل الحياة ، ثم تحصين الخلق الشخصي من نزوات الشيطان ، ثم تطهير المجتمع بعد ذلك من لوثات المفاسد •

فأنت ترى ان الفتى لا ينظر في قضية الزواج الا من

زاوية الحق الشخصي ، فلا يسمح حتى لابويه بأن يبديا أي رأي في هذا الموضوع .. كأن الامر لا يهم أسرته . وكأن المرأة التي سيتزوجها لن تكون عضوا جديداً فيهذه الاسرة ، فله الحق أن يأتي بها من حيث يشاء ، وهو يسمي ذلك تحررا !...

ولقد مضى الفتى على طريق هذه « الحرية » يبحث عن شطره الثاني .. وظن انه يملك الوعي الكافي لحسن الاختيار ، فاذا هو يسقط في أول الطريق .. ذلكأن عطش الجنس أعمى بصيرته ، فلم يستطع التماسك أمام النظرة الاولى ، فأطبق عليه الفخ ، وهو يحسب نفسه منتصراً .. ثم لم تلبث الثورة ان سكتت شيئا فشيئاً ، فاذا هو تلقاء المأساة ، وإذا هو يرى أنه لم يختر رفيقه ، وإنما اختار أفعى !...

هذا الفتى وكثير أمثاله ، قد تعلموا كثيرا منالكتب، ولكنهم لم يقرؤا هذه الحقيقة الكبيرة ، وهي : أن الاسرة حين كانت تختار لولدها زوجته ، انما كانت تقدم على ذلك وهي خالية النفس من مشاغل الجنس ، فتفتش على بصيرة ، وتنقب على هدى ، وتزن كل شيء بقسطاس الواجب والأفضل ، فلا تخدع ولا تضلل .. وبذلك كان النجاح هو القاعدة الرئيسية في معظم حالات الزواج

« الرجعية » بينما الأخفاق هو القاعدة الرئيسية في معظم حالات الزواج « التقدمية » ..

على أن ذروة المأساة في هذا الزواج الجديد هي اجهازه على بقية الروابط بين الابن وأسرته ، وذلك بقضائه على أواصرها التي تعتبرها كيانا مقدسا ، ويعتبرها هو شيئا تافها .. وهكذا انسلخ الحاضر عن الماضي انسلاخا تاما ، على الطريقة نفسها التي يعيشها شعب قطع عن ماضيه، اذ قامت حياته كلها على أسس لا صلة لها بأية فكرة سابقة !.

مقاييسهم ومقاييسنا

ولا بد في اختيار رفيق العمر من مقاييس أيا كانت.. وهي كأي مبدأ أخلاقي ، تنبع من مصدر القيَم التي تدين بها الأمة ، وهي في العادة مقاييس بطيئة التغير ، تستمد قوتها من ثباتها ، وكل تطور يعتريها يجب أن يكون خاضعا لمفهوم القيم الأصيل ...

وتتفاوت هذه القيم طبعا بين أمة وأمة ، وبين فلسفة وفلسفة .. حتى نراها كما في الغرب لا تشترط في الزوجة الا أن تكون ذات أقيسة معينة في الطول والشكل والشعر

واللون والجاذبية ••• ونقول (معينة) بمعنى أنها مرضية بالنسبة الى ذوق الوسط الذي يعيش فيه طالب الزواج•• مضافا الى ذلك قبل كل شيء ، دَخْل مناسب للزوجة يساعدها على الاسهام في أعباء المنزل •• ثم (بائنة) ـ دوطة ـ يجب أن تتوفر للفتاة من أي سبيل ، لتجعلها مهرا مقدما الى صاحبها !• فاذا تمت هذه الشروط لم يتم الزواج الا بعد تجربة جنسية طويلة ، قد تمتد الى سنوات، تتيح لكل منهما أن « يدرس » أخلاق الآخر وطريقته ، ثم على ضوء هذه التجربة يتقرر البت في الموضوع سلبا أو ايجابا •• ولا قيمة وراء ذلك لأي شيء آخر مما يسميه المتأخرون عادة شرفاً أو أصلا أو فضيلة ، حتى البكارة لا وزن لها في بيئة تعتبر أن الخطيئة هي الحق المدني المشروع لكل انسان !••

هذه شروط الزوجة في مقاييس الغرب •••

أما اذا شئت التعرف الى شروط أمتك في الزوجة والزواج ، فستجد بعض العسر بعد أن اختفى أكثر هذه الموازين من حياة الناس ••

في معركة القادسية وقفت الخنساء تحرض بنيها الأربعة على القتال ، وتحببهم بالشهادة ، فجعلت تذكرهم بشرف بيتهم وأمانة والدتهم ، وسمو رسالتهم ، لتبعث في نفوسهم

الرغبة في الحصول على نهاية عظيمة تتفق مع بدايتهم الكريمة .. ومن خلال هذه الوصية تتبين أهم مزايا المرأة المثالية في موازيننا العريقة ، حيث تكون مثال الأمانة على عرضها وشرف بيتها وسمو نظرتها الى الحياة .. ثم صورة أخرى للمرأة غير المرغوبة في ميزان هذه المقاييس ، ترسمها بلاغة امرأة جاهلية في هذه الكلمات الرائعة : (أبغض كل سلفع ـ صاخبة ـ بذية ، جاهلة غبية . حريصة ـ بخيلة ـ دنية . غير كريمة ولا سرية ـ شريفة ـ ولا ستيرة ولا حيية . صاحبها خليق ألا تصلح له حال ، ولا ينعم له بال . ولا يثمر له مال) .

والبون شاسع طبعا بين هذه الصفات العربية وبين تلك الشروط الأجنبية ، وهي تمثل الفرق بين العقليتين لا بين العصرين .. عقلية ترى المرأة شهوة وتجارة ، وأخرى تراها أنثى ومدرسة وشريكة حياة . فلا غرو أن تتفاوت النتائج باختلاف المقدمات .. ولا عجب اذا رأيت العربي يُعنى بمنبت المرأة التي يبحث عنها كما يعنى بأصول فرسه .. لأنه يريد منها خصائص كرمها ، اذ ينجو عليها من التلف ، ويقتحم بها ساحات الشرف ، ثم تأتيه بالنسل المحتفظ بهذه الشمائل . وماذا يبغي من الزوجة أكثر من مودة يبل بها جفاف الحياة ، ونسل يحفظ له ذكره طيبا بعد الممات !..

ويشرق الاسلام بآدابه التالدة وتعاليمه الخالدة ..

فيقر كل خير في أخلاق العرب الأصيلة ، وانما يغسلها فقط مما علق بها خلال القرون من الأوضار الدخيلة ثم يكمل هذه الفضائل بما أفرغ عليها من روح السماء تحقيقا لمبدئه القائل على لسان رسوله : بعثت لأتمم حسن الأخلاق (١) •وبذلك يثبت مقاييس العروبةرافعا اياها الى قمة القداسة ، لتصبح أنموذج الفضيلة في الدنيا •

وكانمنذلك ان اتسعت نظرة العروبة في شأنالمرأة، حتى تجاوزت حدود الأرض الى تلك الأهداف العليا التي جدد الاسلام بها حقيقة الانسان • فاذا نحن أمام هذه المقاييس: لا تَزوِجوا النساء لحسنهن ، فعسىحسنُهن أن يُرديهن ، ولا تزَوجوهن لأموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين •• ولأمة خرماءُ سوداءُ ذاتُ دين أفضل (٢) •

---

(١) لمالك في الموطأ (٢) عن ابن عمر مرفوعا ــ جمع الفوائد رقم ٤٠٨٨ ــ ويقويه ما رواه الطبراني في الاوسط عنه صلى الله عليهوسلم (من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلا، ومن تزوجها لمالها لميزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها الا أن يغض بصره ، ويحصن فرجه ، او يصل رحمه بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه .) الترغيب والترهيب رقم (٢٨١٧) .

وبهذه العبارة الموجزة من جوامع الكلم النبوي ، يضع رسول الله بين يديك أسس الحياة الزوجية الفضلى، لا تكاد تغفل شاردة ولا واردة من خطوط الشر يحذر منها، وعناصر الخير يرغب فيها . وبقليل من التدبر الحكيم

لهذه الحقائق تدرك أنك تلقاء الكلمة النهائية في موضوع المرأة .. المرأة التي يجب أن تتجنبها .. والمرأة التي يجب أن تتطلبها . وهو اذ يريك المقاييس الفاسدة ،لايكتفي حتى يريك نتائجها المعقولة الملازمة .. فالحسن ، وهو مطلب أساسي لدى شباب اليوم ، كثيرا ما يجر وراءه هلاك المرأة ، وبالتالي هلاك بيتها جميعا ، اذ يلهب في نفسها نزعة الغرور ، فاذا هي تتعرض بهذا الحسن لكل ناظر ، رغبة في الحصول على صيغ الاطراء ! . ولقد أذكر أني كنت أتحدث عن هذا الموضوع في مجلس من الشباب المتعلمين، وكان على مقربة منا امرأة مع زوجها يبدو أنها كانت تتبع الحديث .. فلما فرغنا تكلمت معلقة ، وكان مما قالته بالحرف : ومع ذلك فان لجمال المرأة سلطانا لا يرضى منها الا أن تصطاد به القلوب ! »

وأعرف امرأة تزوجت حديثا ، وكانت أمها قد ملأت الآذان بالكلام عن جمالها .. وفي احدى المناسبات أخذت هذه العروس تتحدث عن نفسها ، وتصف الشباب

الذين يتابعونها في الطريــق •• والعيــون التي تتعقبهــا في كل سبيل •• والآهاتالتي تنطلق من الحناجر ،كلما وقعت عليها النواظر !••• وكان ذلك طبعا بمسمع زوجها الكريم أيضا ، كحديث تلك المرأة الأخرى •• وما أحسب واحدا من الرجلين الا كان سعيدا بما يسمع من كلام عــن جمال امرأته • دون أن يفكر بما وراء ذلك من كوامــن الأخطار ، التي تخبئها الأقدار !••

ولا حاجــة للقول ان المــرأة التي تـُعَوّد نفسهــا الاستماع الى إطراء الرجال الأجانب لحسنها ، لا تلبثأن تستذل لهذه العادة ، حتى تصبح فيها كمدمن المخدرات • يحس تهديمها لحياته ، ولكنه لا يطيق لها ردا ولا منهــا تحــررا ••

ثم لا تلبث أن تطلب هذا الاطراء بكل ثمن ، حتــى ينتهي بها الى عبـــادة الذات •• ثــم التمرغ في بؤر الشهوات (١) ورحم الله أمير الشعراء اذ قال :

---

(٢) في العدد ٧٨٣ ت نوفمبر ٩٥٩ من جريــدة اخبار اليوم مقال طريف بقلم (ليلى صالح) يعرض في تفصيل رائع مأساة طبيب امتحنه القدر بالزواج مــن امرأة جميلة ، فاذا هي تحيل حيــاته جحيما لا ينطفىء الا في محكمــة الزيتون !. في هــذه المقالة تقــرأ قول الزوج المنكوب ــ ←

خـدعوها بقولهـم حسنـاء
والغواني يغـرهن الثنـاء

أما مال المرأة حين يكون أحد المرغبات فيها ، فمـا أشد خطره على الحياة الزوجية !.. انه يقتل في المـرأة شعور التبعية ، ليقيم مكانه شعور التعالي على الزوج ، فهي لن تكتفي اذ ذاك بحقوقها كزوجة ، ولكنها تريـد حقوق المتفضل ، الذي يشعر أنه ينهض بأعباء البيت.. فله أن يفعل بـه ما يشاء ، ولو أدى ذلك بها وبالبيت الـى الشقـاء !.

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يجعل الحسن والمال من موجبات الامتناع عن الزواج.. بل ينهي أن يكونا الغرض المستهدف من ورائه .. ثم يحدد المثل الأعلى لصلاحيـة

« انها اذلتني بجمالها منـذ اللحظة الأولى .. اصبحت احسـد كـل رجل زوجته دميمـة !. » وتقرأ اعترافات الزوجة وهي تقول للمحقق : « إني في ضيق من الحمل.. اريـد اجهاض نفسي .. لا يمكـن أن اتـرك جمالـي لـ (مرمطة) الحمل والوضع ! » واذا سألها زوجهـا **المسكين : لماذا تقضي معظم** اوقاتها في الشارع ؟ اجابت في كبرياء : (جمالي .. مش ممكن الجمال ده يقعد في بيت مقفول .. الوردة اذا لـم تتنفس في هواء طليـق ذبلت !) وان في ذلك لذكرى لمن كـان له قلب او القى السمع وهو شهيد ...

وجة في أن تكون ذات دين . ومثل هذه الصفة قد تكون
وضع استغراب لدى الكثيرين في يومنا هذا !.. ولكنها
على كل حال شرط لا بد منه في الزوجة التي يراد أن تكون
صالحة لا سابحة .. واذا تذكرنا مفهوم الدين في شريعة
الأنبياء ، وأنه جماع الفضائل النابعة من الواجب والحق
والخير ، أيقنا أنه الكلمة الجامعة لكل شروط السعادة
الزوجية .. وقد جاء الرسول أخيرا بمثل الخرقاء السوداء
ذات الدين ليؤكد سقوط الشروط المادية في اختيار
الزوجة .. فقد تفقد المرأة بعض الحسن حتى لا ترضي
مقاييس الأذواق الجنسية .. وقد تفرغ يدها من كل أثر
للمال ، ومع ذلك تكون الزوجة الصالحة والام الخيرة ..
وما أحسب السعداء من الازواج قد نالوا سعادتهم بجمال
نسائهم أو بكثرة أموالهن ومرتباتهن .. وفي كل مكان بقية
من هؤلاء السعداء فلنسألهم ..

حقيقة الجمال

هذا الى أن الجمال في حقيقته أمر نسبي لا تجمع عليه
الاعتبارات البشرية ، ولو حدث أن عيّنت للجمال حدود
وأشكال ، لاستحال على الناس أن يروا جمالا قط في
أي مرأة ، الا القليل الذي توافرت فيه الحدود المقررة ..
بل لا نغالي اذا استبعدنا وجود امرأتين من هذا الطراز في
كل النساء في كل العصور . اذ هناك حقيقة معروفة ،

وهي أن من معجزات الالوهية الا ترى بين مليارين من البشر انسانين على حد واحد من الصفات الجسدية والنفسية !• وأوفر الناس شبهاً في الصفات التوائم ، فقد يختلط علينا التوأم بأخيه حتى فلا نفرق بينهما ، ولكن لو وكلنا الأمر لوالديهما لامكنهما التفريق بينهما في يسر •• وما ذلك الا لوجود مفارقات فاتتنا نحن لقلة ممارسة النظر اليهما ، وبرزت لأعين الابوين لكثرة ملاحظتهما إياهما ، وانك لترى القطيع من الانعام فلا تكاد تفرق بين شاة وشاة فيه •• فاذا جاء الراعي أتاك بما تحب منه !• ومن هنا نعلم أن لا سبيل الى الاتفاق على مقاييس الجمال في المرأة الا أن تكون في صور تقريبية •• وقديما قال المثل :حبيبك تحبه ولو كان عبداً مشوها ، وهي لا تزال حقيقة ملموسة لدى الناس جميعا ••• مما يؤكد أن حقيقة الجمال لا تعدو كونها موضوعا شعوريا ، يختلف بين فرد وفرد •• فلايمكن حصرها في لون أو شكل إلا على أساس من النسبية التي تفرضها البيئة •• وهي نسبية لا ثبات لها في ذاتها • ولا أنسَ قول (أحدهم) ذات يوم لي : مساكين المسلمون !• انهم كثيراً ما يُغشون ، اذ يتزوجون بغير تجربة شافية ولا معاشرة كافية ، فاذا انتبه أحدهم من الخيال وجد زوجته خالية من كل جمال !•• وكان السامعون يعلمون أن لصاحبنا هذا زوجة لو وزعت شناعاتها على جمهور من النساء لغرقن في ألوان البلاء !•• فلم يزدني قوله ذاك

الا ايمانا بالحكمة الشعبية الآنفة •• اذ قد يكون في زوجته هذه من ألوان السحر ماليس يبدو لكل عين !•
وما أدري أين قرأت هذه الطُرفة ذات يوم ، وهي أن قرويا طلق امرأته فأخذ الناس يلومونه ويسألونه عن السبب ، فلا يذكر علة الا ردوها عليه •• وأخيرا أشار الى حذائه قائلا: كيف ترون هذا ؟•• فأجمعوا على أنه جيد ومقبول•• فقال القروي : ومع ذلك فأنتم لا تعرفون المكان الذي يؤلمني منه !••

ومهما يكن من شيء فان الاسلام لم يؤثر الشرط الخلقي في المرأة الا تحقيقاً لمبادئه ، التي ترفع الانسان الى مكانه الكريم ، وهي مبادىء لا تُغفل الجسد ولا المال ، ولكنها تأبى أن تجعلهما كل شيء في موازين الزوجية • وفي الكلام المأثور « اياكم وخضراء الدمن » ويريد المرأة التي ملكت الجمال الجسدي وفقدت جمال الروح ••

أما مقاييس العروبة الأصيلة في الزوج المفضل فهي منبثقة من المعنى نفسه ، الذي رأيته في نظرها الى الزوجة المفضلة • انه « الحر النجيب • السري القريب • السمح الحسيب • الفطن الأريب • المصقع الخطيب • الشجاع المَهيب •• »

وهي صفات ما أظن اختلاف العصور غض من شأنها

•• ولا عيب فيها اذا اكتفت بتصوير المثل الأعلى في الرجل المرغوب لدى المرأة العربية ، فقد قيلت هذه الكلمات أيام كان كل عربي يكافح ليكون هذا المثل الأعلى •

ويأتي الاسلام فيضيف الى هذه الخلال الرائعة مثله الخالدة ، التي تجعل الاسلام ــ بعد هذه الفضائل ــ أساس الكفاءة للظفر بتلك المرأة الممتازة • لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : اذا خَطبَ اليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه •• إلاّ تفعلوا تكنْ فتنة في الأرض وفساد عريض ••(١) فليس في مقاييسه مثلا أن يكون الرجل غنيا أو جميلا أو رقاصا !•

اهداف الزوجية

والاسلام انما يحقق أهدافه كنظام شامل كامل ، عندما يقرر فضائل العروبة في تقويم الحياة الزوجية ، ذلك لأنه يعتبر غاية الزواج تطهير المجتمع من دوافع الانحراف ثم انجاب النسل الذي يحمل أمانة الله ، كما أسلفنا ، ولذلك تسمع النبي العربي يهتف بالمؤمنين : « تزوجوا الودود الولود •••(٢) • » وترى القرآن يوجههم الى نشدان هذه الغاية في اختيار الزوجة ، ثم في تأديبها حتى ليعلمهم كيف

---

(١) رواه الترمذي . انظر جمع الفوائد رقم /٤١٣٦/

(٢) من حديث شريف رواه الترمذي ــ انظر جمع الفوائد ٤٠٨٣

يتوجهون الى ربهم بطلب الذرية الصالحة ، اذ يعرض عليهم النموذج الذي يحبه من عباده : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما .) وفي كلمة (أزواجنا) تعبير قرآني فيه معنى الشمول ، لأن مفرده (زوج) وهو لفظ يطلق على الذكر والأنثى من الزوجين ، ففي اختيار القرآن له دون كلمة (الزوجات) ما يشير الى أن هذه أمنية المؤمنين والمؤمنات أزواجا زوجات .

ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كيف نبدأ أولى اللحظات في حياتنا الزوجية اذ يقول : « اذا تزوج أحدكم امرأة .. فليأخذ بناصيتها .. وليسم الله عز وجل .. وليدع بالبركة .. وليقل : اللهم اني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه (١) » . وهذا يعني أن نضع حجر الأساس في معهدنا الزوجي على صخرة التقوى ، لنبدأ حياة جديدة بأهداف الاسلام الكبيرة .

وهو يعلمنا كذلك أن نبتغي بتماسنا الولد الصالح الذي يكون امتداداً لسلسلة البطولات القاهرة للشيطان ، حتى ليلقننا الدعاء الذي نقرؤه هناك : باسم الله . اللهم

---

(١) المشكاة رقم ٢٤٤٦

جَنّبْنا الشيطانَ ، وجنّبِ الشيطانَ ما رزقتنا (١) •

ومثل هذا التوجيه العالي من شأنه أن يضع في خَلدِ المؤمن دائما مخطّطاً واضحا للطريق ، الذي يجب أن يلتزمه في حياته العائلية كزوج ثم كأب •• ومن هذا نعلم لماذا عُنيَ الاسلام بخصائص الزوجين كمسئولين عن هذه المهمة • وظاهر أن المؤمن حين يطمئن الى هذه الموازين لا يرضى عنها بديلا • ولَشدّ ما أضحكني صديق جاءني مستعينا للبحث عن زوجة دينة صالحة ، ولكنه يشترط فيها صفات ثلاثا : أن يكون طولها كذا سم ، وأن تكون بيضاء البشر •• ذهبية الشعر ! ولقد كاد يخيل إليّ أول الأمر أنه يوصيني على عمود من الفُسيفساء ، نكلف بصنعه أحد معامل الخرسانة ! • وعبثا حاولت إفهام هذا الصديق أن صلاح الزوجة شيء لا علاقة له بهذه الشروط الحجرية ، وانما يقتضي فقط الحصول على امرأة ذات كفاية لرعاية الزوج •• وادارة البيت •• وتعهد الطفل • وقد ذكرت أن الاسلام لا يعارض الرغبة في الحسن أو المال ، غير أنه يريد أن يضعهما في مكانهما الطبيعي ، فلا يحيفا على فضائل النفوس • ولذلك رأينا رسول الله ينصح المغيرة ابن شعبة أن ينظر الى من يريد خطبتها • وقد علل ذلك

---

(١) الشيخين ـ انظر جمع الفوائد رقم ٤١١٥

بقوله (فأنه أحرى أن يؤدم بينكما ••) (١) والمعروف أن الاسلام لا يجيز للرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية الى غير الوجه والكفين ـ عند أمن الفتنة ـ الا أنه استثنى ظروف الخطبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل (٢)

ولكن هذا لا يعني كذلك أن الاسلام يعتبر نظر الرجل الى المرأة هو المقياس الرئيسي لصحة الاختيار •• وقد قدمنا أن الشاب حينما ينظر الى المرأة رغبة في التزوج ، انما ينظر اليها بغريزته أكثر مما ينظر بعقله ، ولذلك قلما يحسن التقدير أمام اغواء الأنوثة ، فيسقط وهو يظن أنه ارتفع ، وانما يستهدف الاسلام من هذه الاباحة الموقتة ارضاء طبيعة الانسان ، التي تحب أن تشعر أنها غير مكرهة على عمل ما ، وفي ذلك تكريم لانسانيته يجعل من حقه أن لا يقبل قرينا الا بعد الموافقة الحرة ••

هبوط

ولا حاجة الى القول بأنه في مثل هذا المجتمع، الذي تسيطر عليه مقاييس الفضيلة الواعية ، لا مكان للرجل المائع ، ولا للمرأة الهابطة ، ولا مطمع لأحدهما باحترام

---

(١) مشكاة ٣١٠٧ (٢) ابو داود واحمد ـ مشكاة ٣١٠٦

الناس ، فهما إما أن يستقيما علــى الطريقة ، أو يتواريا عن الأبصار ، وبذلك تخلو السوق من الحلي الزائفة ،ولا يوجد من يفكر بالتمرد على مثالية المجتمع ، ليبحث عــن المرأة التافهة •• ولو غرقت في أكداس الذهب ، وطلت جسدها بكل الأصباغ ، وخرجت من جلدها ••• لأنــك يومئذ لن تجد مثل هذه المرأة ، واذا وجدتفهي لا تعدو أن تكون مجنونة سرعان ما تنتهي الى مقرها من مشــافي الامراض العقلية ، أو مجرمة لا تلبثأن تساق الىمكانها في السجون • وهيهات لامرأة شريفة أن تكسد في مثــل هــذه السوق النظيفة ، لأنها غايــة الراغبين، وهــدف الطالبين ، فهم يفتشون عن خيالها، ويحلمون بجلالها ، فمن ظفر بها أحاطها بجناحيه ، وجعل منزلها مؤقعينيه••

ولكن هذا لا يعدو اليوم كونه حلما جميلا يكذبــه واقع المجتمع ، الذي يزحف الى الهاوية ، بما اعتراه مــن زلازل قلبت مفاهيمه ، فاذا المرأة المرغوبة لديه هي التــي برعت في الاستهتار بكل القيم النبيلة ، وأسلمت قيــادها الى شياطين الرذيلة ، واذا البقية الباقيــة من الفتيــات الشريفات فيزوايا النسيان، لا يكاد يخطر لهن ذكر فيخلد انسان !• حتى الرجال الذين لا يزالون مظنة الفضيلة قد أخذوا ببريق (المجوهرات الكاذبة) فآثروا البحث عــن

حظهم في المستنقعات ، يعللون أنفسهم بخادع الأمنيات ، اذ يظنون إصلاح الفاسد من الممكنات.. وهكذا انتهت الفاضلات الى الكساد !. وكنتيجة لا بد منها لهذا الانقلاب الخلقي اكتسحت المجتمع العربي والاسلامي روح من التزييف الخطر ، ضاعت في مضطربها مقاييس الجمال الصحيح ، فاذا أنت تلقاء أشكال من الزينة الوقحة بلغت حد الأضحاك .. بعضها في الوجوه .. وبعضها في الأظافر وبعضها في الشعر . حتى بات متعذراً عليك أن تحسن التفريق بين الصحيح والكاذب !.. ولعل أحسن ما يوصف به هذا العبث أنه صورة من الغش الاجتماعي السائد في كل شيء .. هدفه تحطيم البقية الباقية من القيم الثابتة .

ولقد كان الغرض الرئيسي من زينة المرأة في القديم، استيفاء وسائل الرفاهية للبيت الزوجي ، إذْ تُدرك المرأة أنها صانعة السعادة لزوجها ، فهي تؤثر أن لا يراها الا في المنظر المحبب اليه ، كما يفعل هو اذ يتخذ من المظاهر ما يكون أحب الى عقيلته . وهذا عبدالله بن العباس يقول فيما أثر عنه : (اني أحب أن أزّينَ للمرأة كما أحب أن تتزّين لي ..) (١) ولكن هذا الضرب من التزين ماكان

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٥٣ في تفسير قوله تعالى : (ولهن مثل الذي عليهن).

ليتجاوز في المجتمع العربي الأصيل حدود القيم العربية نفسها .. فزينة المرأة عندهم هي النظافة في الدرجة الاولى ..لذلك راج بينهم مثل هذا المثل (أطيب الطيب الماء)وقلما تصل الزينة الى حدود التبرج ، الذي يجعل جمال المرأة نهباً لأعين الذئاب .. وقد أكد الاسلام هذه المعاني السامية ، اذ عَفَّى على آثار التبرج الدخيل ، مما كان معروفا في الجاهلية الأولى ، وذلك في مثل قوله تعالى :

(ولا يَضْرِبْنَ بأرجلهنَّ ليُعلَم ما يُخفينَ من زينتهن ٢٤/٣١) (ولا تبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى ٣٣/٣٣) ..

ولكن المدنية الغربية ، التي انحدرت بآداب البيت الى فوضى الشارع ، كان لا مندوحة لها من أن تحطم هذه المعاني الرفيعة لزينة المرأة ، فجعلت الغرض من الزينة إثارة التفاعل الجنسي في كل مكان . وبذلك أصبحت صناعة التبرج تشكل مورداً عالميا سُخرت له الفنون والعلوم .. فهي كل يوم ، بل كل لحظة ، في جديد من هذا الشأن . وهكذا دخل حساب التبرج في ميزانية الأسرة ، كشيء أساسي لا يقل أهمية عن الخبز !. ولو رحت تنكر هذا الاتجاه المَشين لرأيت الكثيرين حتى من (المثقفين) يزمُّون شفاههم استنكارا لانكارك ، ويقولون : هذه محاولة

لوقف عجلة الحيـــاة !٠

وطبيعي أن هذا الانجراف في سيول الزينة ،من شأنه أن يضم الى فوضى المجتمـع عنصرا جديـدا من موارد الدعاية ضد المرأة الشريفة ٠٠ التي تستنكف أن تجعل من جسدها المصون طعمة لكلاب الشهوة ٠٠ وبذلك تزداد على نفسها انطواء ، حتى تصبـــح في عزلة تامة عن دنيـا الناس ٠ ولا غرابة فالسيل انما يجرف الغثاء ٠٠ أما مـا ينفع الناس فيمكث في الأرض ٠

واستتبع هـذا التطور الجارف في موضوع الزينـة الجسدية تطوراً آخر في الزينة المنزلية لا يقل خطرا علـى الحياة العامة ، اذ جعل البيت ميدان سباق ، فكل امـرىء يحاول أن يجعل من أثاث مسكنه معرضا للتحف ، يضاهي أو يفوق سواه ٠٠ الأمر الذي أضاف الى موانع الزواج روافـد أخرى ، ووسّعت مجـالات العزوبة ، ووقفت بجماهير الفتيان الراغبين في الزواج بعيدا عن حدوده ٠٠ مؤثرين (التشرد الجنسي) على أن يضعوا أعناقهم تحـت هذه الأعبـاء !٠

وقد كان الناس الى عهد قريب يردون معظم الأسباب في انتصار العزوبة الى ارتفاع المهور ، حتى لمسنا هـذه الحقيقة ٠ فرأينا معظمها يعود الى ميوعة الشباب أنفسهم

•• هؤلاء الذين ابتلوا بداء التقليـد ، حتى أصبحوا يفكرون بأثاث المنزل قبل أن يفكروا بالمرأة !• وقد نسوا أن الغرب الذي يقلدونه طائعين في ميادين الفساد ، قد تخلص من عبودية الأثاث ، حتى أصبح الفتى هناك ،وهو في أسمى درجات الثقافة الجامعية ، يقترن بالفتاةالجامعية مثله في حجرة من فندق •• وقد اكتفيا من الأثاث بسرير أو اثنين ومقعدين •• وما لا غنى عنه من أشياء في منتهى البساطة • أما هذه الارائك المترفة ، والخزائن الضخمة ، والفرش الكثيرة الوثيرة ،وهاتيك المقادير الكبيرة مـن الحلي المعطلة لثروة الأمة •• مما يستعبد اغراؤه شباب العرب ، ويلقي بهم تحت أثقال كثيرا ما تذهب بالكرامـة والطمأنينة•• أماهذه الألاعيب فقدانتهى دورها فيالدنيا!•• ولم يبق لها سلطان الا في هذا الشرق ، الذي استعبـده عشق المظاهر منذ عهود الطغيان الأولى ، أيام كانملوكه آلهة يسوقون الشعوب بالسياط الى رفع الهياكل العابثة، وابداع الزخارف المسرفة !• وقدمضىهؤلاء الملوكالسفهاء بعُجَرهم وبُجرهم ، ومضى مقلدوهم الأولون من حكـام العرب •• ولكنهم استبقوا في العروق صُبابـة من روح العبودية ، التي نسفت من قبل كل أمجادنا التاريخية ••

وياليت شبابنا أخذوا عن الغرب بعض هذه الحقائق، الى جانب ما قبسوه عنه من الأباطيل •• ولكن طبيعة التقليد الهابط تصرف الأذهان في العادة عن النظر الى فوق ، فلا يرى المقلدون الا ما يواجههم به البريق الخادع من تحت !•

العزوبة جريمة

أجل لقد كان (سباق الأثاث) واحدا من العوامل التي سجلت (انتصار العزوبة) في هذه الأيام •• وكم تتمنى لو أن لدينا مؤسسات تعنى بالاحصاء الاجتماعي، لنتبين النسبة الحقة التي صارت اليها ؛ وانا لنتوقعها نسبة هائلة لا تقل عن الثلثين !•

ولقد أصبح مألوفا أن ترى الرجل قد تجاوز نصف القرن ، وله المورد الممتاز ، ومع ذلك يؤثر حياة العزوبة••

والناس عندما يرون انتشار البطالة بين جماعة من الرجال ، مع قدرتهم على العمل ، ومع توفر أسبابه، لا يتمالكون أن يتساءلوا : لماذا يؤثر هؤلاء حياة التشرد؟ ثم لا يتورعون أن يرموهم بكل تهمة شائنة ، فهم لصوص •• ونصابون •• وأدنياء ، و••• الى ما هنالك من الصفات التي تليق بأهل البطالة !•

على أن مثل هذا التساؤل أجدر أن نلقيه بالنسبة الى هذه (الأدوات المعطلة) •• ولو فعلنا لما وجدنا لهم عذرا، بل لوجدناهم أحق بالاتهام من أولئك •• ان أقل ماتصفهم حينئذ به أنهم يؤثرون حياة الظلام على النور ، وانهم يعيشون لصوصا على أعراض الناس ، يكتفون باختلاس النظرة ، واستجداء القبلة ، وسلوك مزالق الغش والتضليل •• حتى كأن مهمتهم الكبرى تشويه معالم المجتمع، وشحنه بأنواع من الجرائم ، التي غفل عنها القانون ••!

والمخلوق البشري الذي يتمرس بوباء التصعلك الجنسي ، يتعذر عليه الاقلاع عن هذه المزلقة ، حتى ولو انتهى الى الزواج أخيرا •• ذلك لأن نفسه الملوثة باتت كيرقة البعوض، لا سلامة منها الا بالتخلص من كلها ••فان (الزاني لا يَنكحُ الا زانية أو مشركة ، والزانيةُ لا يَنكحُها الا زان أو مشرك •• وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين ٢٤ ـ ٣) •

ولقد تنبهت بعض الحكومات الى خطر العزوبة ، ورأت فيها عدوانا صارخا على حق المجتمع ، فألفت لمكافحتها اللجان المختصة ، وفوضت اليها وضع المقترحات التي تراها جديرة بالتخفيف من شرها ••

وكان في سورية ذات يوم عناية بهذا الموضوع ، إذ كلفت لجنة درس الوسائل المؤدية الى ترويج الزواج •• وقد رأينا من قبل حكومة (الشيشكلي) تعير القضية نفس الاهتمام ، وتؤلف لها لجنة من رجال الفكر والاصلاح ، فيهم وزير العدل الاستاذ نهاد القاسم ، والمدرس بجامعة دمشق الأستاذ مصطفى الزرقا •• على أن المؤسف أن كل هذه المقدمات لم تنته الى أية نتيجة ، على كثرة ما قيل في الموضوع من كلام !•

واني لأذكر أن موظفة كبيرة من احدى الوزارات السورية ، قد أرادت أن تضع لجنة تشجيع الزواج أيام الشيشكلي بازاء توجيه معين ، فنشرت في الصحف بحثا جعلته بمثابة تقرير موجه من الوزارة الى اللجنة ، تدلها به على أنجع الوسائل لتحقيق مهمتها الاجتماعية !•

وقد لوحظ يومئذ أن البحث كُتبَ بقلم دخيل لا صلة له بمعاني القيم الاسلامية ، اذ جعل همَّه الالحاح على فكرة الاختلاط الجنسي ، على أنها السبيل الوحيدة لدفع الشباب الى الزواج ••!

ولفت يومئذ نظر المسئولين في اللجنة الى ما وراء هذا المقال من نية مبيتة ، تريد وضعها أمام الأمر الواقع••

وحدثني أحدهم قائلا : ان زميلا لهم ، وهو من فضلاء المسيحيين ، قد ضحك ملء شدقيه من هذه الاقتراحات (الاختلاطية) لأنها بنظره مؤدية ــ لو نفذت ــ الى القضاء على فكرة الزواج تماما !

وأحب هنا أن أتناول موضوع الزواج والعزوبة من هذه الناحية بوجه خاص •• فأنا أعتقد أن ذلك المسيحي المهذب قد انظر الى الموضوع من زاوية الأخلاق الشرقية النقية ، التي لم تتسخ بوثنية الغرب ، فجاءت كلمته الصغيرة هذه نفحة من الالهام ، الذي تتركز في مثله خلاصة تجارب لا تتسع لها عشرات الصفحات ••

كيف نكافحها

ان الاختلاط هو أكبر عوائق الزواج ، وقد يتحول في النهاية الى القضاء عليه ••

هذه حقيقة بديهية تشهدُ مثلها في حركة الماء ••فالمطر ينهمر سيلا ، فيصادف أمامه السدود ، فيتجمع بانتظار التوزيع ، فاذا فتحت بوجهه الثغر المنظمة تدفق نورا ورياً، يحوّلان الليل نهارا ، والقفر جنانا ، والجدب خصبا •

أما اذا لم يكن ثمة سدود ، فهو الهلاك الأحمر ، يجرف التربة ، ويستت الأحبة ، ويحيل الجنات مفاوز

خاويـات ...

والطريـق الوحيـدة لتوجيه الشباب الى الحيـاة الزوجية ، هي نفسها طريق السيل الى التجمع وراءالسدود، ليتدفق من المصرف الموجه خيرا وخصبا وبركة .. وبتعبير مباشر : اذا أردنا حقا توجيه الشباب الى الزواج ،وجـب أن نقيم السدودَ الخلقية دون انطلاق الغرائز .. حتى لا تجد أمامها الا المجرى الشرعي الفريد .. أما الدعـوة الى استكمال وسائل الاختلاط الجنسي ، فهي دعوة الى تحطيم جوانب السد ، ليزول الحاجز الذي يحبس وراءه الماء .. وما أظن عاقلا يصدق أن الميـاه ، عندما تجـد نفسها متحررة من الحواجز ، تمتنع عن الانسياح في كـل جانب ، لتحصر نفسها في منفذ واحد معين !.

هكذا تماما يزعم دعاة الاباحيـة .. ان الوسيلـة الناجحة لتشجيع الزواج هي اطلاق عنان الغرائز ..تتزاحم وتتعارك وتجرب ، حتـى تنتهي الى الاكتفاء بالرفيـق الواحد ، الذي اختارته من المستنقع نفسه !.

ولكن أكثر صراحة وجراءة في الحق فنقول : ان المجتمع الذي تشيع فيه المسابح المختلطة ، وتجوس خلاله عناصر الفجور ، مزودة بكل أسلحة الفن ... لا تنجـح فيه لجنة تريد تشجيع الزواج . بل لا تكون فيه كـل

دعوة الى الزواج الا ضربا من اللغو الذي لا مردود له سوى زيادة المضاعفات ..

وبين يدي الآن عدد من جريدة (بيروت المساء) أقرأ فيه تصريحا لمسئول كبير في بيروت ، يعلن أنه سيضاعف حراسة المسابح المختلطة ، ويمنع السابحات ارتداء المايوهات المتطرفة ، للحيلولة دون الحوادث التي أودت بعشرة أشخاص خلال الأيام الأخيرة !..

والمضحك المبكي في هذا التصريح ، أن صاحبه يركز اهتمامه على الحراسة ومنع التطرف ، وقد نسي أن (أحب شيء الى الانسان ما مُنعا) !.

فان كل حراسة لهذا الضرب من الفجور المدنس للشواطىء ، انما هو تحدّ موجه الى محترفي القتل لا يجدون ميدانا أفضل منه لتمثيل البطولات ، ولتحقيق المغامرات !..

ولا بد للقارىء الساذج مثلي أن يتساءل : لماذا لا يتفضل حضرة المسئول الكبير بمنع السباحة المختلطة نهائيا ، بدلا من هذه التدابير المخدرة !...

وفي اللاذقية مثل من هذا النوع ، يبعث الدهشة في كثير من النفوس ، ولا يزال (الرجعيون) مثلي حائرين في تعليله ...

لقد رأينا مليون ليرة ونيفاً تنفق لانشاء مسبح فني في اللاذقية ، بينما فيها مثلا مئات الأسر تعيش في جحور أشبه بالقبور .. لا يتخللها الهواء ، ولا ينفذ اليها النور ، وهي في القرن العشرين .. وكأنها تعيش في ظلمات عصور الانحطاط في أوروبة .

ليت شعري .. أفكان انشاء مسبح بمليون من الليرات ، أفضل من انقاذ هذه المئات من النفوس البائسات !(١) .

ومثل ذلك يقال في طرطوس ، التي كان حظها مسبحا بمئة وخمسين ألف ليرة سورية فقط .. وهيأحوج ما تكون الى شئون وشئون ..

ونحن نعلم أن انشاء المسابح والحدائق والملاعب العامة ونحوها من لوازم المدنية ، التي لا مندوحة عنها.. ولكننا نعلم أن للمدنية في ذلك فلسفة خاصة ، ترمي الى توفير وسائل الرفاهية لكل مواطن .. لكنها في الوقت

---

(١) في حفل افتتاح هذا المسبح وقف معمم مشهور في جمع من السابحات والسابحين يخطب فيقول : (من هذه المدارس الرياضية سيتخرج الجيل الذي سيحرر فلسطين !.) ولم يكن يومئذ في الامكان تكذيب ذلك الافك المبين !..

نفسه تستهدف من ذلك توفير الوسائل الضرورية لحماية الصحة العامة ، بصرف المواطنين الى حقول من النشاط البـــريء ..

فالهدف في أصله إذاً أخلاقي ، يستهدف صون القوى البشرية من التبذير في مجالات الفساد .. ولكن لا ننس أن لكل مجتمع ظروفه الخاصة ، التي تـُعَـيّـِن له ألوان النشاط المفضل ، وتقرر له فلسفته المستقلة في تعليلها .. فليس كل لهو في بلد أجنبي صالحا لبلدنا .. وهذا معناه أن توجيه هذه الأموال الضخمة ، الى مثل هذه الملاهـــي الطليقة ، انما هو نوع من الوقيد الذي يزيد في (جموح العزوبة) ومن ثـَمّ في عواقبها الخطرة بل الهدامة ..

وخلاصة القول : ان شيوع العزوبة في بلادنا داء يجب استئصاله ، ولا سبيل الى ذلك الا بنظام اجتماعي كامل .. يكون في أول أحكامه تطهير الشارع والملاهي والشواطىء والمدارس من كل عوامل السقوط .. ثم توجيه الرأي العام الى احتقار هذا الضرب من التشرد الجنسي ، الذي يمثله أكثر مفضلي العزوبة ، لكي يحسوا أن المجتمع قد أصدر عليهم الحكم الذي يستحقونه .. ويوم نصـــل الى هذا الحد من الرشد الاجتماعي ، لا نستطيع بطبيعـــة الحال أن ننظر بعيون الرضى الى هذا التنافس الصبياني

في غلاء المهور وعبودية الأثاث •• ومن أبى الا ركـوب رأسه في هذا المنحدر الخطر ففي يد الدولة سلطان التشريع الذي يكفكف غلـَواءه ، حتى لا يتجاوز بالمهر ولا بالأثاث حدا معلوما •• يعتبر كل زيادة عليه مدعاة لضرائب فادحة، تتصاعد نسبتها كلما أوغلت في البعد عن هذا الحد ••(١).

---

(١) من بـو ادر الاصـلاح الاجتماعـي في المملكـة العربيـة السعودية ، ذلـك التوجيه الكريم الصادر مـن وزارة الداخلية بشأن المهـور ، وما سبقه مـن فتوى رشيدة اصدرتها دائرة الافتاء العـام المملكة في هـذا الشأن ، ونشرتها جريدة الدعوة في عددهـا السادس والستين ، والمؤرخ في السادس مـن جمادى الأولى من عـام ستة وثمانين بعـد المئة الثالثة عشرة .. فقـد كان لارتفاع مستوى المعيشة في المملكـة اثر فعال في رفـع مستوى المهور ، حتى بلغ حدا يعرقل حركة الزواج ، أو يدفـع بالراغبين الى البحث عن رفيقة الحياة في خارج المملكة . ذلك ان نوعا مـن التنافس الاجتماعي قد سيطر علـى اذهان الكثيرين مـن أولياء البنات ، فراوا في تضخيم المهر توكيدا لمنزلتهم الاجتماعية ، فراحوا يتزايدون في مبلغه ، حتى صار الأمر الى ما لا تحمد عقباه !.. وهكذا جاءت الفتوى وتوجيـه الوزارة في وقتهما المناسب .. ولم يقف مضمون الفتوى عند حد المهور وحدهـا ، بل تجاوزها الى موضوع الاسراف الغريب في الالبسة وولائم الزواج ، التي توشك أن تحيي عهود الف ليلة وليلة !..

←

ولا حاجة بعد ذلك الى التذكير ، بأن كل تضييق على العزوبة انما هو توجيه الى طريق الزواج ، ثم سمو بمقام الأسرة الى منزلتها المقدسة ..

وهنا لا ننسى ان نسجل لحكومة الشيشكلي المنقرضة

→

ولكن ... لا بد من القول بأن مشكلة المهور لا يحلها مرسوم أو توجيه مهما يبلغ من السداد ، اذ هو أشبه بوصفة طبية لا تنفع المريض ما لم ينفذها بدقة ، ولكي يخرج الفكر الى حيز العمل يحسن اعتبار كل زيادة عن الحدود - التي يقدرها الامام - موضع مؤاخذة ، ثم لا يكفي هذا حتى يمتد الاصلاح الى موضوع الجهاز والولائم ، فتمنع كل زيادة تعتبر من مظان الاسراف ، ومدعاة لشيوع روح التنافس على التبذير ، الذي اليه يعود الكثير من شقاء الأسر . ولا سبيل الى استغراب هذه الأنواع من المعالجات في حكم الاسلام ، الذي جعل الاصلاح الاجتماعي أولى مهام الامام . وقد رأيت بعض أصحاب الفضيلة من العلماء يترددون في موضوع التحديد ، اذ يرونه معارضا لظاهر النص القرآني (وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ..) وكأنهم حفظهم الله نسوا أن اطلاق الكثرة الممثلة هنا في لفظة (القنطار) لا تعدو حدود المباحات ، بمعنى أن من حق الزوج الارتفاع بمبلغ المهر الى ما شاء .. والحكم في المباحات ان ينظر اليها على ضوء المصلحة العامة ، فللامام أن يقفها اذا تأكد ان في اطلاقها ضررا متيقنا .. ولا خلاف عند السادة العلماء أن اطلاق هذا المباح قد أصبح في أيامنا مصدرا مؤكدا للكثير من الأضرار والأخطار ...

ذلك التدبير الحكيم ، الذي تجلى في انشائها لوسام الأسرة ، الا أننا لا نكتم أسفنا لما رأيناه من تعطيل للحقوق المترتبة لأصحاب هذا الوسام بموجب أحكام المرسوم الخاص به ، فجدير بالمسئولين في كل مكان احياء مثل هذه الأحكام ، واشعار حملة هذه الأوسمة بامتيازاتها، التي تعد واحدة من عوامل التشجيع على تحطيم العزوبة..

الزواج المبكر

ولا أزال أشعر أن للحديث عن العزوبة والزواج بقية لم أكتبها بعد ، يضاعف احساسي بها ما قرأته قريبا من كلام لاحدى الكاتبات حول سن الزواج ...

هذا الموضوع أثارته مجلة أسبوعية معروفة . وكان طبيعيا أن تقف على رأي الكاتبة فيه، وهي التي أقامت نفسها (مفتية) للجماهير ، واتخذت من المجلة زاوية خاصة، رفعت فوقها لافتة كتب عليها بخط طويل عريض: (اسألو

وكان رأي الكاتبة متفقا مع الأفكار اللقيطة ، التي طالما جاهرت بها في فتاواها .. انها ترى في تبكير الزواج عملا غير صالح ، وضربا من التغرير بالمراهقين ، لأن الواجب ـ بنظرها ـ أن لا يغامر الفتى أو الفتاة بعملية الزواج قبل التزود الكافي من التجارب !..

وطبيعي أن يكون لحضرة (المفتية) مريدون ومريدات يضعون حكمها في مقام القداسة •• ولا سيما بعد أن أصبح الطابع الغربي هو المسيطر على حياتنا العامة ، الأمر الذي يجعل مثل هذا الرأي مقبولا في كثير من الأوساط •• ان لم نقل في جميع الاوساط ••

ولقد سبق أن عالجتُ هذا الموضوع بالذات في مناسبات خطابية شتى ، حتى أصبح معروفا عند معارفي وطلابي أنني أدعو الى التبكير في الزواج ، بمجرد توفر امكانياته •• وسندي في هذا المذهب حكم الاسلام ،ثم خبراتي الشخصية ••

فأما الأول فالمرجع فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الشباب •• من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج » • والحديث من الصحاح التي تأتي بعد القرآن ، فلا مجال ـ عند المؤمنين ـ للجدل فيها ، الا من حيث التعرف لوجه الحكمة في مضمونها الشرعي•

والرسول بنصح الشباب بالزواج ، بمجرد توفر القدرة على القيام بأعبائه ، ويعلل ذلك بنتيجته ، التي هي تحصين النفس بوجه الآثام•• ومثل هذا أمر بديهي بالنسبة الى دين يريد تطهير حياة الشباب من هواجس المراهقة ، ليستطيعوا التفرغ لواجباتهم الكبرى في بناء الحياة •

ولا حاجة لأحد منا الى التوسع في تصوير هذه المرحلة، فهي ثمرة لا مندوحة عنها من تفتح الحيوية ، أتيح لكل منا أن يحسها تملأ كيانه نارا وقلقا وبحثا عن المجهول •

ومن الأمور المألوفة جدا أن تصل ببعض الناس الى الجنون ، أو الانهيار العصبي ، اذا فقدت الملطفات التي تُعَدِّل حدتها •• كما هو الشأن في مثل هذه الأوساط المكشوفة ، حيث تعرض اللحوم لكل جائع •• فلا يجد مانعا يحول دونها الا خوف العقوبة ، أو ضيق ذات اليد !•

في هذا الجو ـ جو المراهقة الذي قد يمتد ـ عند توفير المحرضات ـ الى سنوات طويلة ، تضطرب موازين النفس ، وتتوتر تفاعلاتها ، حتى قد تستحيل عقدا معضلة، تستهلك الطاقات الحية كلها • وفي هذه الحال يتعذر على المراهق ضبط امكانياته في نطاق الواجب ، سواء كان هذا الواجب درسا أو عملا •• أي عمل •

ومن البديهي أن يتفاوت هذا الوضع شدة ولينا ،تبعا للوسائل الدافعة •• فالفتى الذي يجد نفسه محاطا بالمهيجات الجنسية ، دون أن يجد في يديه السلاح المقاوم، يستحيل عليه أن يثبت في وجهها ، أو يتجاهل نداءاتها •• فيسقط فريسة هينة لعشرات المشاكل النفسية ، التي قد تصير بمواهبه الى الشلل ، وقد تنتهي به الى التحطيم •

والتحليل النفسي عند (فرويد) يعالج هذا الوضع بالوسيلة الوحيدة التي لا يفهم غيرها ، وهي العبّ من معين الجنس كلما ألم بصاحبه شعور بالظمأ اليه .. دون أن يقيم وزنا لنتائج هذا السلوك البعيدة والقريبة !. وقد بات معلوما ـ الا عند تلاميذ فرويد ـ أن معالجة الهيج الجنسي بتلبيته ، وسيلة حتمية الى جموح هذه الرغبة ، حتى تصبح هي الحاكمة المطلقة في نفس صاحبها ، ومن ثم تسلمه الى انهيار عام يقضي على خصائصه المدركة جميعا .

على أن هذا الوضع نفسه تختلف تتائجه ، عندما يكون الفرد المراهق من الصنف الذي يعيش في آداب الاسلام .. ذلك لأنه يكون بين أمرين : اما أن يتزوج اذا استطاع الباءة .. واما أن يعالج نفسه باستعمال الوصفة الطبية النبوية ، وهي الصوم الذي من شأنه أن يصرف نفس المؤمن عن هواجس الشهوات ، بما يحيطه من المعاني الآلهية .

ولسنا في حاجة الى الاكثار من الدلائل على هذه الحقيقة ، وهي بارزة في كل مكان ، وبخاصة في شبابنا الذين يتلقون دراساتهم في الغرب .. حيث التفوق يكاد يكون موقوفا على هذه الفئة التي حصّنها الاسلام ، فارتفعت بأخلاقه فوق سلطان الضرورات البهيمية ، التى تلتهم أجسام وعقول المئات من الشباب العربي هنا وهناك ..

ذلك أن الفتى من هذا الصنف الممتاز يقبل على دراسته هادىء الأعصاب ، لا يشغله عنها شيء من أعاصير الشهوة التي تعصف بنفس زميله ، وليس ذلك لأنه أقل من هذا الزميل حيوية .. هيهات !. بل لانه حاكم هذه النوازع الى قوانين الاسلام ، فخنست ذليلة مطواعة ، ثم استحالت قوة دافعة للعمل البناء ، فكان معها كذلك الشاعر العربي الذي عضه لذع الجوع ولم يجد الطعام الكريم ، فراح يعالجه بالصبر الأكرم وهو يقول :

أطيل مطالَ الجوع حتى أميتَه
وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهلُ

ومن هنا نعلم أن الفتى المؤمن الذي لا يجد سبيلا الى الزواج ، لا يعجزه أن يجد السبيل الى التعفف ..لأنه يدرك بنور الايمان ، ودون أن يعرف شيئا مما قالته الدكتورة « ماريون هيلارد » (١) ان الحاجة الى الجنس شوق عابر ، يمكن تصعيده بممارسة أي نوع من النشاط النافع ، الذي يستغرق وقت صاحبه ، حيث لا يترك في حياته فراغا للتفاهات .... »

---

(١) هي رئيسة قسم النساء بجامعة تورانتو ، نشرت لها المختار مقالا رائعا عن قضايا الجنس ونقلته (المسلمون) .. في العدد ٢ ـ ٥ ، والفقرة من كلامها هناك .

بيد أن الانتصار على شيطان الشهوة ليس بالأمـر الميسور للجميع .. فالتجربة رهيبة ، والحياة لم تعد من النوع النظيف ، الذي يساعد على نسيان الجوع .. بـل عكس ذلك هو الصحيح ، لأن كل شيء حول المرء يذكره بنداء الجنس ، فهو ، والحالة هذه ، كالمقلع عـن التدخين بعد الادمان ، فلا ينفعه شيء مثـل أن لا يلقى مدخنا ، ولكن لسوء حظه لا يكاد يجد في طريقه غير المدخنين !..

مثل هذا الانسان لا يحصنه شيء مثل الزواج المبكر..

وأصر على التبكير .. وأنا أعلم أن هـذا الانسان قد يكون تلميذاً ــ في الغالب ــ وليس من المستساغ أن يكون التلميذ متزوجاً ــ في مقاييس اليوم ــ وكيف يساغ ذلك والتلميذ نفسه عالة على بيتـه في الطعـام والثوب والتكاليف المدرسية !. أفلا يكفي هذا حتى نضم اليـه الزوجة والبنين !..

حقا انه لأمر شاذ بالنسبة الى المألوف ، ولكن .. أكـل مألوف صحيح ؟.. أم كل غير مألوف ليس صحيحا ؟..

لو كان الأمر كذلك لبطل التكليف .. ولكان كـل محاولة للاصلاح ضربا من الهذر !. ولعمري ليس عمـل المصلحين سوى كفاح دائم بين ما هو كائن ، وما يجب أن

يكون .. بل ليست الحياة نفسها سوى معركة غرضهـا تغيير ما ألفه الأحياء ...

ونعم ان زواج الطالب في القسم الثانوي ليس مألوفا، ولكنه قد يصبح ضرورياً لتسوية أوضاعه النفسية أولا ،ثم لتسوية الواقع الاجتماعي من حوله ثانيا .. ولا بأس أن يكون كَلاًّ على أهله مع زوجتـه ، فالأمر جد محتمـل عندما تقوم الحياة المنزلية علىأساس الرضى بالميسـور دون ارهاق، والأب الذي ينفق على ولده الطالب لا يسوؤه أن ينفق معه على زوجته أيضا ..

واذا ارتضى المجتمع هذا التدبير ، كان من حقه أن يطالب الدولة برصد الاعتمادات اللازمة ، لمساعدة الطالب المتزوج مساعدة تزيد بزيادة الحاجة وفي حالة الأنجاب.. ولا بدع في ذلك ، فاذا كان على الدولة أن تؤمن للشعب حمايته من الجوع والبطالة والعدوان ، فليس دون ذلـك أهمية تأمين الحياة الزوجية لكل راغب وقادر من مواطنيها .. وقد عرف التاريـخ في ماضي هـذه الأمة مؤسسات اجتماعية لتأمين الزواج ، وما هو أقل أهمية من الزواج.. فالعناية بهذه الناحية من جديد انما هي عودة حميدة الـى تقليد رفيع كان من مميزات حضارتنا الكاملة .. في عالـم مشحون بالنقائص ...

ولقد حصلت بعض حالات الزواج بين الطلاب فكانت تجربة ناجحة .. وأنا أعرف واحداً أنهى دراسته الجامعية في نفس الوقت الذي أنهى أحد أبنائه دراسته الثانوية . ومما يلفت النظر في حياة هؤلاء اتزانهم الخلقي ، وانتظام حياتهم في وسطٍ كل مافيه قلق واضطراب (١) ... على أن هذه التجربة ظلت في نطاق ضيق ، وفي الغالب ضمن أوساط الطلاب ، وقليلا ما ظهرت بين أوساط الطالبات ، لأن الذوق الاجتماعي في معظم أقطار المسلمين يعتبر وجود الطالبة المتزوجة ـ وبخاصة أيام الحمل ـ في المدرسة شيئا كريها يثير الاشمئزاز !. على حين لا يرى أي بأس أن يكون لبعض الطالبات عشرات العاشقين .. أستغفر الله بل المعجبين !...

وأنا لا أزال أذكر تلك المأساة التي كانت احدى

---

(١) بعد انتقالي للتدريس في الجامعة الاسلامية أصبحت اشد تشبثا بهذا الاتجاه ، اذ وجدت زواج الطالب أمرا عاديا ، سواء في اقسم الثانوي او العالي . ولا ريب ان لحكومة المملكة الفضل الاكبر في ذلك ، لأنها بالمكافآت السخية يسرت للطلاب كل هذا الخير . هذا علاوة على التشجيع الذي يلقونه لدى فضيلة نائب رئيس الجامعة، الذي لا يدخر وسعا في تقديم كل عون للراغب منهم في الزواج ، بل ان عونه اياهم ليمتد الى الولادة والوفاة وكل ما له علاقة بحياتهم العائلية ..

بناتي ضحيتها ذات يوم ، وهي طالبة في دار المعلمات ـ بحلب ـ اذ أنذرها مدير المدرسة بالطرد •• اذا لم تحصل على شهادة طلاقها من المحكمة الشرعية !••

أجل •• لقد رفضت دار المعلمات السورية أن يكون بين طالباتها فتاة ذات ولد وزوج •• وألحت بسحبها أو تطليقها !• ولجأنا الى الوزارة بكتاب مفتوح في احدى الصحف ، نفصّل به القضية على مستوى علمي تربوي ، ولكن الوزارة ما لبثت أن ردت على كتابنا بجواب مختصر لا يزيد على تأييدها لطلب مدير دار المعلمات •• وبذلك اضطررنا الى اجراء طلاق شكلي أمَّن لهَا الحصول على الشهادة المطلوبة !••

ولا حاجة الى التذكير بأن هذا الموقف العجيب ، من الادَارة والوزارة ، كان بمثابة رادع عنيف لكل طالبة تسول لها نفسها أن يكون لها زوج !•

وما أحسبك تتصور تشجيعا للزواج من وزارة المعارف •• يتم على أفضل من هذا الوجه !!•

ونعود هنا الى صاحبة لافتة (اسألوني) لنقول لها : إن آراءك العظيمة بشأن الزواج المبكر سابقة لزمنها ،وهي أصلح ما تكون لمجتمع « تقدمي » ينعم بمواريث الوثنيات

اليونانية والرومانية •• أما مجتمعنا « المتأخر » فلن يصلح آخره الا بما صلح به أوله •• ولعلك تعلمين أن الـذي أصلح أوائله إنما هو تعاليم محمد واخوانه مـن النبيين صلوات الله عليهم وسلامه •• لا فلان ولا فلان من صعاليك الغربيين واذنابهم الخنفشاريين !•

تنـاقض

وذات يوم ، لقيت صديقا قديما من رجال التبشير ، وهو قس يحمل في أخلاقه طابع الجو الكنسي ••رقة ودماثة وتواضع •• وتداولنا أحاديث طائرة عن الناس والأخلاق والايمان والالحاد • وأحب الوقوف على رأيي في أسباب هذا الانحلال الذي يستولي على الشباب ، فقلت : أدرْ عينك في ما يحيط بك من هذه الساحة تجد الكثير من هذه الأسباب ••• إنها المغريات تعرض نفسها في أوقح زينتها•• هاتفة في أوضح بيان : إليّ أيها الشباب !•• وكان على الجدار المقابل لافتات كبيرة من إعلانات السينما ، تحمـل رسوم الممثلات في أوضاع مثيرة •• وبيننا وبينها عرض الشارع ، يتزاحم فيه أمثالهن من نسوة « كاسيات عاريات مائلات مميلات •• » قد أخرجهن حر الصيف عن ثيابهن ، فلم يبق الا خيوط تربط بالمناكب ، خرقاً توشك أن تشف عن كل شيء !••

وفي هذه اللحظة أقبلت نحونا فتاة أقل من أولئك عريا .. غير أنها لم تستطع التخلص من حر الصيف الا بأن تخلصت من أكمامها ، فكدت أشير اليها كمثل من هذه المشاهد ، لولا أن سبقني الصديق القس الى الكلام قائلا: وهو يشير الى الفتاة :ابنتي ..!

وتذكرت هنا قسا آخر من زملائي ، سألته قبل أيام عن حكم الكنيسة في هذا التبرج المخيف ، فأكد لي أنه وزملاءه جادون في تنبيه النسوة من رائدات الكنيسة ،الى ضرورة التستر عند الدخول الى الصلاة .. ثم أوضح لي أن الكنيسة ترى أن على المرأة أن تغطي رأسها ، وعلى الرجل أن يكشف رأسه أثناء الصلاة .. ولكن الزميل الكريم لم يستطع أن يثبت لي أن مواعظهم هذه لقيت أذنا صاغية ، وما على من يود التثبت من ذلك الا أن يقف أيام الآحاد على مقربة الكنائس ، ليرى كيف تتحول هذه المعابد الى معارض أزياء.. تغني عن كل أنواع (الكتلوكات) فضلا عن الأصباغ وأصناف الحلي والمجوهرات !..

ولعل من غوامض الأمور بالنسبة اليّ أن تفرض الحشمة فقط داخل الكنيسة ، حيث يوعظ النساء بستر أجسامهن ورؤوسهن مادمن فيها ، وكأن في هذا ايحاء لهن بأن الحشمة وضع خاص بالصلاة ، كرداء المحامي يقصر استعماله على مجلس القضاء ، فاذا انتهت الصلاة انطلقت

الغرائز تعمل عملها في تخير الشكل والطريقة دونحساب!•

وقد أسلفت مثل هذا عن بيوت المسلمين ، التي لا تزال تحتفظ ببقية من الصلة بالاسلام ، حيث تتخذ المرأة ثوبا فضفاضا يعيدها مؤقتا الى المظهر الاسلامي الصحيح، الذي ضاع بين الحجاب المتعنّت والسفور المتفلت ،حتى اذا انتهت الصلاة كشفت زينتها المطبوعة والمصنوعة لكل ناظر من بر وفاجر (١) •••

وقد أصبح من المشاهد المألوفة في مجتمعات المسلمين أن ترى الأم وابنتها •• وكأنك ترى الى حقبتين من التاريخ تمشيان معا •• امرأة غاطسة في الحجاب لا يبدو منها أثر ، وبجانبها صبية لا يستر شيء منها شيئا•• حتى الأشياء الملفوفة ضمن الخرق المغرية •• تراها بارزة الأشكال ، في تجسيم صارخ لا يفوت النظر منه حتىحجم « الحاجز السري » !•

---

(١) وقد حدثني احد اخواني من اهل العلم عن صديق لنا كان يفرض على زوجه ، اذا خرجت لزيارة اهلها ان ترتدي اولا جلبابا وسخا معدا لهذه الغاية ، ثم تجعل فوقه كيسا من الخيش !.. وغرضه من ذلك ان تنصرف عنها الاعين فلا تتجه اليها !.. وهو لا يدري انه بهذا يجعلها شهرة تجتذب الانظار والافكار !.

ولا بد أنك تساءلت مثلي بازاء هذا التناقض المدهش: لم لا يتحد الشكلان في اطار طبيعي واحـد ، فتتعـرى الأم كابنتها ، أو تتستر البنت كأمها !•

ولا يقل عن ذلك شيوعا ولا تناقضا ذلك المنظر الآخر ، الذي يسدعليك مسارب الدروب: صغيرات في عمرالبراعم، قد برزت لحومهن من فوق ومن تحت ، لاستر عليها اللهم الاكيس ممسوخ عبىء فيـه الجذع ، في صورة تستثير الضحك والاشمئزاز •••

ولا حاجة بك أن تسأل أحدا عـن آباء هؤلاء أو أمهاتهن •• فقد تساوي في الجناية عليهن كل الناس •• حتى الذين تتوهمهم مظنة الفضل والعقل •• ولو رحت تلوم آهليهن على هذا التبذل المفسد لم تظفر بغير هذا الرد البارد : (ألا ترى صغرهن ! ••)

وهيهات أن يفهم هؤلاء أنهم ، بهذه التنشئة المنحرفة، انما يربون صغيراتهم منذ الآن على الاستهتار بحـدود الأخلاق •• وما أدري كيف يرجى منهن ايمـان بفضائـل الحياة كبيرات ، بعد أن يألفن هذا الجو الوقح صغيرات!•

ومهمايكن من رد هؤلاء فوراءه اعتراف بسوء التصرف الى حد •• ولكن ما بالك بقوم لا يفهمون لهذا التصرف

من تفسير ، سوى أنه انسياق مع سنن التطور الغربي الذي لا شر فيـــه ! •••

وتحضرني الساعة صورة حوار دار قبل أيام بين امرأة وصديقة لها، جمعتهما زيارة مشتركة•• قالت المرأة : «أرى تبدلا سريعا في مظهرك يا سيدتي •• منذ شهريـــن فقط تخليت عن النقاب ، واستعضت عنه بنظارتين سوداوين ، لم تلبثا سوى بضعة أيام حتى زالتا الى غير رجعة ! • ثـــم أتبعت ذلك بتعرية شعرك حتى من المقنع (الاشارب) وهـــا أنت ذي الآن تسلخين ذراعيك حتى الابطين •• ومـــا ندرى الى أي حد سيستمر هذا التكشف ! •••

وردت الصديقة : انها طبيعة التقدم لا تهتم بتقليد ، ولا تجمد عند حـــد •• » وكأنما وجدت المرأة في تعبير صديقتها تحديا لطريقتها فقالت : اسمعي يا عزيزتي •• لقد بدأ الانسان حياته على طريقة الحيوان ، عاريا من كل ستر الا شعره •• ثم رأى أن يستر جسمه بأوراق الشجر ، ثم بجلود الحيوان ، ثم جعل يترقى في مدراج الحضارة حتى اكتشف الابرة ، وابتدع وسيلة الحياكة ، فاستكمل ستر جسمه •• وهكذا كانت نزعة التستر وليدة التقدم المدني ، فكل زيادة في هذا التقدم كانت مؤدية الى زيادة فـــي توكيد الحشمة •• فاذا نظرنا الى وضعكن الجديد رأيناه يسير في اتجاه معاكس للتقدم تمامـــا •• لقد بـــدأ بالستر

الكامل ، ثم أخذ طريقه الى التعري ..

فأنتن أذن تعدن بهذا التطور العجيب الى عهود الهمجية ، قبل أن يعرف الانسان شيئا من أسباب الحضارة!. وهكذا ترين يا صديقتي :أن التقدم الحق انما هو في الاحتفاظ بكمال الستر، أما (الرجعية) الصرف فهي طريقتكن أنتن اللواتي خرجن من كل ستر ! . »

وكانت المرأة ترسل هذه الافكار في تركيز منطقي ، لا يتوقع من بسيطة مثلها .. حتى كأن قوة خفية تمليها على لسانها ! .. وكانت الصديقة ومن حولها من النسوة يصغين الى الحديث في سكون غير مألوف في مجالس النساء .. ولعلهن جميعا قد اقتنعن بهذه الحقائق من وجهة نظرية .. ولكن الثابت أنها لم تترك فيما بعد أي أثر في سلوكهن العملي ! ...

وحدثني صديق من (المربين) عن امرأة من محسـ الطبقة الرفيعة .. فنسب اليها الكثير من الشمائل الفاضلة والمساعي الاجتماعية الحميدة ، وكانت ذروة الفضائل في هذه الفتاة الرائعة الجمال أنها ــ في احدى الحفلات الراقصة التي أقيمت لغرض خيري ــ تقدمت بخديها الى جمهور المحتفلين تبيع القبلات بالصدقات !. إي والله هكذا حدثني .. وسمى ذلك (قبلة الاحسان) !

وهــل أتاك حديث الأعراس الجديــدة •• حيث تراقص العروس مدعوي زفافها •• ثــم تهب قبلتها لمــن يشتهي من المدعوين ! •

لقد اعتادت (الأجيال الرجعية) أن تقدم في الاعراس الأطعمة والحلويات •• أمــا هؤلاء التقدميون فهم أكرم من ذلك •• انهم يقدمون الأعراض والقبلات ! ••

وفي مكان ما عقد مؤتمر للمعلمين حضره صديق لي ، وفيما حدثني من أخباره أنه تعرف هناك احدى الزميلات ، وكانت ككل فتاة عصرية ، لم ير قط وجهها الحقيقي من وراء حجا بالمساحيق ! •• وتكرمت الزميلة فشملته من الانس بما يرضي ويزيد •• وعرف صديقي من أمر زميلته الفاضلة أنها عاملة على اعداد جواز السفر الى الحجاز لأداء فريضة الحج ! • حتى اذا جاءيوم العطلةالاسبوعية ذهبت به الى الشواطىء •• وهناك سألته عما اذا كــان يحسن السباحة •• فاعترف بعجزه في هذا المضمار •• ولكنها أبت الا أن تضرب الرقم القياسيفيكرم الضيافة، فاذا هي تعرض عليه أن ينزل معها الى المــاء ، لتعلمه مــا ينقصه من السباحة ! •••

•• أجل انه التناقض الذي يصدمك في كــل طريق وفي كل بيت •• وفي كل مدرسة •• فيقذف بــك في

خضم من الحيرة لا تعرف منه مخرجا !••

وعندي أن مثل هذه المفارقات من شأنه أن يأكل بقية الفضائل الروحية في نفس صاحبها،حتى يأتي عليها كلها•• فاذا ما رأينا بعض الظواهر الدينية لا تزال ماثلة في نفوس بعض هؤلاء القوم ، فلنتذكر أنها عادة ألفوها ، كما يألف أحدنا أن يقضي بعض يومه في مقهى أو ناد أو ملعب ، فيتشبث ذلك بنفسه حتى يتعذر عليه دفعه الا بكثير من الجهد •• ولا نبعد في التمثيل ، ونحن نرى مجتمعنا يتحلل من مواريثه جزءا فجزءا دون تفكير بقيمتها••أخير هي أم شر ! •

والمحزن أن المرأة في هذا المجتمع قد رضيت أن تؤلف نقطة الضعف •• فهي ملقية بزمامها الى التيار يقذف بها حيث اتجه •• دون أن تفكر بالمقاومة ، وبذلك أصبحت كحجرة الانفجار في محرك السيارة •• لا عمل لها الا الدفع •• ولكنه الدفع الذي يسوق الى الهاوية!• وما أحسبني مستطيعا أن أنسى تلك الكلمة التي سمعتها من بعض طلابي ذات يوم •• إذ كان موضوع الدرس كلام عن الغزل الماجن• فقلت معلقا على بعض النصوص : (بمثل هذه الالغام نسفت الدولة العباسية •• وطارت الأندلس • و •••)

•• وتموج الصف بالاتجاهات المختلفة ، وكان لا بد من بعض الحديث عن المرأة ، وأثرها العميـق في حركة المجتمع •• ثم كان ختام الحديث هذه الكلمة التي ادلى بها أحد الطلاب اذ قال : (الحق يا أستاذ •• أن تبذل المرأة يدفعنا الى الكارثة •• وأنا كطالب أشعر أينما سرت بأنني معرض للخطر ، خطـر العدوان على أخلاقي مـن قبل هؤلاء المستهترات ! •••)

وأحسست يومئـذ بالقشعريرة تسري في أعصابي من هـذه الصراحة ، ثم قلت : أجـل والله •• انه العدوان على الأخلاق نسأل الله أن يقيكم شره •••

مآس في المدارس

وعلى ذكر (الحاجة السابحة) نرى من الحق أن نسأل: أهي طراز شاذ بالنسبة الى الوسط التعليمي •• أم أنها النموذج الذي يمثل القاعدة ! •

قبل أيام سمعت طفلا في القسم الابتدائي يحدث أباه قائلا •• كانت معلمتنا تقرر لنا درس الدين في مـا يجب على المرأة من احتشام اللباس ، بينما كنا نـرى شعر ابطها وهي تكتب على اللوح ! ••

وطبيعي أن شعر ابطها لم يكن من الاستطالة بحيث يصل الى معصمها ، وانما الأرجح أنه لم يكن لثوبها من كـم البتـة ...

واذا كان هذا هو الوضع الاصيل بالنسبة الى المعلمات ـ الا من رحم الله ـ فليس الدين بالنسبة اليهن الا كالحديث عن آثـار المتاحف ، يثير العجب حينا ، ويثير الهزء حينا آخر ، ولكنه لا يترك أي أثر في سلوكهن الاجتماعـي والشخصي ...

ولكي ننتفع بهذه الوقائع ، نرى لزامـا علينا أن تتبين أثرها في أوساطنا المدرسية ، بالنسبة الى مئـات الألوف من بناتنا .. تلميذات اليوم وأمهات الغـد ... وما اخال هذا شيئا معقدا يتطلب ادراكه أي عناء ..وأنا لن أتكلم الا عن مدرسة واحدة عرفتها بنفسي ..

لقد بلغت حوادث الفرار مـع الحبيب خمسا في عام واحد ، بين تلميذات ثانويـة للبنات في بلـد اشتراكي ، وهؤلاء الهاربات اخترن رفاق حياتهن من الشارع .. اذ علمن أن أهليهن لن يوافقوا على قبولهن أصهارا ، فضربن بروابط الأسرة عرض الحائط ، وقبلنهم ثم هربن معهم .. وكفى الله المؤمنين القتال!.. ثم لم تخلُ قضايا بعض هؤلاء الفتيات مـن المآسي المفجعة ، اذ إن هؤلاء الذين هربن

معهم ما لبثوا أن تخلوا عنهن بعد متعة أيام •• لأنهم لم يروهن صالحات لان يكن أزواجا ، بعد أن رضين ان يكن لهم خليلات !•• والرجل مهما يبلغ من انحدار الأخلاق ، لا يمكن أن يهب احترامه للفتاة التي تسلمه نفسها من غير طريق شرعي •• اللهم الا أن يكون من الذين فقدوا كرامة الرجولة ، فلم يفرقوا بين الام والأرتيست !•• وما أدري كيف انتهى أمر بقية الخمس من هؤلاء الشاردات حتى اليوم ، وان كنت اترقب لهن المصير نفسه أو أسوأ ولو بعد حين •••

وفي هذه المدرسة ، وفي مكان ما منها ، وقعت عيني على رسوم وعبارات فوق بعض الجدران لا يتصور أنسان أن يعثر بمثلها في ماخور !•• ولا تكلفني أن اصفها لك ، فذلك أعسر من أن أنقل اليك احط اشعار الماجنين من أبي نواس وأقرانه ! ••• ولا تحسبنها كذلك صورة أوصورتين •• وعبارة أو عبارتين •• كلا والله انها لصور كثيرة وكلام كثير ، وحسبي أن أقول : انني شهدت هذه البذاءات مرة ، وفي مرة أخرى وجدت غيرها مكانها ، اذ كانت تلك قد محيت بالطلاء أو كشطت بالحديد ! •••

وأنت بعد هذا قد تسأل : أليس ثمة وقاية ؟ •

أليس هنـاك معلمـات وادارة ؟ .. ولكنني أجيبك : أن أعراضنا لا تشكو قلة المراقبات والادارات، فهي كثيرة ولله الحمد ، انما تشكو فساد النظام الاجتماعـي الذي يقوم عليه كياننا كلـه ...

... وأنا مثلك أعلـم أن مناهجنا التعليمية كلهـا متفقة على احترام الاخلاق ، وأن في بعضها توكيداً على تقديس العقائد الآلهية .. ولكن الذي يعوزنا هو القدرة على ترجمة هذه النصوص الى أعمال ، وهو شأن مستحيل التحقيق اذا لم تتوفر له الأيدي النظيفة .. الجديـرة بتشييد هذه الحقيقة الضخمة .. ومعنى هذا ان الأمـر موقوف على مسالك المدرسين أنفسهم ، أكثر من توقفه على نوعية المناهج ... ولا خلاف أن هناك المعلمين الذين يقدرون عظم الأمانة التي في أيديهـم ، ولكن لا خلاف أيضا في أن هناك آخرين لا هم لهم الا تهديم البقيـة الباقية من أطلال الخير في هذه الأمة ، اذ يجعلون من الحبة قبـة ، ومن ثُغَر المنهاج فجاجاً معبـدة أمـام السموم الوافدة من الغرب أو الشرق ! . ولا جرم أن هؤلاء هم المسئولون الى حد بعيد عما نعانيه من العواقب الخطيرة ، التي بدأنا نحصدها في محيط التعليم ...

دخلت ذات يوم أحد الصفوف الثانوية لتقريـر درس في البلاغة ، فاذا لوح الصف يحمل بالخط العريض

جداً هذه العبارة : (ما الدليل على وجود الله ؟) ...

وأعربت عن أسفي أن يوجد بين التلاميذ من يشك بوجود الله !. ولكن طالبا رفع يده ثم قال : ليس هذا لأجلنا .. ولكن لأستاذ الرياضيات .. لقد صرف حصته الآنفة كلها في التدليل على أن الايمان بالله خرافة ...

ومن قبل هذه الحادثة واجهت في ثانوية ضخمة للبنين ، على مثل هذا اللوح ، تلك العبارة الأخرى : (خلصونا من العروبة ... خلصونا من الاسلام ..) (١)

وما كنت بحاجة الى كبير ذكاء لأعلم أن هذه الوقاحة وليدة زميل (مفضال) يريد أن يتعرف كفيلسوف لاحدى الفكر الحزبية ... ولم يكن من سبيل لتوجيه أي لوم اليه على ذلك ، لأن ادارة الثانوية كانت يومذاك وراء هذا اللون من الأفكار !..

وخلال العام الدراسي ٥٩ ــ ٦٠ وفي واحدة من كبريات ثانويات البنين ... وقف مدرس يتحدى التاريخ ، الذي سجل ذكر صلاح الدين الأيوبي في مقدمة

---

(١) كاتب هذه العبارة حصل على شهادة (دكتوراه في التاريخ) من امريكة .. ثم شاء الله ان يصبح مدرسا للتاريخ في مكان عزيز على كل مسلم !..

عظماء العرب والاسلام ، فأعلن على طلابه في اصرار بالغ : ان صلاح الدين هذا .. نكرة لم يعرف قط الا يوم جاء الجنرال غورو يركل قبره بقدمه ...

والجديد في هذا التصريح أن صاحبه ليس أميا ولا «شعوبيا» ، بل عروبي من جلدتنا ويتكلم لغتنا ، ويدعي قوميتنا .. ولكنَّ في مواريثه النفسية عقدا لا تحل ، وعطشا لا يرتوي الا بشتم صلاح الدين ، وأمثال صلاح الدين !. ولعل أغرب ما في هذا التصريح أنه انتهى الى مئات الأسماع ، وتناقلته عشرات الألسنة ، ولكن خبراً عنه لم يصل الى مسامع المسئولين في تلك الثانوية ، أو المشرفين على أمر التربية والتعليم في هذا البلد !.

ثم دعني أسرد لك هذه الحادثة ...

تصور أن طالبة استطاعت الاحتفاظ بعقيدتها الاسلامية حتى نهاية دراستها المتوسطة ، والى هذا العهد كانت الوحيدة بين أهل البيت تقوم بأداء واجباتها الدينية من الصلاة والصيام .. بيد أنها ما ان دخلت مضمار القسم الثانوي حتى أخذت هذه الواجبات سبيلها الى الاضمحلال !. وبطريق الاتفاق لاحظت أمها أنها معرضة عن الصلاة هازئة بها .. فعجبت ثم سألت ، واذا هي تسمع الجواب الذي كان مفاجأة غير سارة : (ولمن أصلي !..

وأين هو الله الذي أصلي له !. واذا كان موجودا فما الدليل على أنه قد أرسل محمداً بهذا الدين الذي يأمر بالصلاة !؟.. ان الناس كلهم عاجزون عن اعطائي جواب أي واحد من هذه الاسئلة ... فكيف بها جميعا ؟!) .

وهي قصة سمعتها من مدير سابق للتربية والتعليم في سورية . ثم قصصتها على صديق لي معمَّم ، فضحك ثم قال : انها قريبتي !.. لا تعجب.. ان معظم الصف على طريقتها ... والفضل في ذلك الى الاستاذ .. الذي ما زال بهن حتى طبعهن بلونه !..

ومن قبل شكا الي موظف صغير نَكبته ببناته ، اللواتي لم يعد له سلطان على توجيههن منذ التحاقهن بالمتوسطة ، وكان مما قاله : من البلاء أن أعلم بناتي .. وبلاء أكبر أن أحجزهن في البيت بغير تعليم !..

وهي كلمة ثائرة جاءت تعبيرا عما يضطرب في معظم الصدور ...

تغرير ... أم تحرير !

والحرية يا قارئي هي المطية التي يركبها أولئك الهدامون ، لاحداث كل هذه الثغرات .. انها الباب الذي تطل منه تفاحة الشيطان .. والاستاذ المولع بتهديم

حصون العقيدة انما يقذف ألغامه من هذه النافذة ، ذلك أن لاسم الحرية وقعا سحريا في غرور المراهق ، الـذي تتركز كل قوته في غرائزه الثائرة ، وفي ذاته التي لا يكاد يحس سواها •••

والمدرس الماكر يعرف من أين تؤكل الكتف •• ولا أيسر عليه من أن يأكل الكتف وصاحبها في هذه المعركة ، التي لا تكافؤ فيهـا بين الخصمين •• استمع الى هـذه المحاورة :

ـ نحن هنا في الصف مكلفون فحص كل ما يعترضنا •• فلا نقبل أية فكرة الا بعد أن يسمح لها العقل بالمرور •• والا فأي فارق بين طالب ثانوي وابن الشارع !•

ثم تأتي الخطوة التالية •••

ـ إنك أيها الاخ الطالب انسان ممتاز ، لانك تهب نفسك للعلم ، ولكن العلم نتيجة الحرية ، فما لم تتحرر من كل فكرة سابقة لم يسعك الحصول على المعرفة •••

ثم تتبع ذلك نتيجة المعادلة •••

ـ لقد تقرر لدينا أن كل شيء ينبغي أن يخضـع للبحث الحر •• وكل شيء تعني كل شيء •• حتى عقائدنا الموروثة ، وتقاليدنا المقدسة ، وكل ما سمعنا وعلمنا حتى

الآن .. بهذا فقط نحقق امتيازنا الانساني ، وبه وحده نبرهن على الفرق بين العلم والجهل ، والفرق بين الطالب وابن الشارع ... فأيكم يرضى أن يكون دون مستواه ، فيخضع عقله لموروثات قد يكون فيها الحق والباطل !..

هذه كلمات اذا لم يقلها مدرس فهي ترجمة لما يقوله الكثيرون ... ولا شك أن فيها من البروق المغرية ما يكفي لالقاء بذور الشك في كل شيء ..

وأنّى للطالب الغض تلك العين السحرية التي تريه ما وراءها !. بل أنى لهذا المسكين أن يفطن الى أنه تلقاء مناورة بارعة ، كستار الدخان الذي يطلقه المحاربون عادة لتغطية الزحف !..

وبديهي أن النفس التي أسَرَتها هذه المقدمات، لا تلبث أن تخر تحت مطارق « البحث الحر » حتى تصير أخيرا الى التملص من كل آثار العقيدة !

وهكذا تتبلور الحرية على أيدي هؤلاء (المربين الفضلاء) في معان جديدة من الفوضى الماحقة المنظمة .. وما أيسر — بعد هذا النجاح — أن يُجر الطالب ذلولا مطواعا كالجمل الأنف ، الى الاستهتار بكل ما كان مقدسا بنفسه من قبلُ !..

ومن الظلم أن نتهم العلم بشيء من هذه الجنايات ،

فالعلم لم يكن قط بلاء على فرد أو جماعة ، ولكنه الجو المسموم الذي يخلقه المعلم ، حين يكون من الجاهلين لقداسة العلم ..

وأنت يا قارئي تعلم أن الصيدلي الامين ، هو الذي يركب العلاج وفق مخطط الطبيب ، فاذا ركب رأسه وراح يتصرف بعناصره وفق أهوائه استحال الدواء في يديه سما قاتلا .. وكان أحرى بأن يسمَّى مجرما لا صيدليا . ومثل الصيدلي هو مثل المعلم لا يسلم من احدى الصفتين الأمين أو المجرم . .

لقد أثبتت وزارة التربية والتعليم على أحد وجهي الغلاف ، من الكتب المدرسية ، نص الشعارات التالية ، لتكون كَصُوى الطريق مذكرة للمربين بواجباتهم في كل المناسبات :

هدفنا ...

بناء جيل عربي واعٍ مستنير ..

يؤمن بالله ...

ويثق بنفسه وأمته ..

ويستمسك بمبادىء الحق والخير ..

ويستهدف المثل العليا في السلوك الفردي

والاجتماعي .. الخ ..

وفي كتاب القراءة للصف الاعدادي الثاني فاتحة توجيهية رائعة تقرر :

« .. اننا لنملك ، من قوة الروح ، ومن الايمان بالله ، ومن الشعور بمعاني الأخوة الانسانية بين البشر ، ما يمكننا من أن نضع للعالم تاريخا انسانيا جديداً ... مثل التاريخ الذي صنعه أسلافنا منذ ألف وثلاثمئة سنة ، فلماذا لا نشرق على العالم مرة أخرى برسالة السلام والرحمة ، وناموس الأخوة والمساواة ، لنمحو ما ران من ظلمات الباطل على عقول وقلوب لا تؤمن الا بالمادة !...)

ونحن حين نتأمل في هذه الخطوط المنهجية نطمئن الى سلامة الاتجاه .. اذ نوقن بأن زمام القضية في كنف الوعي والقوة والحكمة ..

ولكن عندما نصطدم بتلك النتائج الملتوية في نفوس أبنائنا لا يسعنا الا أن نتساءل : أين عمل (الصيادلة المخلّطين) من وصفات الأطباء المدققين !! » ..

ان هدف الدولة ينصب على ايجاد الجيل الصالح ، لحمل رسالتنا الاصيلة وهي رسالة واضحة ، عناصرها كما رأيت ، الوعي والايمان والثقة بالنفس والتحقق

بمبادىء الحق والخير والمثل العليا .. فهل ثمة من تناسب بين هذه الغايات وبين واقع الجيل الذي نحسه ونشهده !..

ما أحسب أحدا يقدم على الزعم بأن انحلال الشخصية ، وتفسخ العقيدة ، وفقدان الهدف الروحي ، وتحريف الحقائق ، يمكن أن يكون هو التفسير العملي لهذه المبادىء الكريمة !..

وما ندري كفرا بهذه المبادىء أكثر من ذلك الهجوم المركز ، الذي يشنه بعض المعلمين على معاقل العقيدة الآلهية ، في نفوس أولئك الضحايا من طالباتهم وطلابهم المساكين !..

ومن حق المفكرين المخلصين أن يظلوا قلقين ، حتى يشهدوا بأعينهم تحقيق مبادىء أمتهم في قلوب أبنائهم وبناتهم ، كما لخصتها هذه الكلمات الجميلة !...

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ....

بين التوحد والتعدد

كنا نستقبل المعزّين في ميت عزيز ، وفي البهو عدد كبير من هؤلاء ، بينهم المحامون والأطباء والمدرسون .. وما أدري كيف جر الحديث الى الكلام عن تعدد الزوجات

ولكن لا أزال أذكر أن محاميا من قدماء أصدقائي كان هو الذي أثار الموضوع . وعلى دأبه في التظاهر بالتجدد أخذ يغمز من نظام التعدد ويكشف عوراته .. محاولا أن يجد من القرآن نفسه سنداً لآرائه !..

ولا أعلم كيف وقع في ذهنه على بعض كلمات من آية هنا وآية هناك ، فألف منهن حكما قاطعا بأن التعدد في الاسلام ممنوع !. وكان أكثر الحضور ، على اختلاف ثقافاتهم وسمو شهاداتهم ، لا يكادون يعرفون شيئا من أحكام الاسلام وآيات القرآن ، فوجدت من غير الحق أن تستقر في آذانهم تلك الأخطاء .. فنبهت الصديق المحامي الى ما يعوز رأيه من التحقيق .. غير أنه أبى الاعتراف بذلك ، وأخذ يعيد كلمات القرآن التي ألف منها حكمه قائلا : أليس مظنة التعدد هو قول القرآن « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع / ٤ — ٣ / ثم يأتي في الآية نفسها « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة .. » وبعد ذلك يقول القرآن نفسه (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم / ٤ — ١٢٩ /) وهذا اعلان صريح من القرآن أن العدل غير ممكن ، فالتعدد بالتالي غير مباح لانتفاء الشرط ..»

قلت : هذا تخريج يجوز قبوله لو أن القرآن لم

ينطو على غير هذه الكلمات . أما وانها جزء من آيات، هي جزء من شريعة ، هي جزء من دين ، فلا مجال لتفسيرهـا الا على ضوء الدين كله، مع الاستعانة بحقائق الحياة التي سجلتها وقائع الانسانية خلال هذه القرون التي انقضت على نزول الشريعة .. وهذا معناه بايجاز أن الـرأي الفطير المرتجل لا يصلح للحكم على هذا النظام ، الذي ارتضاه الله ، وانحنى لعظمته أساطين العلـم في الغرب والشرق على السواء ..

.. وكأني بالمحامي العزيز قد دُغدغت كبرياؤه بما سمع ، فراح يتحدثني في أسلوب حاول أن يكون لطيفا : اذن فأنت تؤيد نظام التعدد ، الذي أنكرته أربعة أخماس الانسانية !..

قلت: عندما يكون الأمر خاصا بالاسلام فمن الانصاف أن نتعرف حكمه مجردا عـن أهوائنا الشخصية ... ثم لكل منا بعد ذلك أن يتخذ الموقف الذي يراه ، مع العلم بأن المؤمنين بهذا الدين لا تسمح لهم عقولهم بالاعتراض على شيء من أحكامه ، لأنهم يفهمون قول الله : « انمـا كان قولَ المؤمنين اذا دُعوا الى الله ورسوله ليحكـم بينَهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ... / ٢٤ ــ ٥١ / .

قال ولكن واقع الحياة يقضي أن لا يخرج منطوق القرآن عن الحقيقة ، التي آمن بها العقل وأقرتها الحكمة .. وهي أن الأفراد هو حكم الله ، وأن التعدد غير جائز .

قلت : ولكن هذا تحكم في الواقع والحقيقة والعقل ... لأن شيئا من ذلك لم يكن ، والذين يقولون بهذا الرأي يستندون فقط الى اتجاه الفكر الغربي في موضوع الزوجية ، دون أن يسمحوا لأنفسهم بنقد هذا الاتجاه ، كما يفعلون هم بالنسبة الى الاسلام !. وفي اعتقادي أن قليلا من التفكير الحر في هذا الموضوع يكشف عن حكمة الاسلام في اباحة التعدد ، على وجه لا يدع مجالا لأي اعتراض ..

ورأيت الحضور يفتحون أعينهم دهشا من هذا القول ، وجاء صوت المحامي العزيز يقول : اذن فنحن على استعداد لسماع ما عندك من الاسباب التي تسوّغ التعدد .. اذا كان لهذه الأسباب من وجود !.

قال هذا وهيأ أصابعه ليحصي بها الأسباب التي يجب أن أقدمها !..

قلت : رغم أن المجال لا يتسع لتفصيل ، فلا بأس من ذكر بعض من وجوه هذه الحكمة . وأول ما ألفت

اليه نظرك أن لموضوع التعدد ثلاثة أوجه : تاريخي وفردي واجتماعي ••• فأما من الناحية التاريخية فيكفي تذكرك أن التعدد هو نظام الانسانية كلها قبل الاسلام ، سواء في ذلك الأديان الآلهية والوثنية ، ففي اليهودية لا يزال حتى الساعة هو النظام العمليّ •• وفي المسيحية لم يبطل الا حين اتجهت الكنيسة لفصل المسيحية تشريعيا عن العهد القديم •• بعد أن كانت تُعتَبرُ تجديدا وامتدادا لليهودية نفسها • وهذا لم يتم الا بعد قرون على بعثة السيد المسيح ، حين رأت الكنيسة أن تقف نظام التعدد ، بعد أن فرضت نظام العزوبة على رجال الكنيسة ، فكان طبيعيا أن يحكم رجال الكنيسة على الناس بمنع التعدد ، بعد أن حكموا هم على أنفسهم بمنع التزوج اطلاقا !• فهو حكم كما ترى جاء وليد نظرية تقول : ان مجرد الاتصال الجنسي بين البشر نجاسة تحط من سمو الانسان !••

وفي الجزيرة العربية لم يكن للتعدد حد ، فلما الاسلام لم يكن بدعا في اباحة ما كان نظاما سائدا في البشرية •• وانما جاء ينظم هذا التعدد ، فيحدده أولا بأربع •• ثم بفرض العدالة بين الزوجات في كل ما هو ممكن • ونحن في حاجة لأن نتذكر أن الاسلام لم يفرض التعدد وانما أباحه عند الحاجة ، لذلك كان الوضع الطبيعي في المجتمع الاسلامي أن يكون للرجل زوجة

واحدة . وأنت تستطيع التيقن من ذلك باجراء احصاء دقيق في معظم بلاد الاسلام ، وكأقرب مثل أذكر بلدا كهذا قد لا تجد فيه خمسة بيوت فيها أكثر من الزوجة الواحدة ...

ثم اذا عدنا الى أصل الآيات التي أخذتَ منها حكمك ؛ تتبين ذلك في وضوح وصراحة . فالله تعالى يقول : (فان خِفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مَثنى وثُلاث ورُباع . فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ..) « ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ؛ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ... »

فنحن نرى أن اباحة التعدد جاءت كجواب لشرط الخوف من عدم الاقساط ، وهو شرط يوضح كون اباحة التعدد مقترنة بالضرورة ، فما لم تكن ضرورة لم تكن اباحة ؛ الا أن تحديد الضرورة أمر يتعلق بضمير الفرد ، وشعوره بحاجته ؛ ثم ثقته بقدرته على الاقساط ..

وظاهر من ذكر اليتامى في صدر الآية سبب نزولها . وهو أن بعض أولياء اليتيمات كانوا يسرعون الى التزوج منهن لغير ضرورة ؛ سوى الرغبة في أموالهن ؛ فيعرّضهن ذلك الى بعض المظالم .. فجاءت الآية مانعة لهذا التصرف، ووجهت الناس الى طريق العدالة الصحيحة ، وذلك بأن

منعت الرجل من الزواج باليتيمة لمجرد الرغبة المادية ، حماية لها من الظلم الذي ستتعرض له في هذه الحالة ، وأباحت لهم البحث عن الزوجة في مختلف النساء الأخريات اذ يكونون بذلك مدفوعين بعامل الحاجة اليها ، فلا يكون لهم مطمع في غير المرأة نفسها دون مالها . وأثناء ذلك ذكرتهم بأن مجرد الشك في القدرة على تأمين العدل بين الزوجة والأخرى كاف لوجوب الاكتفاء بالواحدة، ولكن سرعان ما جاء الشطر الآخر يوضح نوع العدل المطلوب بين الزوجات ، حتى لا يتوهم (المحامون) عن الإفراد في الآية حظراً للتعدد .. فبيَّن أن العدل المطلق مستحيل مع الجهد . لذلك على الرجال المعدِّدين أن يراعوا الحكمة في توزيع الحق الممكن على مجموعهنَّ بشكل لا يوقع الحيفَ على واحدة حتى تشعر انها لا مطلقة ولا معلقة.. فهو يلزم المعدِّد أن يعطي أزواجه من نفقته، ومن أنسه، ومن قربه سواء بسواء .. أما ما وراء ذلك من هوى النفس فهو فوق مستطاع الانسان . والرجل منا قد يؤثر بحبه بعض أبنائه على البعض ، ولكنه مع ذلك يعامل الجميع برحمته وعدالته ، فلا يكون ذلك مثارَ اعتراض أو استنكار .. والى مثل هذا أشار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين دعا ربه أن يغفر له عجزه عن التسوية القلبية بين نسائه ، بعد أن استنفد وسعه في العدل المادي فيما بينهن : « اللهم ، هذا قَسمي فيما أملك فلا تلمني

فيما تسلك ولا أملك • »(١) والى هنا بات واضحا فيما أظن أن التعدد ليس محظورا كما توهم الصديق ، ولكنه مشروط بالعدالة المادية الممكنة •• وأنه الى ذلك علاج استثنائي لا وضع أصلي ، فلاوجود له الا عند الضرورات، وانما تباح الضرورات بأقدارها • هذا بعد أن علمنا من الناحية التاريخية أن الاسلام لم يكن بدعا في هذا الباب ، الا من حيث تقييده التعدد بالضرورة والعدالة والعدد ، مما لم يكن له وجود في الشرائع والاعراف السابقة •••

وقد نتساءل عن هذه الضرورة التي يفترض الاسلام وجودها في ظروف الفرد ، حتى يبيح له أن يخرق النظام الأصلي ، ليجعل في عصمته أربع نساء •• وبتعبير آخر ليكون كما وصفه المعري :

تزوج بعد واحدة ثلاثا . وقال لزوجه : يكفيك رُبعي !

وهنا يحق لي فيما أرى أن أذكر الأستاذ ببعض الفروق العضوية بينه وبين المرأة مثلا ، فهو عالم بأن الرجل يظل محتفظا بقدرة لا تتعطل الا من مرض عارض ، وأنه بهذه القدرة المستمرة يظل صالحا للانجاب ، الا لمانع غير طبيعي أيضا ، مما يعد شذوذا في حياة الرجل • يقابل ذلك في

---

(١) رواه ابو داوود والترمذي واحمد .

المرأة عطل لا ينقطع حتى يبدأ من جديد .. ففي كل شهر تفقد قدرتها الانثوية مدة قد تبلغ الأسبوعين ، في عملية الحيض التي تجعلها أكثر من مريضة .. ثم تأتيها عطلة الولادة التي قد تعتريها كل سنة ، وهي قد تستغرق أربعين يوماً ، تفقد فيها أيضا كل قدرتها الزوجية ، حتى اذا احتوتها الخمسون كانت في اجازة شبه دائمة .. هذا فضلا عن طوارىء العقم ، والمرض الذي لا يقل بعضه عن العقم ..

وطبيعي أن نظام الإفراد يقتضي من الزوج في مثل هذه الحالات أحد أمرين : تعطيل قدرته الرجولية اختيارا ، وهذا يتطلب قوة فائقة من الارادة والعفة والايمان ، أو عليه أن يتحلل من قوانين الفضيلة نفسها ، فيستجيب الى غريزته الثائرة ، ليحقق وجوده عن طريق الخليلات ، كما هو الشأن في المجتمع الغربي !. وما أحسب شريفا في الدنيا يمكن أن يفضل هذا الضرب الحقير من التشرد ، على ذلك الحل الحكيم في نظام التعدد ..

ومرة أخرى أذكر الأستاذ بأن الاسلام لا يفرض التعدد بل يبيحه ، فاذا وجد الرجل العف الذي يستطيع الاكتفاء بالواحدة مع الاحتفاظ بشرفه ودينه ، فليس في الاسلام ما يكرهه على التعدد . أما اذا كان الرجل من الطراز الذي لا يستطيع تعديل قدرته ، أو التحكم في

شهوته ؛ فلا شيء ينقذه من السقوط ، ويصون بيته من الهبوط .. الا هذا الحل ، الذي يكون في مثل هذه الحالة كمنافذ السد حين يطغى السيل ، فلا سبيل لتصريفه الا بفتحها ،أو بتركه يتدفق على هواه حيث استطاع،فيتلف الزرع والضرع..وينشر الموت والروع..

... وكان مستحيلا أن يستمر الحديث أكثر من ذلك : في موقف تعزية كالذي كنا عليه .. فوقفت عند هذا الحد بعد أن أحسست استجابة كاملة من الحضور.. واقتناعا داخليا من المحامي ؛ الذي أطاق أصابعه عندما عجز عن احصاء الأسباب !..

حكمة من الغرب

والآن أجدني مسوقاً الى استكمال ذلك البحث بعرض عناصره الاجتماعية كما يراها الناس في كل مكان. والعجيب أن الحياة قد تمخضت بعد تلك الجلسة عن أحداث عدة ؛ جاء كلها داعما لنظرة الاسلام في موضوع التعدد ... ولعل في مقدمة ذلك قرار كبار رجال الدين في انكلترة وعلى رأسهم الدكتور « فشر » بضرورة اعادة النظر في قضية تعدد الزوجات ؛ كحل لا بد منه لتلافي

الأخطار الهائلة التي تزلزل المجتمع الغربي من جراء تعطيل هذا النظام (١) ولعل بين قراء هذا البحث كثيرين من الذين استمعوا قبل مدة الى أخبار الاذاعات الأجنبية ، وهي تعلن ذلك النبأ الهائل ... نبأ الغارة التي شنها رجال الأمن في الولايات المتحدة على قرية بأكملها ؛ يسوقون رجالها ونساءها الى السجون ، ليحاكسوا موقوفين في أكبر جريمة اجتماعية عرفتها أميركة . (٢) .. جريمة انحراف هذه القرية بأجمعها عن النظام السائد في أمريكة والعالم الغربي .. النظام الذي يقضي على نصف

---

(١) نشرت جريدة المنار الدمشقية الخبر التالي : (.. في المؤتمر الذي سيعقد في يونيو القادم يبحث تقرير أعده تسعة عشر من كبار رجال الدين والاجتماع تحت اشراف أسقف (كانتربري) يدعون فيه الى اطلاق حرية الرجال في الزواج بأكثر من واحدة .. وحجتهم أنه بات من الحماقة تجاهل الغرض الذي يحققه تعدد الزوجات في العصر الحديث ..)

(٢) نشرت جريدة (الوحدة الدمشقية) - ٥٩/١٢/١ - الخبر التالي : أخذت موضة تعدد الزوجات تنتشر انتشارا كبيرا في ولاية (أدتا) التي تعتبر مهد طائفة تسمى (المرمون) بسبب من أن العائلات التي تتعدد فيها زوجات رجل واحد تنجب باستمرار أطفالا يشبون ويتبعون الموضة نفسها .. وقد قدم لمجلس المحلفين في بلدة (فارسغتون) تسعة قرارات إتهام بتعدد الزوجات.. ان الصحف الأمريكية كلها تكتب الان حول هذا الموضوع.

النساء أن يبقين بغير أزواج .. وعلى جميع الرجال أن يكتفي كل منهم بزوجة واحدة في سجل النفوس .. ثم ينطلقوا كالبهائم يبحثون عن حظوظ أجسادهم في الأزقة والمراقص و ... النظام الذي يقول للناس : أمامكم الدنيا كلها فاجعلوها ماخوراً كبيرا .. ولكن حَذارِ ثم حذار أن تسلكوا سنن الانبياء والحكماء ، فتعمدوا الى التزوج بأكثر من واحدة من النساء !...

ولكن حملة الحكومة الامريكية على هؤلاء المعدّدين لم تستطع استئصال فكرتهم ، ان لم تكن قد غذتها ، اذ جعلتها حركة اجتماعية ، تستحق أن يتحمل أصحابها في سبيلها العناء والعذاب والاستشهاد . وهناك أكثر من جمعية يجوب أعضاؤها نساء ورجالا مختلف المناطق الأمريكية ، داعين بمحاضراتهم للعودة الى نظام التعدد !. وكان لنتائج الحربين العالميتين أثرها الفعال في تنشيط هذه الحركة ، وبخاصة في أوروبة التي كانت المرتع الأول لنكباتها ؛ حيث تركت الملايين من النساء دون عائل .. وأي الناس من ذوي الحس الانساني يستطيع أن ينسى مآسي النساء الألمانيات ، عقيب الحرب العالمية الثانية ، اذ بعن الأعراض بالخبز والتبغ..وامتلأت محاضن أوروبة، من أقصى الدول الاسكندنافية الى سويسرة ، بالأطفال الذين لفظهم الأمريكيون المهذبون من جنود الاحتلال !..

ثم تركوهم وأمهاتهم عقيب الحرب دون أن يفكروا فيما نشروا خلفهم من الفجائع ، وما غرسوا في ملايين القلوب من الأحقـــاد !..

ولقد هال الدول المحتلة لألمانية الغربية ما اعترى هذه البلاد من أمواج الانحلال .. بسبب فقدان الرجال وزيادة النساء ، الى حد سرعان ما هدد ألمانية بكارثة أخرى .. كارثة لن تقف عند حدود بلادها ، بل هي جديـــرة أن تكتسح أوروبه كلها .. لذلك وجدوا لزامـــا عليهم أن يقدموا على بحث المشكلة في جد . وعقدت المؤتمـرات وعرضت المقترحات ، ثم تمخضت العقول المادية عن حلولها الدَنيَّة ، كما يتمخض الجبل بالفأر !. واذا بهذه الدول المحتلة تقرر الاسهـــام في امتصاص بعض الفيض الهائل من النسوة الألمانيات ، وذلك بنقل عشرات الألوف منهن الى بلادها ، لتوزيعهن على المواخير العامة !..

وطبيعي أن يعتبر مثل هذا الحل شيئا منطقيا وعمليا ، بالنسبة للاتجاه المادي الذي يسود الغرب ، وبالنسبة الى موازينه التي لا تفرق بين أنواع الموزونات .. فهي تعالج الأخلاق كما تعالج السلع على السواء !. غير أن العقـــل الألماني الذي يدرك أكثر من غيره مبلغ الكارثة ، عـــرف كيف يبحث الحل ، الذي من شأنه أن يعالج أسقـــام

الألمان علـى غير الاسلوب الامريكـي الذي يعتبر قتـل المريض هو الوسيلة الفضلى للقضاء على المرض !• وكان الحل هو نفس الحل الطبيعي الذي أوصت به السماء لمثل هذا الداء •• وها هي ذي ألمانية الغربية اليوم تفتـح الطريق السليم أمام جميع دول الغرب •• فتعلمهم كيف يقدمون في شجاعة على انقاذ مجتمعاتهم من البـوار ، بالاتجاه نحو نظام التعدد ••

وماذا يعمل الاسلام أكثر مـن ذلك في مثـل هذه الأزمات !•

وكثيرا ما سئلت من قبل الطلاب، وغيرهم عن حـكم التسرّي وملك اليمين في الاسلام ،•• ولطالما أثيرت هذه المشكلة من قبـل الدساسين مستشرقين ، أو مقلديـن مستغربين ••

وما دمنا في صدد الكلام عن أثر الحروب في كيان المرأة ، وعلاقتها بشريعة التعدد ، فمن الخير أن نلقي هنـا على موضـوع التسرّي ولو نظرة عجلى •• ذلك لأن الحروب هي أهم منابع الرق في الأعراف القديمة •• ولقد رُميَ الاسلام بالمفتريات في هذا الموضوع ، حتى صوره أعداؤه في إطار الدين الاباحي ، الذي لا هم له الا ترويج أسواق النخاسة ، وشحن قصور (الحريم) بالمـواد

الجنسبة !.

ولكي نقف على حقيقة موقف الاسلام من الموضوع، تتذكر مبدأ أساسيا ، هو أن الاسلام بين جميع نظم العالم يعتبر الوحيد الذي يعالج الحرب كشر يجب تجنبه بكل الوسائل الممكنة ، فحتى اذا أكره على خوضها أقدم وفي يمناه السيف ... وفي يسراه النظام ، الذي يكفكف من غلواء النفس ، بالجامها عن الاسترسال في القسوة والتشفي .

الجهاد في الاسلام

أجل ان الاسلام لا يقاتل لتسجيل المآثر والحصول على الرقيق ، كما هو الشأن في الحروب القديسة ، ولا يعتدي على الشعوب الضعيفة لاستدمار بلادها ، وتسخير جماهيرها لتوفير وسائل المتعة والترف للفاتحين ، كما يفعل المستعمرون الغربيون والشرقيون في عصر الذرة والكهرباء ... ولكنه يقاتل « لاخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام(١) » لذلك لا نعدو الواقع

(١) من كلمة اربعي ابن عامر من جنود سعد في القادسب اجاب بها على سؤال من رستم قائد الفرس .

اذا قلنا إنه لا يقاتل الا من قاتله ، تحقيقا لقوله تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين) .

ولكي ندرك مفهوم الجهاد في الاسلام ننظر في هذه الكلمات القليلة ، التي كتبها خالد الى هرمز أحد قادة الفرس في فتح العراق : أما بعد فأسلمْ تسلم ، أو اعتقد نفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية ، والا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة (١) .

فهاهنا المقاصد الثلاثة التي تستهدفها حركة الجهاد الشرعي في الاسلام ، اذ يترك للعدو أن يختار أحدها بملء حريته : الاسلام : فاذا قبله دخل في نطاق الاخوة ، وتوفرت له السلامة من كل أذى ، دون أن يكلفه ذلك شيئا ، سوى تنفيذ تكاليفه في العبادة والعدالة ، والتزام آدابه في حياة الفرد والجماعة .. ثم المشاركة في تبليغ دعوة الله الى الجاهلين بها من عباده .

---

(١) الاصل في هذه المقاصد بيّن في السنة .. من ذلك حديث بريدة برواية مسلم والنسائي وابي داود ـ جمع الفوائد رقم ٦١٧٤ و ٦١٨٢ ـ ووصية الصديق للمجاهدين ـ المصدر نفسه رقم ٦١٧٨ .

وقد يستنكف هذا العدو عن تغيير واقعه الموروث من المخالفة عن دين الله ، فله ما أراد ، ولكن عليه في هذه الحالة أن يخضع لحكم الاسلام في الدماء والاموال وطريقة التعامل ، وهو خضوع لا مندوحة عنه لنشر العدالة في أوساط الذميين ، ولمنع عدوان أقويائهم على ضعفائهم ، وللحيلولة دون استغلال ذوي السلطان منهم لسائرهم في استنزاف طاقاتهم ، وتوجيهها الى الاضرار بمصلحة الدولة الاسلامية ، ومن ثم لاشعار عامتهم بجمال الاسلام ، وتساميه عما ألفوه من النظم الجائرة ، فتنشرح صدورهم لقبوله أخيرا ...

وطبيعي أن ذلك يقتضي دخول القوم في حماية الدولة الاسلامية ، التي عليها أن تمنعهم من كل باغ يريد بهم أو بأموالهم أو بأعراضهم شرا ، لأنها (ان لم تمنعهم فلا شيء عليهم حتى تمنعهم .) كما أقر ذلك خالد (رض) في عهده الذي أعطاه أهل الحيرة(١) .. ولن يتم منعهم

(١و٤و٥) انظر صورة العهد الذي عقده خالد لأهل الحيرة (جمهرة رسائل العرب) ج ١ ص ١٣٢ ــ ١٣٥ . وفي (منتهى الارادات) من فقه الحنابلة : (ولا جزية على صبي ... وامراة ومجنون وقن وزمن واعمى وشيخ فان، وراهب بصومعة .. وخنثى ، ولا فقير غير معتمل يعجز عنها ...) ج ١ ص ٣٣٠ وفي موطأ مالك : (قضت السنة الا جزيةعلى نساء اهل الكتاب ولا على صبيانهم ..)

حتى تتحقق فيهم وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قضى في أهل الكتاب (ألا يهدم لهم بيعة ؛ ولا يخرج لهم قس ، ولا يفتنوا عن دينهم ؛ ما لم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا .. (٢) ... وهو أمر يكلف الدولة المال والأنفس، فلا مندوحة من اسهام القوم فيه بالمال أو الانفس . وقد اكتفى الاسلام منهم ببعض المال يؤدونه في صورة جزية ، تتراوح بين الدينار والأربعة على الفرد (٣) ، ما دام قادرا على ذلك ، فاذا ضاقت يد هذا المعاهد ، فعجز عن الأداء، انقلب واجبه للدولة حقا عليها ، فجعل يأخذ منها حاجته ، كما كان يعطيها عند القدرة .. وذلك ما نراه في عمل الفاروق اذ شاهد شيخا من أهل الذمة يستجدي فوضع عنه الجزية ، ورتب له رزقاً في بيت المال ، وكذلك نرى تطبيق هذا المبدأ في عهد خالد نفسه اذ يستثني من الجزية (من كان فيهم غير ذي يد (٤) .. واذ يقرر (أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ... طرحت جزيته وعيل وعياله من بيت مال

---

(٢) من حديث عبدالله بن عباس عن مصالحته صلى الله عليه وسلم لأهل نجران (٣) من حديث اخرجه ابو داوود وابن ماجه والترمذي عن معاذ ، وحديث آخر لمالك عن أسلم ــ جمع الفوائد رقم ٦٢٢٩ و ٦٢٣٠

المسلمين (٥) ...

فاذا آثر أهل الذمة أن يشاركوا المسلمين في الدفاع عن الأمن العام ، ويقاتلوا معهم أعداءهم ، كان للامام أن يعفيهم من الجزية ، اذا رأى المصلحة في ذلك ، وأن يجعل لهم حقا في الغرم والغنم (٦) ...

ومن هنا نتبين أن الجزية ليست سوى جزاء للدولة ، مقابل ما تبذله من الجهود الكبيرة لتأمين الرعاية التامة لدافعيها ..

أما اذا رفض العدو هذين العرضين ، الاسلام أو الحماية ، فمعنى ذلك أنه يعلن الحرب على الاسلام وأهله ،

---

(٦) أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ر... قاتلوا كالعباس بن مرداس ــ ولم يكن اسلم بعد ــ ورجالا أعطاهم تألفا على غير الاسلام كصفوان بن امية وعيينة بن حصن ــ من حديث رواه مسلم ــ انظر (جمع الفوائد) رقم ٦٢٩٠ وفي (منتهى الارادات) في موضوع الغنائم : (وللراجل ولو كافرا سهم ..) ج ١ ص ٣١٨ .

وليس على أهل الذمة أو المجوس في نخيلهم ولا كرومهم ولا زروعهم ولا مواشيهم صدقة ــ زكاة ــ ... »

وأ نه مصر علــى الحيلولة بين شعبه وبين الاطلاع على حقيقة الدعوة ، ابقاء له في ظلمات الجاهلية ، وفي خدمة هؤلاء الطواغيت ، الذيــن لا يتورعون أن يحشوا قلوب أولئك العامة من أتباعهم حقدا على الاسلام وأهله ، بمــا ينسجونه من الافتراآت البشعة على نبي الاسلام ودعوته، التي أرسله بها الله رحمة للعــالمين .. كما هو الشأن في أوروبة وأمريكة ، حيث تتعاون الصليبية والصهيونية على تشويه سمعة الاسلام ورسوله في أعين الجماهير ، بكل ما تملك من وسائل الدعاية المركزة ... وهذا يعني أيضا أن لا سلامَ للمسلمين ولا أمن لهم الا بمقدار ما يملكون من قدرة للدفاع عن وجودهم ، ودينهم (حتى لا تكونَ فتنة ، ويكونَ الدينُ لله ٢ ــ ١٩٣) ...

وما نحسب عاقلا منصفا يجد سبيلا الى لوم المسلمبن في هذه الحالة ، اذا هم عمدوا الى الجهاد ذياداً عن دين الله ، وقــد صمم الكافرون به عــلى استئصالهم ، او يرتــدوا عنــه ! ..

لا سبيل الى السلام

ولعل متعنتاً يقول : ان المسلمين يستطيعون العيش بسلام ، اذا هم كفوا عن مقاصدهم الثلاثة هذه ، وحصروا همهم في شؤنهم الخاصة ، فلا يتدخلون في عقائــد

الشعوب الأخرى ، وفي أنظمتها السياسية أو الاجتماعية !.

ولكن كلاماً كهذا لا يجد قبولا الا عند من لا يفهمون واقع الحياة من حولهم ، ولمثل هذا المتعنت نسوق جوابنا في الملاحظات التالية :

أولا : ان المسلم يؤمن بكل وجوده أن الاسلام هو نور الله ، حمّله أمانة تبليغه عبادَه ، فليس هو حراً في أداء هذه الأمانة أو منعها .. ولا سبيل له الى التهاون في ايصالها الى الآخرين ، كيلا يكون للناس حجة على الله . وذلك هو منطق القرآن الذي يأمر الله به رسوله أن (قلْ هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني ١٢ ـ ١٠٨) .

ثانيا : اذا كان الشيوعي مستعداً لتدمير الدنيا في سبيل نشر مبادئه انهدامة ، واذا كان الديمقراطي مستميتا للدفاع عن ما يسميه حرية الانسان ، واذا كان الوجودي، الداعي الى افساد الحياة البشرية ، غير مستعد للتساهل في أهوائه قيدَ شعرة ... واذا كان دعاة النصرانية يحتملون شظف العيش ، ويعرضون أنفسهم للموت في مجاهل الارض سعياً وراء اشاعة تثليثهم وتنصير العالم البشري ... واذا كان اليهودي التائه مستعدا لاستغلال كل وسيلة ـ مهما تبلغ من الظلم ـ في سبيل اقامة

اسرائيل ، وترويض القطيع البشري لتوجيهاته الشريرة...

اذا كان لكل هؤلاء وغيرهم أن يعملوا كل ما في وسعهم لتحقيق أنظمتهم الجاهلية ، فلماذا يراد من المسلم وحده أن يحبس دينه في بيته ، بل في حدود ذاته ، وهو موقن أتم اليقين أن هذا الدين هو سبيل الله الوحيدة لانقاذ البشرية من شقائها الذي ينيخ بكلكله على صدر العالم بأسره !...

ثالثا : لو كان هذا المتعنت نافذ البصر ، بحيث يرى الى ما يحيط بالمسلمين في حاضرهم ، وما أحاط بهم في ماضيهم ، لعلم بيقين أن أهل العقائد الباطلة ليسوا مستعدين أبدا لمسالمة أهل الاسلام ، بل ليسوا مستعدين للابقاء عليهم اذا استطاعوا استئصالهم من الأرض ... وله في إجلاء الاسلام عن اسبانية بالأمس ، ومذابح المسلمين اليوم في قبرص وكشمير والحبشة وزنجبار .. وانتزاع عقيدة الاسلام من صدور خمسين مليونا في روسيا ، ومثلهم في الصين ، ثم في اغتصاب القلة المسيحية أزمة الحكم من الكثرة المسلمة في معظم دول أفريقية .. له في ذلك خير شاف لأوهامه ، ومصحح لاحكامه ، اذ يدرك ساعتئذ أن علاقة الاسلام بالجماعة البشرية لا يجوز أن تنهض الا على أساس من تلك المقاصد الثلاثة الخالدة.. لأنه شاء أو أبى في معركة أبدية مع أعداء لا يعرفون في

معاملته إنصافا ، ولا يتورعون في حرب دعاته عن استعمال أي سلاح !..

ومن هنا يتضح أن الجهاد في الاسلام جهاد دفاع عن الوجود وعن العقيدة .. وأنه لا يقاتل الا من قاتله ، ولا يعتدي على من سالمه .. ويستجيب لكل دعوة صادقة الى السلم ، تتيح له عرض هدايته على الخلق ، (وإن جنَحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله ٨ — ٦١) .

التسري علاج كريم

فاذا وضعت الحرب أوزارها نهض يغسل أوضارها ، بما يفيض على المغلوبين من روحه الانساني ، فلا يضطر نساء هؤلاء الى عرض أجسادهن في السوق السوداء ، من أجل الحصول على لقمة العيش ، ولا يرضى باكراههن على البغاء فيوزعهن على المواخير ، كما صنعت أميركة وحلفاؤها ... ولكنه يعتبرهن أمانة في يد الدولة تضعها في أصحاب الحق من جنودها .. ولا شك أن مجرد التصرف بهن على هذا الشكل قد يعده السطحيون ضربا من الاهدار للقيمة الانسانية فيهن .. ولكن لا ننسَ أننا تلقاء ظروف شاذة ،لها أحكامها الاستثنائية . ثم قبل أن تتعجل الحكم على هذا النظام يجب أن تتتبع وضع هؤلاء المملوكات في ظل الاسلام .. وقبل ذلك نستقرىء ما

كان عليه الرقيق قبل الاسلام ، لنتبين التطورات التي أدخلها على أحكامه من الناحية الحقوقية والانسانية .

لقد أطل فجر الاسلام ، والرقيق عصب النظام الاقتصادي والاجتماعي في العالم كله ، فلم يكن من الحكمة أن يعمد الى الغائه بقرار يحدد لامتصاصه سنوات معدودات .. كما يريدُ امبراطور الحبشة مثلا : أن يقتلع جذور الاسلام من ملايين شعبه خلال اثنتي عشرة سنة !. — حسب تصريحه في مؤتمر صحفي بأمريكة ! — وانما عليه فقط أن يضع للرقيق النظام الذي يوفر له حقه في حياة لا هوانَ فيها ولا اذلال ولا ارهاق .. ثم يُنظِّم له المجاري التي تصير به الى التصفية ...

لقد بدأ الاسلام أول كل شيء برفع سوية الرقيق الى المكان اللائق بالانسان ، وهذا ما رأيناه في تغييره طريقة معاملته . فبينما كان المملوك في العالم كله مسلوب الصفة الانسانية ، اذ يعامل بأدنى من معاملة الحيوان ، حتى لتبيح القوانين الرومانية والهندية للسيد قتله وتشويهه والتمثيل به !. جاء الاسلام ليسويه بسيده في الحق الانساني ، حتى ليقول رسول الله في الحديث المتفق عليه : (اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم .. فمن جعل الله أخاه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس .. ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فان كلفه ما يغلبه

فليعنه عليه) ولقد نهي الرسول عن التهوين من شأن الرقيق، بما اعتاد الناس أن ينبذوه به من سمات العبودية، فقال صلى الله عليه وسلم : (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي) (١) •• وفي بعض الأحيـان جعل مجرد ضرب المملوك موجبا لعتقه • وهي على كل حال سيـاسة تضيّق ما بين السيد والمملوك ، وتربيه على روح الحرية التي تزيل من نفسه نقائص الرق ، حتى اذا جاءه العتـق كان حريا أن يتصرف تصرف الأحرار•وبهذا اللون الكريم من السياسة الاسلامية للرقيق،رأينا الكثيرين منهم يلمعون في تاريخ الاسلام ، حتى يكون منهم أئمة الدين وكبـار القادة •• وحتى لنجد منهم دولة قامت في بعض الأيـام بأعظم مهمات الدفاع عن هذا الوطن !• وحسب الرقيق شرفاً في ظل الاسلام قول عمر بن الخطاب : وهو فـي غمرات الاحتضار • (لو كان سالم ــ مولى أبي حذيفة ــ حيا ما جعلتها شورى) يريد أنه كان يصدر عن رأيه في من يوليه الخلافة بعده (٢) •••

لم يكتف الاسلام بهذا الضرب من استصـــلاح الرقيق •• بل فتح لتحريره أبوابا لا تغلق ما دام فـي الأرض كلها مملوك واحد • لقد أكد على حرية الانسان حتى جعل اغتصابها احدى الجرائم الثلاث التي تضع

---

(١) من حديث في الصحيحين •• (٢) أسد الغابة ج ٢ ••

صاحبها في خصومة مع الله (١) . وفتح في ميزانية الدولة اعتماداً خاصاً لعتق الأرقاء ، ثم حبب العتق للمؤمنين حتى جعله من أفضل القربات ... كما جعل للعبد حقا في تحرير نفسه بالمكاتبة ، وهي أن يشتري العبد نفسه من مالكه بمال يتفقان عليه ، فيؤديه من عمله نجوما على قدر طاقته .. وعلى هذا الاساس نظر الاسلام الى المملوكات ، ففتح لهن منافذ للتحرر في مقدمتها الولادة ، فكل مملوكة أتت من سيدها بولد كان ولدها هذا حرا بنفسه محررا لأمه (٢) .. ومن أجل هذا أباح الاسلام للرجل أن يتسرّى ما شاء من الجواري دون عقد ولا عد ، توصلا الى تحريرهن . وهو منفذ واسع ، كان من حكمة الاسلام أن يفتحه بوجوه هؤلاء البائسات .. بعد أن أمّن لهن ، بشرائعه الرحيمة كما أسلفنا ، ضروبا من

---

(١) في الحديث القدسي (ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا ثم اكل ثمنه ، ورجل إستأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعطه اجره .) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في باب البيع والاجارة .

(٢) عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن بيع أمهات الأولاد ، وقال : (لا يبعن ولا يوهبن ولا يورثن ...) من حديث رواه الدارقطني ومالك في الموطأ. ـ انظر سبل السلام ـ ما جاء في أم الولد ...

المعاملة الكريمة ، لم يعرف لها الرقيق مثيلا في غير مجتمع الاسلام ...

ولا بد من التذكير بما قدمناه من أن الأصل الوحيد لموارد الرق في حكم الاسلام هو الحرب ، ومع ذلك فالاسلام لم يجعل الاسترقاق في الحرب أمرا مفروضا أو أبديا . بل لم يشر اليه القرآن قط كنظام عملي ، ولعل العكس هو الصحيح .. اذ عيَّن مصير الأسير في احدى سبيلين : العفو أو الفداء .. وذلك في قوله تعالى : (.. حتى اذا أثخنتموهم فشُدوا الوَثاق .. فإما مناً بعدُ وإما فداء .. حتى تضعَ الحربُ أوزارها ٤٧ — ٤) .. وقد ثبت من السنة إباحة الاسترقاق في الحرب ، وبذلك ترك هذا الحق في يد الامام ، فهو في شأن الاسرى مخير بين اطلاق سراحهم مناً بغير مقابل ، أو اطلاقهم مقابل مال معين ، أو استرقاقهم لمصلحة المسلمين .. وبديهي أن الهدف من التخيير في مثل هذه الحالة ، هو اعطاء الدولة المسلمة حق تقدير الظروف ، بحيث تختار الأفضل للمصلحة ، والاليق بدين الرحمة .. ولكن التخيير على كل حال لا يلزم الامام بالاسترقاق ، لأنه موضوع اباحة تستعمل وفق المصلحة ، لا موضوع إيجاب لا مفر منه .. وفي ظني أن بقاء الاسترقاق الحربي في ظل الدولة الاسلامية لا يعدو كونه تدبيراً يستهدف

المقابلة الحافظة لهيبتها •• فاذا كان من أنظمة المحارب استرقاق أسرى المسلمين ، لم يكن بد من مواجهته بالمثل •• والا فالحرية هي الأصل وهي فطرة الله ••

ومهما يسرف الأفاكون في تشويه حقيقة الاسلام بازاء موضوع الرق ، يظل هو النظام الوحيد الحافظ لكرامة الانسان ، ولا سبيل البتة للمقارنة بينه وبين غيره في هذا الميدان • وهذا واقع البشرية في ظل الشيوعية والديموقراطية ، وهما المتناطحتان على سيادة العالم ، أبرز الدلائل على سموه ، وانحطاطهما •• فهما يدّعيان الدفاع عن الحرية ، وأيديهما ملطخة بدماء عشرات الملايين من ضحاياهما البشرية في الشرق والغرب !•

هذه أمريكة التي تزعم أنها السابقة لمحو الرق في العالم ، لا يتاح فيها لزنجي من مواطنيها دخول مدرسة حتى الساعة الا بحماية الحراب !•• وفي قوانين التميز العنصري ــ في جنوب أفريقية وروديسية ــ أوضح تفسير لمفهوم الحرية عند هؤلاء الغربيين ، الذين لا يفهمون للحرية معنى خارج حدود بيوتهم •• واني لأكتب هذه الكلمات وفي أعماقي كلمة (باتريس لومومبا) رئيس أول وزارة للكونغو البلجيكية بعد الاستقلال يعلن فيها : أن بلاده في فراغ من الاطباء والخدمات الصحية ، لأن

الاستعمار البلجيكي الذي بسط ظلاله ثمانين سنة على الكونغو ، يغادرها اليوم وليس فيها طبيب ولا مهندس من أبنائها !.. » .

هذا وليس الاستعباد الشيوعي بأقل هولا واجراماً من الاستعمار الديموقراطي ... وفي ملايين المعذبين في سيبرية ، وعشرات الملايين المحبوسين وراء سور برلين ، ودبابات الجيش الأحمر في المجر ثم تشيكوسلوفاكية . وفي عشرات الملايين من المسلمين الذين أخرجوا من دينهم في الاتحاد السوفييتي ، وأمثالهم من مسلمي الصين ، الذي يفرضه عدو الانسانية « ماوتسي تونغ »..

ان في هذا وذاك لشواهد دامغة ، على أن الانسانية قد فقدت كل قيمة في جحيم الشيوعية ...

ثم ان في هذا وذاك ما يؤكد للدنيا من جديد أن البشرية لا تعرف العدالة والكرامة الا في ظل الاسلام ، دين الله الخالد ، الذي جعله الله الوسيلة الفضلى لاخراج الناس من ظلمات الهمجية ، الى أنوار الأخوة الربانية ...

لو كان الاسلام

والآن وعلى ضوء هذه الحقائق يسعنا أن نتصور الحل الذي تلقاه مشكلة أولئك الألمانيات .. لو كان

الاسلام هو الذي دخل ألمانية محتلا . انهن يومئذ سيكنّ
حتما في بيوت كريمة يسعدن فيها بلون من الرعاية لا
يمكن أن يتاح لبغيات المواخير . أما أولادهن فلن يُلقوا
اذ ذاك في الشوارع ، كما حدث لأبناء الألوف من جنود
الامريكيين في ألمانية وأسوج وبقية الأقطار الاوروبية ..
بل ينعمون بدفء الأبوة ورحمة الامومة ، وتُفتَح
السبل لمواهبهم حتى يتسنموا ما يستطيعون من مراتب
التفوق في ظل تكافؤ الفرص الذي يحققه نظام الاسلام..
وحسبنا هنا أن نذكر أن عددا من خلفاء الاسلام أنفسهم
ولدوا من إماء أمثال هؤلاء ، ومنهم الهادي والمهدي
والرشيد هارون نفسه !.ومن هنا ترى أن لا مجال للمقارنة
بين موقف أميركة وموقف الاسلام من هذه المشكلة ،
فأميركة عالجت معضلة المرأة الألمانية بنفس الروح الذي
عالجت به قضية هيروشيمة وناغازاكي وفلسطين .. روح
(البراغماتيزم) الذي يستحل القضاء على مئات ألوف
الأبرياء وراء خطوط القتال ، لشل حركة المحاربين ..
والذي يبيح تشريد مليون عربي ، ليجعل من بيوتهم
ومدافن آبائهم وجدودهم ، مرتعا لأنصارها من شذاذ
الآفاق ولصوص العالم ، ثم لا يستحيي رئيسها أن يزعم
الايمان بالمسيحية ، ولا يخجل وزير خارجيتها أن يدّعي
الدفاع عن هذه المسيحية في معركة أميركة مع

الشيوعية ، فجعل نفسه بذلك هزأة العالم •• حتى يقول خروتشيف صادقا : (انني أقرب من دالس الى الآله الذي يزعم أنه من قِدّيسيه !) •

أجل •• ان أميركة قد عالجت قضية المرأة الألمانية بنفس هذه الروح ، التي تقتـــل الشعوب ، وهي ترسم اشارة الصليب !• وهذه بالطبع غير روح الاسلام ، الذي يعتبر الحرب داء يجب أن يُضيِّق مساحـــةَ شروره جهد الامكان ، فلا يجهز على جريح ، و لايحرم خصمه المهزوم الوسائل التي تحفظ له انسانيته ، وترد له عزاءه ، وتضمد جراحه •• و لاعجب فكل إناء بالذي فيه ينضح •

علـى العمياء

وبعد فهذا عرض موجز لقضية التعدد وملابساته ، لا يملك معها العقل الا الاقرار بأنها أحـــد انتصارات الاسلام ، وهي واحدة من قضايا كثيرة ، حاول المرجفون قديما أن يتخذوا منها مطعنا على هذا الدين ، فجـــاءت الأحداث العالمية تؤكد أنها من امتيازاته ومعجزاتـــــه الخالـــدة ••

ولقد حاول النظام الكمالي في تركية أن يُعفِّي على كل آثار الاسلام بالفناء في مدنية الغرب على علاتهـــا ، فحرّم التعدد ، وبذلك حرم المجتمع التركي أحد صمامات الأمان الكبرى ، واذا بهذا المجتمع أخيرا يأخذ طريقه الى

نفس الهاوية التي سبقه اليها الغرب !. وسرعان ما سرت عدوى الشعوبية الكمالية الى حياة العرب فاذا الكثرة من الجيل الجديد يصفقون لها في حماسة ، واذا هي تطبع الكثير من مظاهر وجودهم ، وبخاصـــــة في النواحي الاجتماعية والسياسية والقانونية !. وها هي ذي تركيـة اليوم تسقط فريسة الرزايا المختلفة ، كنتيجة طبيعيـــة لانحرافها عن جادة الاسلام .. ومع ذلك لا تزال الحماسة لانحرافاتها هي المسيطرة على أفكار هذه الفئة ، التـــي فرحت بما عندها من العلم ، وأعرضت عن تراثها الآلهي ، لتستبدل به هذه الفقاعات التي توشك أن تنسف العالم أجمع .. فمثلنا ومثل تركية في هذا كما قال الشاعر :

أعمى يقـود بصيرا .. لا أبـا لكـم
قـد ضـل من كانت العميان تهديـه !

ثم ها هو ذا قطر عربي يسبق أخواته العربيات في متابعة الفتنة الكمالية ، فيصدر رئيسه قانون منـع التعدد .. وياليته فكر قليلا ، وصبر يسيرا ، ليطلع على قـرار رجـال الكنيسة الانكليزية في الدعوة الى التعدد ، ولو فعل لرأى يومئذ أن من حقه المفاخـرة بكون بـلاده هي السابقة لهذا الخير ، وأن أوروبة بدأت تعود سيرتهـــا الاولى للاقتباس مـن فضائل بـلاده وأخواتها في هذا الميدان !.

وقبل ذلك سبقت بعض الأقطار العربية الى إقحام المرأة معارك السياسه الانتخابيةلا اقتناعاً بسداد هذه الخطوة.. بل تأثرا بالبدعة الكمالية في هذا الموضوع أيضا !.

وقدحدث كل ذلك دونأن نكلف أنفسنا عناء البحث الجذري في شئون حساسة كهذه ، من شأنها أن تذهب بالأجيال يميناً أو شمالا .. بل دون أن نذكر أن هـذه موضوعات لا تزال لدى الغرب نفسه في حيز التجـربة !. وفي اعتقادي أن الكثرة من رجال العرب ، المنادين بهذه الاتجاهات ، لو أنهم درسوا أسبابها في الغرب لندموا على تسرعهم ، إذ يعلمون ان للغرب من الظروف ما ليس لنا ، ولا سيما أن الأحكام الاجتماعية في كل أمة انما هي حصيلة تطورات شبه جبريّة ، لا يقاس عليها الا مثلها.

وها هو ذا أحد الأصدقاء يقدم اليّ الساعة العدد ٧٢٣ من جريدة أخبار اليوم ، مشيرا منه الى مقال طريف عن المرأة الألمانيـة بقلم (أحمد الزين) .. أنقـل منـه للقارىء الفقرات التالية : (المرأة الالمانية تريد رجلا .. تنظف له البيت ، وتعد له الطعام ، وتغسل له وتكوي .. وبذلك تكون (فخورة) سعيدة لأنها تعيش لزوجها فقط .. قالت لي أستاذة في الجامعة : ان حل مشكلة المرأة في ألمانية هو في اباحة تعدد الزوجات .. وأنها شخصيـا مستعدة أن تقاسم امرأة في رجل .. هناك رجال ممكن

أن يتزوجوا واحدة فقط.. ولكن هناك رجال بامكانهم أن يسعدوا عشر نساء في وقت واحد .. انني أفضل أن أكون زوجة على عشر لرجل ممتاز ، على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل تافه فاشل .. إن هذا ليس رأيي وحدي.. انه رأي كل نساء ألمانية ..) !! ..

وهذا كلام لا يختلقه كاتبه خدمة للاسلام أو الأخلاق ولكنه ينقله حصيلة لدراسة موضوعية عن قضية الساعة في المجتمع الالماني .. المجتمع الذي نهكته الحرب ، فتركت نساءه يشعرن أكثر من كل نساء العالم بنقص الرجال .. ومن ثم يبحثن بهدي الفطرة عن أفضل الحلول لهذه الازمة الرهيبة .. فلا يجدن سوى الحل الذي قدمه الاسلام .. الحل الذي يحفظ للمرأة اعتبارها الانساني.. وللمجتمع اطمئنانه الوجداني .. ولكنه مع الأسف بعيد عن مفهوم الجيل المستغرب من أبناء العروبة والاسلام !.

أما موضوع اشتراك المرأة الغربية في ميادين الانتخاب ، فقد أصبح معلوما أنها دُفعت اليه مضطرة .. ذلك أنه كان نتيجة الضرورات الاجتماعية التي بلغت ذروتها أثناء الحرب العالمية الأولى بوجه خاص .. حين وجدت المرأة هناك نفسها محرومة من العائل ، فسيقت الى المصانع والأسواق والمصالح . لملء الفراغ الذي أحدثه غياب الرجل في سوح القتال ، ولما انتهت الحرب كان

مستحيلا أن تعود الى البيت، لهلاك الكثيرين من العائلين، ولحاجة المجتمع الى مضاعفة الانتاج •• ولا سيما في المواد الضرورية •

ثم مضى الركب في هذا المنحدر بقوة الاستمرار •• وأصبح مألوفا أن تكون المرأة عامل دخل وانتاج ، فلا تجدزوجا الا اذا كان في دخلها ما يغري • وكان طبيعيا أن ترتّب الأوضاع على أساس كون المرأة خارج البيت ، فأقيمت المحاضن ورياض الاطفال ، وسرعان ما تحول البيت شبه فندق ، لا يلتقي فيه الزوجان الا ساعات النوم أو أيام العطل • وهكذا أكرهت المرأة على التفكير بتنظيم وضعها الجديد ، على أساس يضمن لها حقوقها كعاملة ، في وسط لا يسوي في الأجر بين الذكر والانثى •• وهذا حق لها طبيعي لا يمكن توفره ما دام الرجال هم وحدهم الذين يشرعون القوانين فلا يحسون شقاء النساء • ومن هنا بدأت جماهير النسوة ، في بعض أنحاء أوروبة زحفهن الى البرلمان •• وبعد شياط ومياط أتيح لهن الظفر ببعض هذا الحق ، فدخلن المجالس النيابية ، في نسبة لا تزال حتى الآن بعيدة عن المستوى الذي يتفق مع حقوقهن المكتسبة ••

ولا أدل على هذه الحقيقة من أن قطرا أوروبيا

كسويسرة لم يجد نفسه حتى الساعــة في حاجة لاقحام المرأة معامع العمل السياسي ، لسبب واحد •• هــو ان سويسرة سلست من فجائع الحروب ، فلم تضطر نساؤها الى خوض هذه المهامه !•

واني لأقرأ الآن في دهشة هذا النبأ ، الذي تناقلته كبريات الصحف العالمية والذي يقول : (ان نتائج الاستفتاء الذي جرى في سويسرة حول تعديل الدستور ، لمنح المرأة حق العضوية في البرلمانات النيابية ، قد أسفر عن اندحار أنصار هذا المقترح ، الذي لم يحز أكثرية الأصوات ــ كما تقول الأسوشيتدبرس ــ الا في ثلاث مناطق مــــن أصل الاثنتين والعشرين ••) !

ذلك هو وضع المرأة في الغرب ، وتلك هي قصــة حقوقها السياسية بايجاز •• ولو سئلتْ أي عاملة هناك عما اذا كانت تفضل وضعها الحاضر ، عاملة ناعمــــــة محتفظة بحقها في الترشيح والانتخاب ، على عودتها الى البيت راضية مطمئنة ، رفيقة مودة وبانية أسرة •• لمــــا ترددت في ايثار العيش الزوجي على كل هذه الحقـــوق المصطنعة ••

وها نحن أولاء نرى عددا غير قليل من النسوة الغربيات ، جيء بهن زوجات الى بلادنا،فهن يعشن في بيوت أزواجهن

المحافظين سعيدات ، لأنهن وجدن في ظلهـــا حقيقتهن الضائعة !• ولعل من المستغرب أن يرتدي بعضهن الملاءة•• وتقر في البيت لا تخرج الا لضرورة قاهرة •• كأكثـــر المسلسات حفاظا على تقاليد المجتمع الأصيل •• وهن بذلك ناعمات البال، تضحكن في سرّهنّ من هذه الألاعيب التي تقوم بها بعض الجمعيات النسائية ، حيث تدعو الى حرمان المرأة العربية تلك السعادة . التي لا تحلم المرأة الغربيـــة المتزنة بأكثر منها ••

لـولا الأثرة

أما معارضة التعـــدد ــ بعد هذا كله ــ فلا أجد لهـــا مسوّغا في بلاد العرب سوى الولع بالتقليد والتنافس السياسي • يضاف الى ذلك نزعة الاحتكار في طبيعـــة المرأة •• تلك النزعة التي زادها غرور التعليم تضخما ، حتى أوشكت أن تتحول الى نوع من السرطان النفسي انها بهذه النزعة من ايثار الذات تقدم على تطويق زوجها بالحواجز الكثيفة ، فلا ترضى منه الا أن يضيق مركـــز البصر في عينيه ، حتى لا يلمح في الكون غير شخصهـــا الكريم !•• وهي مستعدة للجنـــون اذا سمعته يذكر أي امرأة بخير !• وقد سمعتُ امرأة تدافع عن هذه الطبيعة الاحتكارية بكل ما أوتيت من ثورة وعصبية ، ثم تسألني في تحد : (لِمَ لا يكـــون للمرأة حق التعدد أيضا ••؟)

فقلت في هدوء: (لكي يعرف الانسان أباه يا سيدة !.)
ولو شئت لقلت : (ان تعدد الزوجات يضاعف خصوبة الحياة ، بينما تعدد الرجال يعقم الحياة ، اذ يفقد المرأة قدرة التناسل مطلقا .. كما يقرر العلم . هذا فضلا عن أن هذه القدرة الطبيعية للمرأة لا تتجاوز الواحد الى العشرة بالنسبة الى ما يقابلها عند الرجل !..)

وفي اعتقادي أن المرأة وأخص العربية ، لولا هذه الأثرة القاتلة لكانت أحرص من غيرها على الدعوة الى التعدد عند الضرورات العامة .. كيف لا وهي ترى يومئذ هذا العديد الضخم من أخواتها العانسات والبائسات من الأرامل والفتيات ، فتعلم ألاّ سبيل الى انقاذهن من براثن الشقاء الا بالتعدد . ولو أننا أجرينا احصاء دقيقا في أوساطنا العائلية لوجدنا في كل مجموعة من القرابات عددا من المنبوذات .. فرض على الواحدة منهن أن تكتفي من الحياة بخدمة أهلها دون أن تأمل بتأسيس أسرة لها !. فلو تصدقنا على كل واحدة منهن بربع زوج لكشفنا غيوم التعاسة عن هذه البيوت ، ولقدمنا بالتالي الى وطننا قوى جديدة هو أحوج ما يكون اليها في ظروفه الحاضرة . ونحن العرب شد ما يعوزنا تقدير حاجاتنا لمضاعفة ما نملكه من الطاقات البشرية ، في هذه المعركة التي نخوضها مع الاستعمار ومع التخلف ... ومن المؤسف أن معظمنا

لا يدرك عظم الرقعة التي يحتلها وطنه العربي من الأرض ، وعظم ثروته الاقتصادية التي تستوعب أضعاف سكانه وأضعاف طاقاته العاملة ...!

ولكن هذا كله لا يمكن أن نطمح بأبصارنا اليه ما لم نعرف مهمتنا في هذه الحياة أولا ، ثم ندرك أن الحياة نفسها لا يكون لها معنى صحيح ما لم تقم على أساس من العطاء المستمر .. العطاء الذي يجعل الفرد كالشمس في هباتها للأرض .. تعطي الخصب والنور والدفء لا تريد على ذلك جزاء ولا شكورا . وعندما نؤمن بهذا سيكون يسيرا علينا أن نتعلم كيف نضحي بأثرتنا من أجل وطننا وحريتنا ورسالتنا . ويومئذ ستسمو مقاييسنا الاجتاعية حتى تلتقي بالموازين الآلهية التي لا تخطيء، ويومئذ ستحتل المرأة العربية مكانها الحق الذي بوأها الله اياه كبانية للمجتمع وصانعة للتاريخ ..

أكبادنا التي تمشي

والحديث عن المرأة لا يستوفي غايته اذا أغفل جانب الطفولة . وكما أن غاية الشجرة هي ثمرتها التي تميز قيمتها وتحفظ استمرارها .. وما عدا ذلك من الظل والزهر والورق فشروط طبيعية لتحقيق تلك الغاية ، كذلك كان الطفل غاية الدوافع الحيوية جميعا . فمن أجله زود الله

الذكر والانثى بدوافع الجنس ، وأحاط هاتيك النوازع بالمشوقات ، التي تحث النوعين على تحقيق ذلك الهدف الذي به تستمر الحياة !.

وإذا كان للطفل كل هذه الأهمية في نظام الحياة .. فأحر به أن يكون موضع الاهتمام من حيث تنشئته ، والحفاظ عليه ، وتوفير الشروط الصالحة لتكوينه الروحي والجسدي .. طفلا وحدثاً ومراهقا .

ونحن الذين نَمُنّ دائماً على الولد بما نبذله في سبيله من مجهود ، ننسى فضله هو الآخر علينا !. ننسى أنه المخلوق الذي جعله الله سببا لتفجير الكثير من منابع الخير في قلوبنا .. وأنه كان ـ بعد الأبوين ـ المدرسة الكبرى ، التي درسنا فيها برامج كاملة من التضحية والايثار والاعطاء بغير مقابل ..

أجل لقد علّمنا الولدُ الكثير من هذه الفضائل : وعن طريق التطبيق علّمنا كيف نكون صُبُراً في السهر على خدمة الآخرين .. وكيف نطأمن من كبريائنا في الخضوع لقوانين الحياة ، وكيف نحسن الانتظام في صفوف الجماعة ، كأعضاء حية تهب من ذات نفسها لتحقق واجبها في خدمة الكل .

وقد كنت أتوهم أن أكثر الناس رحمة للناس هم

الذين حُرِموا نعمة الأبوة ، لعقم أو مرض أو ترهُّب فأصبحوا جديرين بتوزيع عواطفهم على مختلف البشر دون تخصيص .. ولكن سرعان ما كشفت لي التجربة ان هؤلاء هم أشد خلق الله حاجة الى من يعلمهم الرحمة .. لأنهم لم يُتَح لهم الطفل الذي يفتق في صدورهم براعم الحب ، ويربيهم على التضحية ،ويذيقهم جمال الإيثار !. حتى لترى بينهم أكبر نسبة من بخلاء المجتمع ، الذين يأخذون ولا يعطون .. وأكبر نسبة من الطغاة الذين اشتعلت قلوبهم حقداً على الانسانية .. الا من رحم الله !

أجل .. من حق هذا المخلوق الحبيب ، الذي علمنا كل هذا الخير ، أن نرد اليه بعض جميله ، فنهب له من عنايتنا ، ونعطيه من خبراتنا ما يهييء له جوا سعيدا ، تتفاعل في ظله طاقاته ، في انسجام يؤمن له المستقبل المنشود .. ونؤمن لأمتنا به امتداد الوجود في سجل الخلود !..

ولعمر الله ما نظرت الى أسراب الأطفال ، وبخاصة أثناء الصيف مشردين هنا وهناك الا وجب قلبي جزعا وألماً !. لقد ترك هؤلاء مدارسهم ليأخذوا قسطهم من الاستجمام ، ولكن فوضى المجتمع أحالت عطلتهم الهنيئة مدرسة أخرى ، يتلقون فيها كل أساليب التخريب !.

أنا أعلم أن كثيرين من صغارنا ينعمون من الصيف بحياة مترفة في الجبل وعلى الشواطيء •• وكثيرين منهم يتمرسون بأساليب الحياة ، اذ يلتحقون بمجالات العمل المختلفة ، وبعضهم يضيق به البيت فيدفع به الى مدارس الصيف ، يتهيأ فيها للنجاح في دروسه المقبلة ••

ولكنني مع ذلك لا أرى الا أن جميع هؤلاء الصغار متساوون في الحرمان من العناية الواجبة •• اذ تُركوا لظروفهم المتباينة تتجاذبهم حيث تشاء ، وبذلك ظلمناهم مرتين • ظلمناهم يوم سلمناهم الى معلمين •• قليل فيهم الذين يدركون حقيقة الطفل ،والطريق الذي يحسن سلوكه لتنظيم مواهبهم • فهم لا يفرقون بين هذا القلب الغض ، وبين مخلوق مثلهم شحنت نفسه بآلاف العقد والمركبات! فكان نتيجة ذلك أن تحول التعليم في كثير من الحالات ، الى عملية تعقيم يفسد الاستعدادات الطبيعية ، ويملأ نفس الصغير بالشذوذ الخطير !• وظلمناهم مرة أخرى حين أسلمناهم الى الظروف تتقاذفهم على غير هدى ، فكان جلهم مصدر بلاء على أهلهم ، تضيق بهم الدور ، وتثور بهم الصدور ، فلا هم يسعدون بأهلهم ، ولا هؤلاء بهم يسعدون •

ولكم تلهفت الى عمل أجرّبه في بلد ما من وطني ،

فأجعل منه أنموذجا لبرنامج صيفي ، يتيح للطفل فرصة تساعد مواهبه على التفتح ، في حين تعلمه من حقائق الحياة ما لا يتيسر له أن يقع عليه في المدرسة .. ولكن أنىّ للجهد الفردي الفقير أن يحقق هذا الخير الكثير !!

وتسمعت ذات يوم الى مهرجان الكشافين ، تذيع أنباءه محطة دمشق من « الزبداني » .. وأصغيت الى خطب وزير التربية وزملائه من الوزراء العرب فتساءلت : لمَ لا يكون لصغارنا حظ من هذه العناية التي تبذلها الحكومات في رعاية الشباب !.

ان هؤلاء الصغار ليسوا أقل حاجة الى مثل هذه الرعاية ، وانهم لجديرون بأن تنظم لهم وزارات التربية مناهج صيفية ، ينعمون فيها برحلات إقليمية ، تعرفهم بعض الذي يجب أن يعرفوه من وطنهم ، ثم ترتب لهم أعمالا خفيفة تكون سبيلا لتزكية مواهبهم !.

وطبيعي أن لا نساوي في الأسلوب بين صغير في دور الحضانة ، وبين حدث في القسم الابتدائي ، فلكل من الفريقين ممكناته ، ولكل من الممكنات أفقها المناسب . ولقد كان مما أحلم به ، في حقل الأحداث خاصة ، أن أنظم لهم تعاونيات صغيرة ، يتمرسون فيها بتجارة السلع اليومية ، كالخضار وبعض الضرورات المنزلية المشابهة ،

فتكون لكل مجموعة منهم واحدة من هـذه التعاونيات ؛ يشارك أفرادها في إدارتها ، باشراف خبير يوجههم الى ترتيب الحسابات ، وتسجيل المبيعات والمشتريات ؛ على أن تُصَفّى هذه الأعمال في نهاية كل أسبوع ، فيعرفـوا أرباحهم وخسائرهم ، ويكون لهم من ذلك وفر يخصصون قسما منه للخدمة الاجتماعية .. وقسما لتأمين حاجاتهم المدرسية . وبذلك نصون هؤلاء الصغار مـن فوضى الفراغ .. ثم نشغل طاقاتهم عن السخائف ، بأعمـال تمكنهم من ممارسة التبعات الاجتماعية عن كثب ، في حدود مؤهلاتهم ، دون اهمال لحقهم في اللهو البـرىء والرحلات الممتعة ، مرتبة وفق برنامج مدروس .

ولا أشك أن حدَثا يتزود مـن الصيف بكل هـذه المتع النظيفة ، سيعود الى المدرسة إنسانا حي المواهب .. ناشط الملاحظـة .. لا تفوته شاردة ولا واردة . وكفى بهذا مزكيا لتقوى النفس ، معجلا بانطلاق المواهب في أتم نظام وأكمل انسجام .. ولا جرم ان عملا ناجحا كهذا احق باهتمام بعض المسئولين من التفكير بتعقيم شعوبهم ، عن طريق تحديد النسـل!.

منهاجنا الربانـي

ولقد نال الطفل من عناية المفكرين ، وكبار فلاسفة

التربية في العالم ، ما أنتج الكثير من المناهج النظرية نحياطته وتوجيهه •• ولكنه مع ذلك ظل مفتقرا الى الطريقة المثلى ، التي تضمن له سلامة الفطرة والانسجام الكامل مع قوانين الحياة •• وليس اختلاف أولئك الباحثين في مذاهب التربية ، الا دليلا على أنهم لم يهتدوا بعد الى الوجه الصحيح من الموضوع •• ذلك لأن قضية التربية قضية تتصل بصميم الفطرة ، ومن أجل ذلك لا يصلح لتأليف منهاجها النهائي سوى القدرة التي فطرت هذا المخلوق ، وأحاطت علما بكل ما انطوى عليه من الأسرار •

وفي القرآن ذلك المنهج الذي ينشده الباحثون دون أن يعرفوا اليه الطريق •

اقرأ معي هذه الآيات من سورة لقمان : (واذ قالَ لقمانُ لابنهِ وهو يعظُه : يا بنيَّ •• لا تشركْ باللهِ •• ان الشركَ لظلم عظيم• » «يا بني•• انها إن تكُ مثقالَ حبةمن خردل فتكنْ في صخرة أو فيالسموات أو في الأرض يأتِ بها اللهُ •• ان اللهَ لطيف خبير•• يا بنيَّ•• أقمِ الصلاةَ، وأمرْ بالمعروفِ ، وانهَ عنالمنكرِ ، واصبرْ علىما أصابَكَ •• ان ذلكَ من عزمِ الأمورِ • ولا تصعِّر خدكَ للناسِ ، ولا تمش في الأرض مرحا .. ان اللهَ لا يُحبُّ كلَّ مختال

فخور • واقصدْ في مشيكَ ، واغضضْ من صوتِكَ •• إن أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير !••) •

ما قرأت هذه الآيات قط ، منذ بدأت أستروح نفحات القرآن ، الا وقفت أتأمل إشارتها ، وأتقصى غاياتها ، فأجدني كل مرة أمام جديد من المعاني ، التي لا نفادَ لها •• انها لمجموعة من التوجيهات الآلهية ، تعلمنا كيف نتجه بتربية أطفالنا•• وبذلك تضع لنا الأسس الكبرى لمنهاج تربوي ، يجمع بين المثالية والواقعية ، ويقيم لنا الصُّوى في الطريق ، الذي لا سبيل غيره لتحقيق رسالتنا الانسانية في هذه الارض •

ولكي نلم بأطراف هذا المنهاج يجدر بنا أن تتبين خطوطه الرئيسية••ثم نقف على كل منها ،لننظر أين ينتهي•

أول هذه الخطوط تنظيف النفس من الشرك بالله ، لتخلص له وحده ، وبذلك تنتظم طاقاتها ، فلا تتوزع بين شتى الاتجاهات ••• واذا علمنا أن الشرك لا ينحصر في عبادة الأوثان ، وانما يشمل كل انسياق لغير داعي الحق من شهوة أو منفعة أو جاه ، أو طاعة لأي كبير في معصية الله •• أدركنا أن التوحيد في الله هو المبدأ الأول لتحرير

النفس من كل العوائق التي تحول دون انطلاقها في طريق التكامل .. .وقد ذكر القرآن من أنواع الشرك خضـوع النفس للهوى (أرأيتَ من اتخذَ آلهَهُ هواه ٢٥ـ٤٣ ..) والهوى اسم جامع لكل مسارب الباطل .. اذ منه يندفع المرء الى النفاق والملق والخيانة .. وكل الرذائل النفسيه الأخرى . وقد ضرب الله مثل الموحِّـــد والمشرك في شخصين أحدهما مملوك لسيد واحد ، فهو خالص لــه ، لا ينازعه فيه سيد آخر .. والثاني يشترك في رقبته عدة مالكين ، ولكل منهم هوى ورأي وأمر ، فاذا كلفه أحدهم شيئاً انبرى الآخر الى طلب ما يخالفه ، ثم جاء الثالث بما يخالف الاثنين .. وهكذا دواليك ، فهم مشاكسون لا يتقاربون في اتجاه .. وعلى المملوك المسكين أن يتحمل عاقبة مشاكسـهم ، حتى لا يعرف ماذا يجب أن يعمـــل .. على حين نرى المملوك الأول مرتاح النفس مــن كل هذا الاضطراب ، يعرف كل ما يريده سيده .. ويعلم أن سيده .. حليم حكيم لا يكلفه ما لا يطيق ، ولا يأمره الا بما يسعده ، فهومنسجم في مجاله ، مطمئــن الى حاضره ومآله : (ضربَ اللهُ مثلا رجلا فيهِ شركاءُ متشا كسون، ورجلا سلما لرجل.. هل يستويان مثلا !. الحمدُ لله . بل أكثرُهم لا يعلمون ٣٩ ــ ٢٩ .) ولذلك ختُمت الآيــة الأولى بتفظيع أمر الشرك ، اذ جعله الظلم العظيم .. وأي ظلم للنفس أفظع من أن تنصرف عن طريقهــا المطبوع ،

لتوزع طاقاتها بين الأرباب المتشاكسين !. وأي ظلم للحق أشد من أن تضعه في غير محله ، وتعطيه غير صاحبه !..

ثم تأتي صفات الله ممثلة في اللطف والخبرة . فمن صحة الايمان بالله ، والانصراف لتوحيده ، الايمان بأنه المحيط علما بكل صغيرة وكبيرة ، لا يفوته أدق الامور لأنه اللطيف ، ولا أعقد الامور لأنـه الخبير .. وكفى بهـذا مربيا لضمير المؤمن ، موقظاً لمراقبته الدائمـة في الجلوات والخلوات .. حتى ليستحيي أن يأتـي السيئة خجلا من عين هذا الرب ، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر مـن ذلك ولا أكبر ...

وبعد ذلك تأتيك الامدادات الكفيلة باستمرار هذه اليقظة العقلية القلبية ، ونحن نعلم أن لكـل طاقة حداً تخمد عنده ، لذلك كان معقولا أن تزود طاقات النفس بدوافع متتابعة ، لتتمكن مـن الانطلاق الصاعد ، الى غاياتها التي لا نهاية لها من آفاق الكمال .. ولهذا شرع الله الصلاة لتكـون معراجَ المؤمن الى ربـه ، ولتكون بمجموعها المحطات التي تستمد منها المدّخرات النفسية قوى العمل ، وهكذا تكون الصلاة ، في أبسط حالاتها ، أفضل مدد لتعبئة الطاقـة ، فيظـل جهاز المراقبة حساسا

متحركا لا يتعطل ...

وحتى الآن تبقى هذه الفضائل ضمن حدود الفردية صالحة لأن تجعل من صاحبها عظيماً في ميزان الطهر الشخصي .. ولكنها غير كافية لتحديد مسئوليته في نطاق الجماعة .. لذلك ينطلق التوجيه الرباني خطوة أخرى بهذا الانسان الفاضل ، ليضعه أمام واجباته الكبرى كعضو من مجموعة تتطلب من كل أجزائها تضامنا كاملا لانجاز العمل الكامل .

وقد رأينا أكثر من صاروخ أميركي يخفق قبل وصوله الى المدار المنشود ، لأن في بعض أجزائه قصورا أو خللا يفسد عمل المجموعة .. وكذلك منزلة الفرد في المجموع الانساني ، قد يكون مصدر الانهيار للكل ، اذا لم يكن صالحا بنفسه لتحقيق وجوده في تماسك الأجزاء جميعا . وفي الآية الثالثة تحديد لمهمة هذا الفرد ضمن المجموع ، فهي أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ... ولا معنى للأمر والنهي الا أن يُسبقا بايماز يحدد أهداف الانسان ، ثم بمراقبة يتعرف بها مكانه من الطريق ، ثم بذُخر من الصبر العظيم يمكنه من مواصلة السير نحو الأهداف العظيمة .. ومن هنا جاءت نهاية الآية تنويهاً

بسكانة الصبر ، اذ جعلته مع الأمر والنهي (من عزم الأمور !...) .

وإذا ما انتقلتَ الى بقية الآيات ، رأيت نفسك أمام الزاد ، الذي لا مندوحة عنه في هذا الطريق الطويل ... طريق الاصلاح الاجتماعي ، الذي تحقق به كيانك الانساني ، كعضو في الجماعة .. وأي زاد مع الصبر أجدى عليك في هذه الرحلة ، من تواضع يحببك الى اخوانك .. ومن أناة تجنبك الشطط ، ومن أدب يفرغ الرصانة على حياتك ، حتى مشيتك وصوتك . وأنت كمؤمن لا يرضيك أبدا أن تكون في المبغَضين عند الله من كل مختال فخور . وأنت كمتمرس بأدب السماء لا يسعك أن تستعمل صوتك في ارتفاع منكر على طريقة الحمير !...

وهذه يا قارئي تعاليم تربوية على لسان حكيم من عباده ، يعظ بها ولده . ومعلوم أن الله لم يأتنا بها من وراء القرون الاكمنهج ، يهدينا به الى الطريق الذي يجب أن نسلكه في تهذيب أبنائنا سواء في البيت أو المدرسة .. فهدف هذا البرنامج اذن هو تخريج الانسان ، الذي أعد لغاية أبعد من الطعام والشراب والمنافع العابرة . وعلى

الرغم من كل تطور ، وكل تغيير في مقاييس الناس ، لا يزال في هذه الكلمات القليلة أساس التربية الاجتماعية السعيدة .. ولا نحسب عبقرية بالغة ما بلغت في امكانها أن تحيط بنظراتها كل أطراف الحياة الانسانية ، بمثل ما أحاطت به هذه الوصية الجامعة المانعة ..

لقد حددت أمثل الطرق لتربية الفرد ، ثم عيّنت أفضل لسبل لتقويم انحرافات الجماعة ، واذا كان الله يرويها على أنها عظة أب لابنه ، فهو بذلك يعرّف كل أب وأم الطريقَ الذي يجب أن يسلكاه ، لاسعاد ابنهما ، ولجعله شيئا يذكر في تاريخ الحياة ...

ولا حاجة الى التذكير ببعدنا عن هذا السلوك الرباني ، في تربية أكبادنا التي تمشي على الأرض .. وحسبنا أن نتذكر أن كل ما أصاب هذه الأمةَ صدمات حتى الآن ، انما يعود بالدرجة الأولى الى انصرافها عن هذه المبادىء .

الوالدان والعقيدة

ولا بدّ للقارىء أن يلاحظ ثمة آيات قد حذفت من

سلسلة المنهـج القرآني ، كما ورد في مكانه مـن سورة لقمان ، فالقارىء هناك لا يكاد يبـدأ الآية الأولى عـن لسان لقمان ، حتى يجد نفسه أمام آيات ثـلاث لا علاقة للقمان بها ، لأنها موجهة مباشرة مـن الله الى عباده .. فيتساءل : عـن الحكمة في إقحامها بين طرفـي الوصية الأبوية ..!

ولقد أرجأنا الكلام عن هذه الآيات الى هذا المكان ، لنوجه نظر القـارىء الى سر ذلـك ، فلقمان وهو الأب الصالح لم يرَ أن يوصي ابنـه بنفسه ، واكتفى بتذكيره واجباته الأساسية نحو الله ونفسه ومجتمعه ، وطبيعي أن انسانا يحقق في ذاته هـذه الصفات ، لا يفـوته أن أولى الناس باحسانه بعد الله والداه ..

ولكنَّ الله حين عرض لهذا المنهج الكريم ، أراد أن يقدمه كاملا لا يعوزه الاستنتاج ، فالله أولا .. ثم يأتي دور الأبوين ، وهما رأس الأسرة الانسانية ، عن طريقهما نعرف الآخرين ونتعلم كيف نرحمهم ونسهم في اسعادهم.. وبدأ الله بذكر الوالدين معا ، ثم أفرد الأم فصوَّر جهدها في حمل هذا الابن ورعايته ، أيام كـان وَهْناً لا يطيق نفعاً لنفسه ولا ضَرّا .. فأقـل ما تستحقه منـه وأباه

الشكرُ الذي يتكافأ مع ذلك الجميل ..

وفي هذا الجو الأبويّ ينتقل ليحدد للابن حقوق هذين المخلوقين الكريمين .. انها الاحسان الشامل لكل أنواع الخير .. ولكن هذا الاحسان يجب أن يقف عند حدود الحق .. فقد يكون الأبوان بعيدين عن نور الله ، راغبين في الشر ، يريدان منه الانسياق في طريقهما الملتوي .. فهل لهما حق الطاعة هناك !.. كلا لأن موضوع العقيدة يجب أن يظل بمنجاة من التأثيرات الشخصية ، فلا سلطان عليه لوالد أو صديق أو زعيم .. وانما هي أمانة الله أودعها ضمير الفرد ، ليعرف طريقه الى الله ، فلا يضل ولا يزيغ ، ولا يخاف فيها لومة لائم .. وبذلك يقف سلطان الأبوين عند الحد المعقول ، الذي به تستقيم الحياة الاجتماعية ، فلا يتجاوزه الى مثل التربية الصينية، التي تجعل من الآباء آلهة من دون الله يعبدون..

وهكذا يأتي المنهج التربوي على أكمل الأسس ، لا يحيف على البنوة ، ولا يستهين بحق الأبوة ، ويعطي الابن من حرية الضمير ما يجعله قادرا على النهوض برسالته الانسانية في دائرة الجماعة ...

أجل .. انه لبرنامج يستهدف تخريج الأجيال ، التي

أعدت لغاية أبعد من الطعـام والشراب والمنافع العابرة ، ومن حق كـل أب وأم منا أن يسألا نفسيهما أمـام هذا التوجيه الالهي : أين نحن من هذه الحقائق ، وأين تربيتنا من هذا المنهاج !. ولا حاجـة بعدُ الى التذكير بأن كل ما أصاب أمتنا من صدمات ، انما يعـود بالدرجة الأولى الى انصرافنا عن هذه السبيل في تربية أكبادنا التي تمشي ــ كما أسلفنا ــ .

اصول ... واصول

ولقد ضمني ذات يـوم مجلس عائلي مـع امرأة متعلمة .. وذات أبناء أكثرهم يحمل الشهادة الجامعية ... فكان مما تحدثنا به يومئذ هذه المحاورة الصغيرة :

قلت للمرأة : كيف رضاك على المحروسين ؟.

قالت : كأحسن ما يكون الرضا ، والحمد لله ..

قلت : وما سر ذلك ؟

قالت : لأنني أحسنت تربيتهم على أحدث الأصول..

قلت : تقولين أحدث الأصول .. فهل يمكن تحديد

هذه الأصول ؟.

وكانت مفاجأة مسكتة كما يظهر ، فلم تنبس ..
وهنا قلت :

ثمة ضربان من الأصول في التربية ، أحدهما أن نربي أبناءنا للدنيا فقط، والثاني أن نربيهم للدنيا والآخرة.

ولايضاح الفرق بين الاثنين أذكر : أننا في الحالة الأولى نعدهم لحظوظ الدنيا وحدها ، فنزودهم بكل ما يمكنهم من اصطيادها .. ولكننا نهمل قلوبهم ، فلا نضع فيها بذور السعادة ، التي لاتنمو الا في تقوى الله.. ثم تكون النتيجة التي لا مندوحة عنها ، وهي أن نخسر أبناءنا ثم نخسر أنفسنا ...

أما الضرب الثاني من الأصول .. فهو أن نعتبر أبناءنا أمانة الله أودعهم أيدينا ، لننشئهم على تعاليمه هو.. التي تجنبهم وإيانا إخفاق الدنيا والآخرة : (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً .. وقودُها الناسُ والحجارةُ ، عليها ملائكة غلاظٍ شداد ، لا يَعصُون اللهَ ما أمرَهم ، ويفعلون ما يُؤمرون ٦٦ــ٦ ..) ذلك لأن

المؤمن الحق يعيش أبدا في عالم مزدوج ، لا تشكل هذه الدنيا منه الا المرحلة التمهيدية ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، فلا يشغله شأن عن شأن ، ولا مقدمة عن نتيجة .. وكم أحب أيتها السيدة أن تكون هذه الحقائق هي الأصول التي نَشَّأت عليها أبناءك ...!

ومرة أخرى تخلد المرأة الى السكوت .. فلا أعلم أي الطريقين سلكت بأولادها العشرة ؟.

ثم أذكر موضوعا آخر أحسبني عرضت له في ثنايا حديث إذاعي من دمشق ، وذلك أن غلاما في التاسعة قد أتى بائع حلوى ، فأخذ منه قطعة ما لبث أن التهمها ، ثم أدار له ظهره يريد أن يمضي .. فأمسك به البائع يريد خمسة القروش ، ولكن هذا أقسم أنه دفعها اليه .. ثم بكى وصاح .. فلم يسع البائع الا أن يخلي سبيله ، على الرغم من كونه لم يجد بين يديه أي قطعة نقد !...

وكان والد الغلام يرقب ولده مع رجل آخر ، فالتفت

اليه يقول في فخر : أرأيت اليه.. انه قبضاي.. جدع!.(١)

ومن المألوف جدا أن تسمع أبا أو أما يلقنان ابنهما الصغير مسبة الناس ، وقذف المحصنات .. وكل سفيه من القول ...

ولو أنت رحت تناقش هؤلاء الآباء والأمهات في هذا الضرب من التوجيه ، لما ترددوا في اجابتك بكل اعتزاز لو كانوا ينطقون : « إننا راضون عن تربيتنا القائمة على أفضل الأصول !.. »

وفي صبيحة اليوم سمعت شابا يشتم رب أبيه ويهم بضربه .. لأنه ساق الدواب في غير الطريق الذي يريده الابن ، فقلت للوالد : لقد علمت ابنك كيف يسوق الحمير ، وكيف يسب ربها ، ولكن هل علمته قط كيف يحسن صلته بالناس وبك ؟..

وبالطبع لم يُحرِ الرجل جواباً لأنه لم يفعل شيئا من ذلك .. فمضيت وأنا أقول : « هذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون... »

وها أنذا الآن .. أكتب هذه الكلمات ، وفي مسمعي

---

(١) قبضاي وجدع من التعابير الشائعة في الشام ، ويراد بها (الجريء الذكي) .

أصوات شباب أربعة ، ما زالوا منذ صباح اليوم مكبين على مائدة اللعب •• ولقد كنت عانيت ليلة أمس أرقاً شديداً بما ملأ فضاء الحي من نباح الكلاب الشاردة ، حتى ساعة متأخرة • ولكن أشهد لقد كان ذلك النباح أكرم وأنبل من هذا الهذر ، الذي يشحن به بعضهم فضاء المقهى خلال أربع ساعات !• ولا تظنن هؤلاء الأربعة من طراز سائق الحَشْر •• كلا بل ان فيهم الطالب الجامعي وحامل الثانوية •• وبعضهم معلمون في القسم الابتدائي •• ومنهم مراقبون في الثانويات !• ولا تحسبنّه يوما واحدا فقط اتخذوا منه فرصة للتخفف من أعباء الجد •• كلا •• بل انني لألقاهم كل يوم منذ مطلع الصيف في هذا المكان •• وعلى هذه المائدة •• وفي مثل هذه المعركة ، حتى بات بعضهم يأتي بطعامه لئلا يضطر الى النهوض للغداء ، لا تجد مع أحدهم كتابا ولا صحيفة ، ولا تسمع لهم كلمة ذات معنى !

ولكم تساءلت عن المنابع التي استقى منها كل هؤلاء وأولئك لغوهم وبطالتهم وسخافاتهم •• فلم أجد لها مكانا الا في هذه التربية ، التي عُنيَتْ منهم بكل شيء ، الا توجيههم في الطريق التي رسمها الله !•

ما يطلبه المستمعون

ولقد أصبح موضوع التربية أكبر من أن تنحصر

تبعاته في البيت والمدرسة • وها نحن أولاء نجد أنفسنا كل يوم تلقاء جديد من هذه الروافد ، التي تطلع بها علينا مصانع اللغو والافساد مع كل صباح ، ومن كل مكان • وقد عددنا بعض هذه المصانع الأخلاقية ، كالصحف الماجنة ، والكتب الفاجرة ، والأندية العابثة •• ونحدثك الآن عن واحد من هذه المنابع التي تصبُّ سمومَها صباحَ مساءَ في قلب بيوتنا ، لتجردها من بقايا الحصانة الروحية •• ذلك الذي يسميه المذيعون (ما يطلبه المستمعون) !

هذا الباب الخطر من تشكيلات الغزو الأخلاقي قد بدأ ــ فيما أظن ــ من محطة الشرق الأدنى غير المرحومة ، وكان الغرض منه اجتذاب الأحداث والمراهقين ، لتعويدهم الاستماع الى هذه المحطة ، ثم لتجريعهم سمومها في التوجيهات السياسية والأخلاقية والفكرية !• وسرعان ما أقبل هؤلاء الضحايا طائعين على ذلك الطعم •• فاذا الرسائل تتهاوى كالمطر على محطة الشرق الأدنى ، حاملة أسماء الفتيان والفتيات ، من مختلف أنحاء الربوع العربية ، يطلبون الاستماع لفلان وفلانة من المغنين والمغنيات !• وليس ضروريا أن يكون كل هؤلاء من ذوي الاهتمام بهذه الضروب الرذْلة من أغاني الماجنين أول الأمر ، ولكنها قضية النزعة الى الاشتهار في نفوس

الصغار •• فمجرد اذاعة أسمائهم من المحطة كاف لدفعهم بقوة الى هذا الطريق • وهكذا جرتهم اللعبة الى العناية بأخبار المطربين ، حتى أصبحوا من متتبعيهم وعاشقيهم !•

وبدلا من أن تتنبه الحكومات العربية الى الخطر المراد بهؤلاء الأغرار ، فتحظر هذا الضرب من المراسلات الخطيرة بينهم وبين تلك المحطة •• بدلا من ذلك عدنا الى طريقنا المعهودة في التقليد •• فشغلنا قسما كبيرا من مناهج الاذاعات العربية بهذه التوافه ، حتى أصبحنا نسمع المذيع يقرأ البيان الطويل من أسماء السخفاء ، ليقول لنا أخيرا : هؤلاء طلبوا الاستماع الى أغنية كذا !• وهؤلاء يهدون أغنية كذا الى فلان وفلان وفلانة !••

وتبعاً لذلك أصبح برنامج ما يطلبه المستمعون مشغلة الفتيان والفتيات ، ثم أصبح هذا الباب في بعض الأحايين يقوم بنوع من (القوادة) الدولية •• اذ يصل بين أصناف الحمقى من العشاق والصفاق •• واذا علمنا أن معظم أوقات الاذاعات العربية مخصص لهذا الطراز وأمثاله من تافه الطلبات ورخيص الأغنيات ، أدركنا أي أسلوب هدام نربي عليه أبناءنا وبناتنا ، في ظل هذه المدارس الاذاعية ، ومن ثم أيقنا أن تصفية هذا البرنامج أو تقويمه من أهم واجبات المسئولين عن قضية الاعلام

في البلاد العربية (١) .

والسينما

في عام ١٩٤٨ ، كانت البلاد العربية كلها معسكرا لانقاذ فلسطين .. كتبتُ للسينما قصة (صرخة الدم) وقد تعمدت أن أجعلها وثيقة فنية عن المؤامرة الصهيونية والاستعمارية في هذه البقعة الحبيبة .. معروضة في مجموعة من المفاجآت المؤثرة جدا . وكان في سورية ولبنان حركة سينمائية ، يقوم بها فئة من المغامرين أصحاب المال والهواية ، سبق أن اتصل بي بعضهم يطلب إمداده ببعض القصص السينمائية . وعرضت قصتي على مدير هذه الحركة الذي درسها في عناية ثم أعادها الي وهو يقول : قصتك من طراز لم يعرض من سويته في السينما

(١) اثناء مؤتمر وزراء الاعلام العرب المنعقد في القاهرة في ذي القعدة ١٣٨٧ سمع الناس لأول مرة كلاما ذا مضمون يتصل بصميم الحقيقة التي تفتقر اليها الاذاعات العربية. وكان ذلك على لسان الاستاذ الشيباني مندوب الاعلام السعودي ، الذي ابلغ المؤتمرين راي الاسلام صريحا في قضايا الساعة . وبذلك اكد ان حكومته اجدر الجميع باثارة مثل هذا الموضوع في مؤتمر قادم .. لأن التسابق القائم بين الاذاعات العربية على اصطياد المستمعين يجعل اصلاح هذا البرنامج مستحيلا الا على مستوى مثل هذه المؤتمرات ..

العربية حتى الآن •• ولكنني لا أكتمك أنك لن تجد شركة تجرؤ على اخراجها في بلد عربي !•• فلما سألته عن السبب لم يتردد أن يقولها في صراحة : (اليهودية •• التي تسيطر على قلب الحركة السينمائية •••!) وذكر الرجل أشياء من سلطان هذه اليهودية لا أرى مجالا للاسهاب في تفصيلها هنا ، ولكنني بقيت مترددا في قبول هذا الكلام • وتوجهت الى صديقي الأستاذ عبدالله المشنوق أعرض عليه الفكرة ، وكان من جميل الاتفاق أن لقيت عنده الأستاذ ساطعا الحصري ، فاتفق الرأي على أن نقدم القصة الى اللجنة الثقافية ، التي ستعقد في (بحمدون) عصر اليوم•• وشخصت في سيارة الأستاذ المشنوق الى مكان الاجتماع في فندق (الامباسادور) وهناك اجتمعت ببعض الأصدقاء من أعضاء اللجنة ، كان فيهم الشاعر عمر أبي ريشة ، وتركت للجنة أن تدرس القصة على أن أتلقى جوابها قريبا •• وفعلا لم ألبث سوى أيام حتى أخذت جواب اللجنة المختصة ، وكان صريحا في قبول القصة ، وفي اعتبارها شيئا رائعا ، وأن جامعة الدول العربية ستعمل على اخراجها شريطا سينمائيا بالغا ما بلغ من التكاليف•••

ولا حاجة الى القول أن الوعد بقي حبرا على ورق•• فأنت تعلم أن السينما العربية لم تعرض قط شريطا سينمائيا اسمه (صرخة الدم) ••• أما كيف حدث ذلك ؟•• فلا

أعلم الا أنني تلقيت عقيب الهدنـة قصتي ، مرفقة بكتاب يخبرني أن الجامعة لم تجدالشركة التي تستطيع اخراجها ••

وكان ذاك مثار دهشة بالنسبة الى المطلعين ، الذين لم يفهموا كيف يمكن لشركات عادية اخراج مخططاتها على أتم وجه يقتضيه التصميم الهدام • ثم تعجز مؤسسة دولية ضخمة عن اخراج شريط يدر عليها أضعاف تكاليفه مالا ودعاية وتضحيـة !• في وقت يقتضيها أن تعبىء جميع القـوى لتعريف قضيـة فلسطين ، وفضـح مؤامـرات الصهيونية والاستعمار على البلاد العربية ••!!

وتذكرت يومئذ كلمـة مديـر الشركـة ووجدتني أتساءل : هل لهذا علاقة بذلك !!••

ومهما يكن العذر الحقيقي وراء هذا الالغاء ، فنحن مضطرون الى التصديق بأن جامعة الدول العربية لم تجد شركة تخرج هـذا الشريط •• أو تستطيع اخراجه •• ولكن هذا قد ينتهي بنا الى القول بأن شركات التحميض والاخراج قد لا تتسع لهذا الطراز مـن القصص الجادة ، وان كانت تتسع لاخراج المئات من المهازل ، التي تشحن حياة العرب كل يوم بأنواع من السموم ، التي لا تخدم أحدا سوى أعداء العرب !• ونحـن مضطرون الى مثل هذه الاستنتاجات ما دامت السينما ، وهي من أهم مصانع

التربية المؤثرة في نفـوس الجماهير ، لم تـزل موجهة في البلاد العربية ضد مصلحة هذه الجماهير نفسها ، بقيامها على أساس الاثـارة الجنسية ، دون الاهتمـام بالموازين الخلقية البناءة .. ولا نستثني من هذا الحكم الا النادر من الأشرطة التي كانت ضربا من المغامرة في وسط أوشك أن يصبح غريبا عن كل محاولة جدية في هذا المضمار !.

ولعمر الحق إن من حق المفكرين أن ينظروا في دهشة الى هذا الضرب من الحرية المخربـة ، يستمتع بها علـى أوسع مدى أولئـك المستهترون مـن المخرجين والمؤلفين السينمائيين ، على حين يقضي الواجب علينا أن نعبىء كل المواهب وكل الموارد ، لتشييد الصرح الجديـد الذي لا يفسده شيء مثل هذا الاستهتار ...

التلفاز داء ودواء

قبل نصف قرن كان لدى النـاس في هـذا الشرق بقية من فنون يستمتعون بها في أوقات الفراغ ، ويتلقون من خلالها بعض الصور عن واقعهم الخلقي والاجتماعي ، فيتفاعلون معها سلبا أو ايجابا . وقـد أدركنا مـن هذه الفنون المتخلفة عن حضارة الأمس لعبة (الأراجوز) أو (القراقوز) كما كنا نسميها ... وهي لعبة قوامها أخيلة من الجلد تـربط بالعيدان ، ويحركهـا الأراجوزي وراء

شاشة منارة بضوء سراج •••

وعلى ألسنة هذه الطيوف الجلدية يُلقي الأراجوزي ما يملك من قصص ونوادر مضحكة أو مبكية أو سفيهة•• حسب مواهبه وتربيته الخلقية • وكان لهذه القصص وحركات الأخيلة ايحاء عميق في نفوس الأحداث الذين يشهدونها مشدوهين ، اذ تراهم يحققونها في حركاتهم ولهجاتهم حيثما ذهبوا وأينما كانوا •• ومن هنا كانت أخيلة الأراجوز أحد عوامل التربية العملية في نفوس الجيل ، تنشر في بلد ما السفه والوقاحة ، وفي بلد آخر تسهم في التوجيه الكريم ، اذ تنشط الخلق الفاضل وتصون بقية الشيم الرفيعة ••

ولكن ما إن أطلت طلائع الحضارة الغربية على هذا الشرق حتى بدأت هذه اللعبة تتقلص في سرعة ، لتخلي مكانها للمسرحية التي احتلت مكان ذلك الفن الشرقي القديم ••

بدأت المسرحية الحديثة في مستوى رفيع، اذ ترجمت من روائع الآداب الغربية ، فكانت خاصة بالطبقات العالية من كبار أصحاب المناصب والمثقفين •• غير أنها ما لبثت أن أخذت طريقها الى التأقلم ، فانتقلت الى مرحلة الاستقلال ، حيث أدخل على المسرحيات المترجمة بعض

التعديل الذي يقتضيه اختلاف البيئــة ، ثم جاءت مرحلة الوضع حيث وجد من أدباء العرب من يُعنى بتأليفها على أساس محلي ، ينتزع موضوعها تارة من تراثنا التاريخي ، وتارة من واقعنا الاجتماعي ، بما فيه من خير وشر.. وكان طبيعيا أن تقتحم المسرحية أخيرا الأوساط الشعبية، فتنحدر الى ما دون المراحل السابقة ، اذ تصبح معرضا للانحرافات الخلقية ، كالذي سبق حدوثــه في فن الأرجواز ، عندما تولته الأيدي السيئة ، فلم تفهم منــه سوى انــه حرفة للاتنفاع ، ولو عن طريق التملق لشهوات العامة !..

وتتفتح الحضارة الكهربائية عــن طور جديــد لفن المسرح والأرجواز ، وذلك بظهور الخيَّالة ــ السينما ــ التي ضيقت نطاق المسرح ، حتى كادت تعيــده الى نطاقه الارستقراطي الأول .. وكان ذلك نتيجة لا مندوحة عنها ، بسبب المميزات التي تملكها السينما ويعجز عنها المسرح ، وفي مقدمة هذه المميزات تحطيم الوحدة المكانية الخاصة بالمسرحيات ، اذ بات من المألوف في السينما عرض الأمكنة المتعــددة ، حتى الجبــال والبحار والغابــات في مختلف الأقاليم ، مما لم تحلم به المسرحية قط ... ثم لــم تلبث أن تناولت حيــاة المجتمعات في مواطنها الحيــة ، بحيث أصبح المشاهد يتابع أحداث وتطورات الحياة البشرية على الشريط الواحد في مختلف أصقاع العالم، وبذلك أصبحت

السينما حاجة ضرورية للفرد المتمدين ، لا يستطيع الاستغناء عنها ما دام يحس الحاجة الى المعرفة والمتعة .. ومن هنا كان للسينما أثرها العميق في توسيع رقعة الحضارة الغربية بكل ما فيها من خير وشر !.. لأن المشاهد لمعروضاتها يطل مباشرة على حياة أصحابها ، في بيوتهم ومعاملهم وشوارعهم ومحالّ لهوهم ، فلا يجد سبيلا الى صيانة نفسه وأهله من تقليد ما يرى ، وتطبيق ما يسمع شيئا فشيئا ، حتى ليمكن القول بأن معظم ما نشاهده في حياتنا من مظاهر الحياة الغربية انما مرده الى هذه السينما، إما عن طريق ارتيادها مباشرة ، أو عن طريق الوسطاء من روادها ...

واليوم نجد أنفسنا تجاه طور جديد من هذا الفن ، يحمله الينا ذلك (العفريت) النفريت الذي يسمونه (التلفزيون) ..

القدر المشترك بين (التلفاز) (١) والسينما والمسرح

---

(١) هذه التسمية اخترعتها له مجلة (العربي) وهي من محاسنها القليلة ، اذ احتفظت بالحروف الاجنبية في وزن عربي كقرضاب وجلباب .. وهو ضرب من التعريب المألوف في اللغة .. ولولا ذلك لآثرنا كلمة (مرناة) اسم آلة من الرنو ، أو كلمة (الرنا) وهي في المعجم كل ما يرنى اليه لحسنه مع شغل قلب وغلبة هوى ...

والأرجواز ، هو أنه يسلك سبيله الى النفس عن طريـق البصر والسمع ، وهما منفذا المعرفة ، منهما يتسرب الفساد والارشاد ، فينساق الانسان مع هذا أو ذاك ، تبعا لقوة الاغراء ولمدى استجابته له •• واذا تذكرنا أن التلفاز هو السينما نفسها إلا أن مجاله أوسع ، من حيث قدرته على الانتشار ، بحيث لا يغلق أمامه باب، أيقنا خطر هذا الطور في حياة المجتمع الاسلامي ، لأنه سيبلغ من سرعة التغيير والتأثير في هذا المجتمع ما لم يبلغه أي عامل فني وتوجيهي آخر حتى الساعة !••

ان من خيرات هذا الجهاز كونه يحمل الينا ضروب المعرفة الانسانية على اختلاف صورها ووقائعها ، فيكون في كل بيت مدرسة عالميـــة ، تعلم أهله اللغات والعلوم ، وتنقلهم على أجنحة الخيـــال الحسي الى ظلمات المجاهل ، في أغوار البحـــار ، وقمم الجبـــال ، وأجواف الغابات ، وآبعاد المدن ، ورحاب القرى ، وآطواء المصانع ، وتجاويف الهيكل البشري ، وأعالي الفضاء ، وأعمـــاق البحار !•• فيرون ما يجري هنا وهناك وهنالك مـــن نشاط بشري ، وتطور حضاري وأحداث كونية ••• مما لم يكن ليخطر على بال انسان قبل عصر التلفاز •• وفي هذا كله من الخير ما يجعلنا نعتبره من أكبر النعم الالـهية في هذا العصر •••

ولكن هذا الساحر الذي نفحنا بكل هذا الخير هو نفسه الذي سيدمر بقية الطاقات الخلقية ، التي احتفظت بها أمتنا حتى اليوم ، بما يعرضه من مغريات ؛ وما يدسه من سموم ، وما ينصبه للسذج الغافلين من حبائل الشيطان !٠ فمنه ستتعلم بناتنا كيف يرقصن ويخاصرن ٠٠ ويستهترن بكل الفضائل الالـهية ، وعنه سينقلن كل طراز تخترعه حضارة الشهوة لابراز المفاتن ؛ واثارة الجنس ، دون حاجة الى الوسيط المطبعي ، الذي كن ينقلن عنه أشكال الشوال والروب والميني جيب والمايوه ٠٠٠ وما اليها من أزياء ابليسية هدامة ٠٠٠ فتزول بذلك بقية الحواجز الزمانية والمكانية ، التي كانت تفصل حتى أمس بين الشرق والغرب ٠٠٠ وبيان أوضح بين حضارة الشهوة وحضارة الاسلام !٠٠

ان في التلفاز لداء ودواء ٠٠٠ وما دام الأمر كذلك؛ فلا بد لنا أن نتساءل : لماذا لا نستغل هذا المارد انشاءات الخير وحدها ، فنتجنب كل ما من شأنه يفسح المجال في نفوسنا أمام شروره !٠٠

وانه لتساؤل معقول ، يذكرنا بعمل نبي الله سليمان ، في تذليل مردة الجن ، اذ حجزهم عن الافساد ، فصرّفهم في بناء القلاع والحصون ، وكل ما عجز عنه جنوده من وسائل الجهاد في سبيل الله ٠٠٠

ويذكرنا كذلك بالقانون الالـهي ، الذي جعل من شأن الجسد الحي السليم أن ينتفع بأنواع الميكروبات ، فيجعلها بعض أغذيته ، بدلا من أن تتمكن منه ، فتعمل في تهديم طاقاته !...

ولكن .. وما أوجع لكن أحيانا !. علينا أن نتذكر كذلك أننا أمة لم تزل في حكم المشلولة ، فهي لم تسترد صحتها بعد ، وبالتالي لم تستعد وعيها الذي أضاعته ضربات القرون ، فهي تستعين للنهوض بسواعد الآخرين ، وتسلك طريقها الى أهدافها الغائمة بتوجيه المخادعين والحائرين !.. حتى الاسلام الذي هو رسالتها الخالدة و (مـُوصلتها الأمينة) المحصّنة لها من الضلال والضياع ، لم تزل بعيدة عن تحديد معالمه ، واستبانة أهدافه ، لا تكاد تعرف أحكامه فيما يجب أن تأخذ أو تدع ، فهي لذلك حائرة بين ما يدعو اليه من مثاليات ، وبين ما تواجهه عمليا من مغريات ... وهكذا تجمع في واقعها بين طهارة السماء ، وأقذار الأرض ، لا تعرف على أي القدمين ينبغي أن تعتمد !.

في مثل هذا الجو يستحيل على المفكر الاسلامي القصير اليد أن يتوقع امكان استغلال التلفاز في نطاق الخير وحده ، وهو يلمس بكلتا يديه هذه الغمرة من الشلل العقلي ، الذي تقاسيه أمته سواء في وطنها الاسلامي

الكبير ، أو في وطنها العربي الصغير ، الذي تتنازعه أشتات المبادىء والتيارات من كل جانب !

أجل ان التلفاز لداء ودواء ...

انه لداء مخيف حين تخطط له الأفكار العلمانية ، وتحتكره الرؤوس الخاوية من معاني الوحي ، ويسلط عليه أولئك الصعاليك ، الذين أفسدوا بالتقليد نفوس الجيل الجديد ، حين أوغلوا في الاندفاع وراء صعاليك القاهرة ، يَعُبُّون من سمومهم ، ويرقصون على مزاميرهم !..

وانه لدواء جدير بأن يحقق العجائب ، حين تتولاه الأيدي المؤمنة ، وترسم سبيله وبرامجه الأقلام النظيفة المستضيئة بأنوار النبوة ...

ولقد سمعنا كثيرين من طلبة العلم يستنكرون ظهور التلفاز ... ولكن حجتهم في استنكارهم منصبة على الناحية الشكلية منه دون مضمونه وآثاره !.. وذلك أنهم يرونه مَعرِضاً للصور ، وهم يؤمنون أن الاسلام يحرم تصوير الأحياء بحكم قاطع لا يقبل التردد ... فهو اذن حرام دون شك !..

والحق أن الرسوم التي تظهر على صفحة التلفاز

لا يسكن عددُها دائماً في زمرة الصور ، بدليل عدم ثباتها .. فاذا اتصل التيار ظهرت ، واذا انقطع انصرفت دون أن تترك أي أثر ...

ولو نحن تتبعنا عملية العرض هذه لرأينا أن تلك الرسوم ليست سوى انعكاسات لظلال المخلوقات ، كالذي يحدث من انعكاس ظل انسان على صفحة المرآة تماما .. بل ان رسوم التلفاز هي ظلال مراء حقيقية ، تراءى بعضها لبعض عن طريق الأشعة اللاسلكية ، فنقل بعضها عن بعض .. حتى انتهت الى مرآة التلفاز ... فلا سبيل اذن لالحاقها بالصور المحرمة لذاتها .. ولا سيما عندما تجري عملية العرض بالطريقة المباشرة ، التي يمكن تسميتها بالعرض الحيّ ..

بقي أن نتذكر كون هذه الظلال تصبح محرمة عندما تكون مما يحرم النظر اليه ، كالمحظور من أجزاء المرأة والرجل ، وبذلك يكون التحريم شاملا لهذه الأشياء من حيث كونها محرمة العرض ، لا من حيث كونها تصويراً محرما !.

ولو أن هؤلاء الأخوة لاحظوا تلك الوقائع ، لوَجَّهوا اهتمامهم الى تصحيح المضمون ، وذلك بالسعي لدى أولي الأمر من أجل تأمين البرامج النافعة ، الخالصة

من شوائب التقليد الهابط ، والمنصبة على توكيد المعاني السامية التي تمثل مميزات الاسلام ، في الفكر والأدب والأخلاق .. ثم العمل على تحديد مواعيد البث ضمن حدود المصلحة الدينية ، فلا تزاحم ظروف الصلاة ، كما هو الحال اليوم في معظم المناطق التي أقبلت على العرض التلفزيوني من بلاد المسلمين ، حيث يستمر الى ساعة متأخرة من الليل ، فيكون بذلك سببا لتأخير صلاة الفجر عن ميقاتها ، ثم يصبح سببا في الانصراف عنها كليا ، والعياذ بالله !...

ثم ضمن حدود المصلحة الصحيّة أيضا ، ليقتصر العرض على أوقات محدودة ، لا تَحيف على أعصاب المشاهد حتى تُعرِّضَه في النهاية لأنواع من المضار ، ربما كان منها ضعف القلب ، وارتفاع الضغط ، وما الى ذلك مما يتأتى عن تركيز البصر والذهن فيدائرة المنظورات وقتاً غير قصير ...

ولا شك أن هؤلاء الأفاضل ، وهم المدفوعون الى مخاصمة التلفاز بروح الغَيرة على دين الله ، حين يوفقون الى تحقيق ذلك الخير ، سيؤدون لأمتهم خدمة مشكورة ، اذ يكون لكلامهم ومجهودهم اذ ذاك الأثر الايجابي الفعّال لدى الذين بيدهم أمر هذا السلاح ذي الحدين .

ويومئذ فقط سيكون التلفاز احدى وسائل الدعاة الربانيين الى اعـادة بناء المسلمين ، والى اقـامة صوى الحق والخير والهداية للعالمين ...

فاللهم جنّبنا مخاطر هذا (المارد) وشروره ، ما علمنا منها وما لم نعلم .. وآتنا من منـافعه وخيراته ما علمنا منها وما لم نعلم .

اللهم آمين .. والحمد لله رب العالمين ..



مصادر استعين بهـا

بعد كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

١ ـ المراة العربية في الجاهلية والاسلام للاستاذ عفيفي

٢ ـ المراة بين البيت والمجتمع للاستاذ البهي الخولي

٣ ـ الحجاب للعلامة الاستاذ ابي الاعلى المودودي

٤ ـ آداف الزفاف لمحدث الشام الاستاذ محمد ناصر الدين الألباني

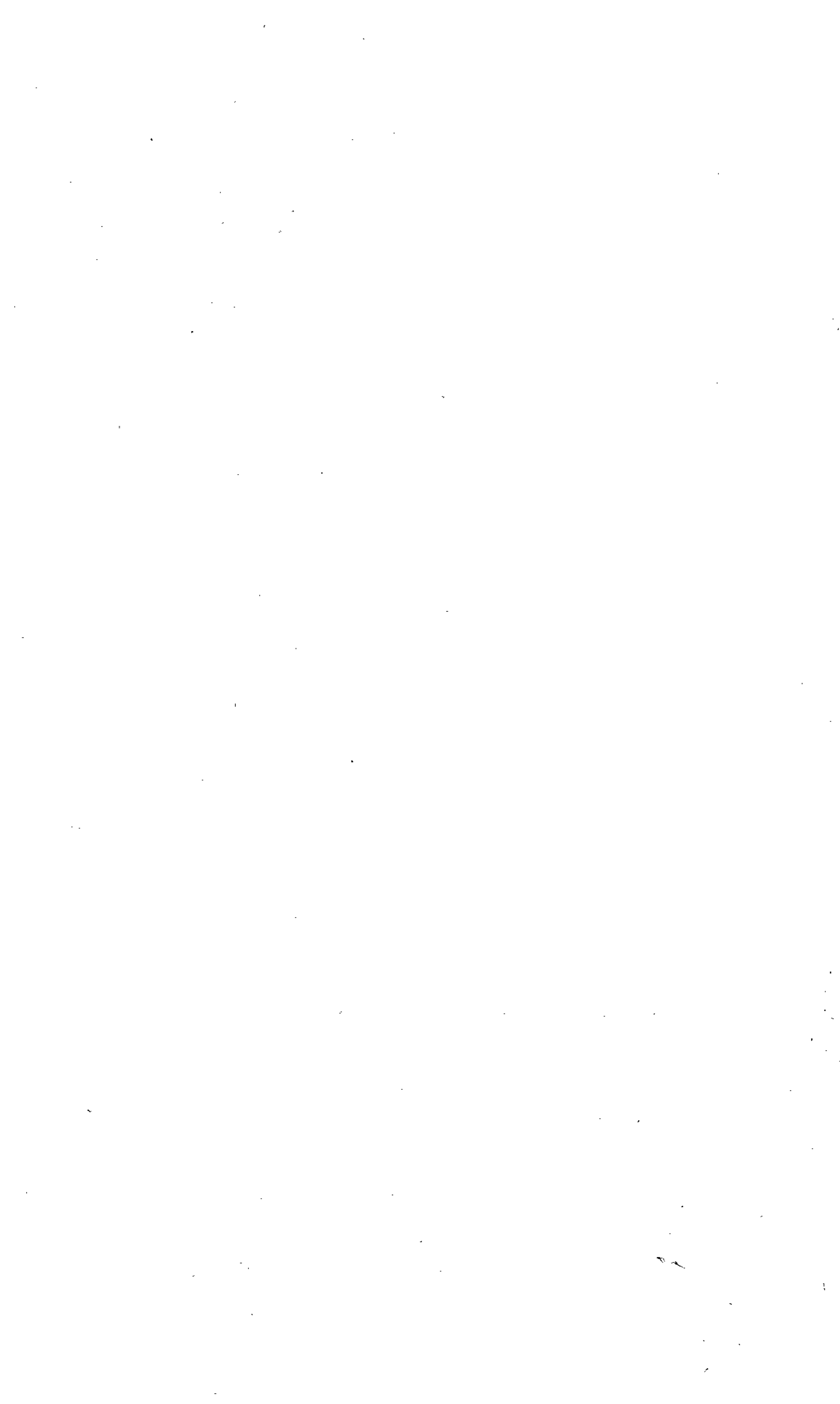
٥ ـ الانسان بين المادية والاسلام للاستاذ محمد قطب

٦ ـ شبهات حول الاسلام للاستاذ محمد قطب

٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة ابي الحسن الندوي

٨ ـ الاسلام بنظر الغرب تعـريب الدكتـور أسحق موسى الحسيني

٩ ـ بحوث في مجلة (رسـالـة الاسلام) للدكتـور علي عبد الواحد رافي



دليل الكتاب